





رحلة إلى الرياض في عام 1865 م

اللفتنانت كولونيل لويس پيلي

ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش



رحلة إلى الرّياض

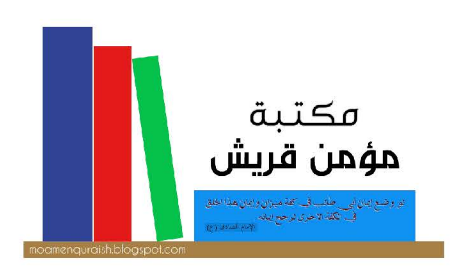
روّاد المشرق العربي

رحلة إلى الرّياض

في عام 1865 م / 1281 هـ

للرحّالة البريطانـي

اللفتنانت كولونيل لويس پيلي



ترجمة وتعليق

د. أحمد إيبش

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
LC DS247. 9. 35 P4412 2010
Pelly, Lewis, Sir, 1825-1892
رحلة إلى الرياض في عام 1865م-1281هـ/ لويس بيلي، ترجمة وتعليق احمد إيبش. ـ ط.1.ـ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.
368 ص: 17 x 24 سم. (سلسلة رواد المشرق العربي)
ترجمة كتاب: Report on a Journey to Riyadh in Central Arabia, 1865
تدمك: 978-9948-01-464-5
1- نجد (السعودية) - وصف ورحلات. 2- الرياض(السعودية)- وصف ورحلات.
3- Pelly, Lewis, Sir, 1825-1892 أ-إيبش، أحمد. ب- العنوان.

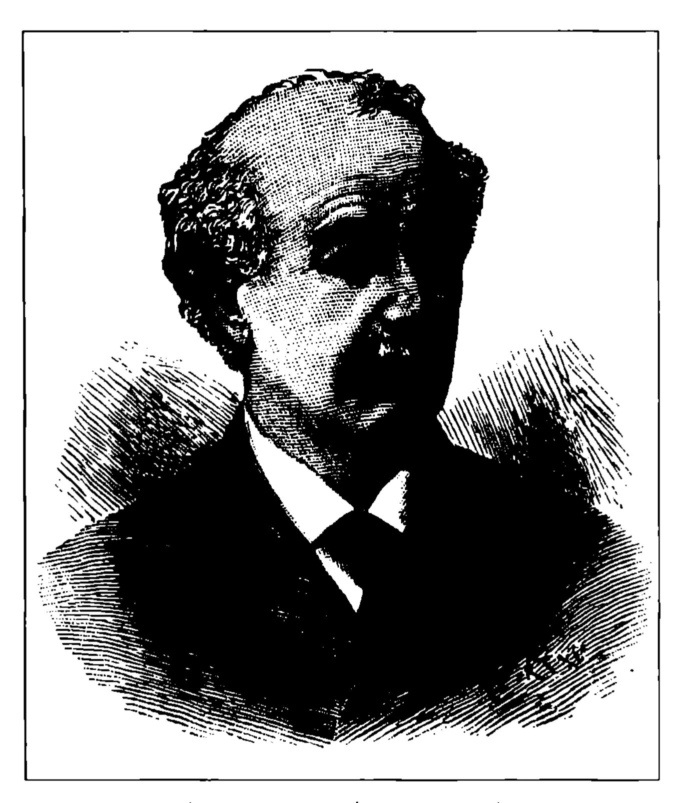


الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

تصميم الغلاف: أحمد عبدالله التتان

أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 6215300 2 971+

publication@adach.ae
www.adach.ae



اللفتنانت جنرال سير لويس پيلي

في أواخر عمره

Lieut.-General Sir Lewis Pelly

1825-1895 م

سلسلة
روّاد المشرق العربي

تقدّم هيئة «أبوظبي للثقافة والتراث» للمكتبة العربيّة بوجه العموم ، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص ، باكورة نتاجها من هذه السّلسلة الثقافيّة والتراثيّة تحت عنوان : «روّاد المشرق العربي» ، التي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد ، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة ، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً .

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التراث العربي المخطوط ، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب ، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي ، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله ، وخاصّة خلال القرن العشرين . فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تُراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى ، منها على وجه المثال : الأدب العربي ، الشعر ، النّحو ، الحديث الشريف ، الفقه ، التاريخ ، الفلسفة والفكر الإنساني ، الفنون ، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء . ومنها الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات .

وما دُمنا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي ، فلا بُدّ أن نؤكّد على أنّ ثمّة تيّاراً موازياً له ، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه ، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تُراث العروبة ، ألا وهو : أدب رحلات الأوروبيّين إلى مشرقنا العربي ! هذا المبحث مع الأسف لم يتمّ التركيز الكافي عليه حتى الآن ، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقّفي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسّياسي والاجتماعي .

هذه الرّحلات لم تتوقف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعـوة الإسـلام الحنيف ، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيـارة المشـرق منـذ عصـر حضـارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني ، ورحلة هـيرودوتوس) ، والرّومـان (كرحلة إيليوس غالوس) . ثمّ في القرون الوسطى حـلّ الطمـع محـلّ الفضـول ، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّـة ، فمكثت فيه على الشريط السّاحلي لبلاد الشام مـدّة 193 سـنة ، وحـاولت احتـلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها .

فلمّـا أطـلّ القـرن السّـادس عشـر ، بـدأت مرحلـة جديـدة في هـذه الملحمـة الثقافيّة والحضاريّة مـن علاقـات الشـرق بـالغرب ، فتضـاعف إلـى حـدّ كبير عـدد الرّحّالين الأوروبيّين ، الذين قصدوا المشرق إمّا للتجـارة أو المغـامرة أو الاسـتطلاع أو للخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة . أمّا جزيـرة العـرب ، معـدن العروبـة وأرومـة قبائلها ، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم ، فلا غرو أنّها نالـت من اهتمـام رحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثـير ، عـبر خمسـة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشـرين) . . فجـابوا بواديهـا وفيافيهـا ومجاهلها ، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقُراها ومضارب بدوها .

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد ، الذي يضمّ المئات من نصـوص الرّحلات النّادرة ، تقوم هيئة «أبوظبي للثقافة والتراث» اليوم بنشر بـاكورة أجزائهـا بالعربيّة ، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منها ، وتقديمها للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التحقيق والبحـث ، وأجمـل حلّـة فنيّـة مـن جـودة الطباعـة وتقديم الوثائق والصّور والخرائط المفيدة .

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث

هذا الكتاب

يعدّ المؤرّخون قيام دعوة الإصلاح في نجد بالقرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) بمثابة نقطة المبتدأ لتاريخ قلب جزيرة العرب في العصر الحديث . ففي العام 1158 هـ (1745 م) تحالف القاضي محمد بن عبد الوهاب مع شيخ بلدة الدّرعيّة محمد بن سعود وانطلقا معاً في مسيرة إصلاح ديني وتوحيد سياسي سرعان ما انتشرت في أرجاء الجزيرة ، كان من أبرز قوّادها ابن الإمام محمد ابن سعود (عبد العزيز) وحفيده (سعود) . أطلق المناوئون عليها تسمية «الدّعوة الوهابيّة» لكن التّسمية لا تهم بقدر ما يهمّ المضمون وواقع الحال .

سرعان ما اجتاحت قوّات الإمام أنحاء الجزيرة حتى تجاوزتها إلى سورية وبلغت مدينة حلب في شمالها ، غير بعيد عن حدود ولاية الأناضول العثمانية نفسها . وبعد قليل سيطرت قوات الموحّدين على أرض الحجاز ، وضمّت مكة وبعدها المدينة إلى نطاق هذه الدولة الفتيّة التي أسسها الإمام محمد بن سعود ، واصطلح المؤرّخون على تسميتها بـ«الدولة السّعودية الأولى» .

ثارت حفيظة العثمانيين من هذا المدّ الأصولي ، فما كان منهم إلا أن أمروا واليهم على مصر محمد علي باشا بغزو الدولة الفتية في عقر دارها نجد . وبالفعل جرّد محمد علي على نجد حملة كبيرة بقيادة ابنيه طوسون وإبراهيم ، وانتهت المعارك بظفر المصريين وتخريبهم للدّرعية عام 1233 هـ (1818 م) ، وأخذوا إلى مصر معهم عدداً من الأسرى السعوديين ، على رأسهم عبد الله ابن الإمام .

من جهة أخرى ، كان النّفوذ السّعودي الذي امتدّ إلى السّواحل الشرقية للجزيرة قد أثار مخاوف الإنكليز ، وطالت غارات السّلفيين السفن الإنكليزية المبحرة في الخليج العربي كما وصلت إلى سواحل الهند نفسها . وبعد عدّة محاولات فاشلة استطاعت قوات الحكومة البريطانية في الهند خفض وتيرة هذه الغارات ، وأوكلت مهمة السيطرة على الخليج العربي إلى البحرية الأنغلوهندية . ومنذ ذلك الحين تم إنشاء مندوبيّة بريطانية في منطقة الخليج ، في مدينة بوشهر بإيران ، أضحت قاعدة السياسة البريطانية في المنطقة .

في عام 1238 هـ (1823 م) تمكّن الأمير تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود من الإفلات من أسره بمصر عائداً إلى نجد واستعاد قوّته وتنظيم أتباعه من جديد . وبعد أن قام باتخاذ عاصمة جديدة لآل سعود ، هي مدينة الرياض ، انطلق فغزا الأحساء وجبل شمّر ، وحاول فتح صفحة من العلاقات السّياسية مع بريطانيا . بيد أنه لقي منيّته مُغتالاً عام 1250 هـ (1834 م) ، وبعد 40 يوماً ثار ابنه فيصل وأجهز على قاتل أبيه وتسلّم مقاليد الإمارة .

لاحت للمصريين عند ذاك علائم الخطر من جديد من دولة آل سعود التي بدأت تستعيد قوتها ، فجرّدوا عليها حملة ثانية ونفوا الأمير فيصلاً إلى القاهرة عام 1254 هـ (1838 م) . ثم في عام 1256 هـ (1840 م) بنتيجة ملابسات حكم المصريين لسورية ، سحب محمّد علي قواته من الجزيرة العربية ، تاركاً وراء فلوله حاكماً ضعيفاً . وتلا ذلك فترة اضطرابات ، اختتمت بإفلات الأمير فيصل من الأسر واستعادته للسلطة في نجد عام 1259 هـ (1843 م) .

عندما استعاد الأمير فيصل بن تركي الحكم سخّر جميع طاقاته لمتابعة العمل من أجل دعوة الإصلاح ، ولاستعادة مكانة الدولة السعودية وقوّتها . وكان الأمير فيصل رجلاً ذكياً حكيماً قوياً شجاعاً لا يعرف التّواني ولا التّردّد ، فسرعان ما سيطرت مهابته على قلوب القبائل المتفرقة ، وجعلت تنحاز إلى طاعته وحلفه الواحدة بعد الأخرى . وأحرز الأمير فيصل عدة انتصارات باهرة على مناوئيه ، فبلغت الدّولة السّعودية الثانية في عهده أقصى نفوذها وقوّتها ، وخاصة في ساحل عُمان ، حيث زيدت أموال الزّكاة من مَسقط وصُحار .

سرعان ما ضمّ الأمير فيصل المنطقة الساحلية الشرقية ، وإقليم الأحساء الغني ، وواحة البُريمي إلى الجنوب (دخلها ابنه عبد الله عام 1269 هـ = 1853 م) ، وامتدّت سيطرته عدا عن نجد وباقي الجزيرة ، لتشمل أقساماً كبيرة من الساحل الغربي للخليج العربي وساحل عُمان . وجعل الأمير فيصل ينتقل من نصر إلى نصر ، حتى غدا بحقّ المؤسس الفعلي لما يُعرف بـ «الدّولة السّعودية الثانية» . واستحقّ بذلك عن جدارة لقب «الإمام» ، فكان يُعرف بلقب «الإمام فيصل بن تركي آل سعود» . وهو جدّ الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، مؤسّس المملكة العربية السعودية الحالية (وهي الثالثة بحسب الترتيب التاريخي المُتعارف عليه) .

* * *

كتب المؤرخ الأمريكي وايندر R. Winder :

«إن عائلة آل سعود أفرزت في اللحظات المناسبة أقوى الأشخاص الذي يتمتعون بالفطنة وقوة الطباع ، والذين تمكنوا من السيطرة على مختلف العناصر الانفصالية في مملكتهم الشاسعة ، واستطاعوا أن يطبّقوا العدالة الصارمة» .

كان من هؤلاء الرجال الأشداء ، دون شك ، الإمام فيصل بن تركي . ولكن يبدو أن انتصارات الإمام لم ترُق لإنكلترا التي كانت تتطلّع إلى السيطرة على كامل سواحل الخليج العربي ، وازدادت مخاوف الإنكليز كثيراً بشكل خاص عندما أمر الإمام قواته في البريمي بالتوغّل في مسقط لإخضاعها بالقوة ، وهذا ما جعلهم يتدخلون مباشرة إلى جانب سلطان مسقط ، كما ذكر الكولونيل بيلي نفسه (الفقرة 114 من الكتاب) .

ولم يتوانوا بعد ذلك عن مهاجمة الأراضي السعودية نفسها بعد وفاة الإمام فيصل عام 1282 هـ (1865 م) ، فلقد قامت السفن الحربية البريطانية بقصف بعض موانئهم المطلّة على الخليج ، وفي عام 1283 هـ (1866 م) قصفوا قلعة القطيف وقصفوا الدمّام وصور . وما من شك أن السياسية الإنكليزية بعد وفاة الإمام فيصل لم تكن تحبّذ ازدياد قوة الدولة السعودية الناشطة ، ولذا بذلت الكثير من الجهود لإيقاع الأمير عبد الله بن فيصل في حبائل الاضطرابات والمؤامرات ، بغية «كسر شوكة السعوديين» كما يذكر بيلي نفسه (الفقرة 112 من الكتاب) .

ويبدو تخوّف بريطانيا من توسع الدولة السعودية في كلام بيلي أيضاً (الفقرة 113) : «إن تمكن عبد الله من إحكام قبضته في الداخل وأمن في نفس الوقت من تدخّلنا الخارجي ، فربما تكون النتيجة أن يحكم الحلف السعودي سيطرته للتو على مشايخ الخليج العربي ، وتقع كل المنطقة الشرقية من جزيرة العرب – من الكويت إلى رأس الحدّ – أخيراً في قبضة السعوديين» .

* * *

أما رحلة المُقيم اللفتنانت كولونيل لويس بيلي Lieut. Colonel Lewis Pelly من الكويت إلى الرياض فقد كانت في ذروة قوة الدولة السعودية الثانية ، قُبيل وفاة الإمام فيصل بأشهر قليلة . لكن بيلي عقب وفاة الإمام نكث بوعوده البرّاقة في «إحلال السلاّم في المنطقة وخدمة شعوبها» ، وشرع يمارس دوراً آخر مغايراً تماماً لهذه الوعود ، مستهدفاً إضعاف الدّولة السّعودية .

ولد المؤلف عام 1825 م وانخرط في جيش بومباي بالهند وخدم في الحرب الإيرانية عام 1857 م وقام بعدة مهام سياسية فخدم بوظيفة سكرتير المفوضية البريطانية في طهران بعد أن وصلها قادماً من طرابزون (في تركيا) لاستلام منصبه . وعندما أنهى مهماته قفل عائداً إلى الهند بطريق هَرَاة وقَنْدَهار مرتدياً البزّة الرسمية البريطانية ، فكان بذلك أول بريطاني يمرّ بالمنطقة منذ الحرب الأفغانية 1838-1842 م . وبعد أن أمضى فترة قصيرة كمندوب سياسي في زنجبار ، أُرسل إلى الخليج العربي كمُقيم سياسي Political Resident عام 1862 م . وأبدى نشاطاً كبيراً بالتنقّل في المنطقة .

وتتميّز رحلة پيلي إلى الرياض بأهمية خاصة ليس لمجرد كونها رحلة شاقة ، بل بسبب الخلفية السياسية التي تنطوي عليها . ولقد أشار پيلي بنفسه أن الغاية الأولى من رحلته كانت «إبعاد مشاعر العداء عن مخيّلة الأمير فيصل ، هذه المشاعر التي انطبعت في مخيّلة سموّه من جرّاء أعمالنا لتحريم تجارة الرّقيق على الشاطئ الشرقي لإفريقيا ومهاجمتنا للسواحل» .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن العلاقات بين الأمير وبريطانيا كانت سيئة للغاية ، فلقد تسبب تذرّع بريطانيا بمكافحة تجارة العبيد بمعاداته ، فضلاً عن أن الأمير فيصلاً كان يعتبر أن كامل الساحل الغربي للخليج العربي يتبع له كما كان يتبع لأجداده ، وكذلك فقد راح يضغط على عُمان ، مما أثار حفيظة سلطان مسقط ، وهو حليف قديم للحكومة البريطانية في الهند . وفي عام 1861 م قام الإنكليز بقصف ميناء الدمّام السعودي وبإنزال فرقة عسكرية ، رداً على تهديد الأمير فيصل للبحرين التي كانت محميّة بريطانية .

ويبدو أن مهمة پيلي كانت تنطوي على أكثر من ذلك ، فمن المؤكد أن لها صلة بالتنافس ما بين فرنسا والهند البريطانية للسيطرة على أواسط جزيرة العرب ، فبريطانيا الڤيكتورية كانت تُدرك أن غاية الفرنسيين هي قطع طرق البرّ عليها صوب الهند ، التي أطلقت عليها آنذاك اسم «جوهرة التاج البريطاني» لكونها أغنى مستعمراتها . وفي حقبة الستينات من القرن التاسع عشر كان إمبراطور فرنسا ناپوليون الثالث في ذروة حكمه ، وكان يُعرف عنه الطموح للمسير على خطى ناپوليون بوناپارت . وطالما جالت بخاطره فكرة سلفه القديمة التي تفترض إقامة «إمبراطوريّة عربية تتألف من أمّة متميزة بطابعها وميولها ولغتها ، وتضمّ كلاً من مصر وجزيرة العرب وجزءاً من أفريقيا» . وكان مبدأ الرابطة العرقية أساسياً لدى ناپوليون الثالث أيضاً ، كما اتضح من موقفه تجاه مسألتي إيطاليا والبلقان .

كان لنابوليون الثالث طموحات سياسية وأحلام كبيرة ، منها قيام هذه الأمة العربية الكبرى لتتحالف مع فرنسا . وفي عام 1854 م حاز على تأييد النصارى اللاتين في المشرق بوقوفه إلى جانبهم في النزاع الذي سبق حرب القرم . وفي عام 1860 م أعلن نفسه في الجزائر إمبراطوراً على كل من العرب والفرنسيين ، وفي السنة ذاتها أنزل قوات في لبنان لمعونة أصدقاء فرنسا التقليديين من الموارنة ، الذين كانوا آنذاك يشتبكون في حرب أهليّة مع الدّروز الميّالين إلى بريطانيا . وفي الوقت ذاته أيضاً كان النّفوذ الفرنسي مسيطراً بقوّة في مصر ، حيث كان ابن عم زوجة نابوليون المهندس فردينان دي ليسبس Ferdinand de Lesseps يقوم بشق قناة السّويس .

وفي عام 1862 م أوفد نابوليون الكاهن اليسوعي الإنكليزي وليَم غيفورد بالغريف William Gifford Palgrave إلى الشرق الأوسط برحلة عُدَّت وقائعها مُلفّقة إلى ما قبل فترة وجيزة ، ثم تمّ مؤخّراً إثبات صحّة ما ورد فيها . ذهب بالغريف أولاً إلى مصر فقام بمباحثات سرية مع الباشا ، ثم تابع طريقه إلى الرياض متخفّياً بزي طبيب مسيحي سوري (ميشيل السّهيل) ، فكان بذلك أول أوروبي على الإطلاق يدخل الرياض عام 1863 ، أي قبل زيارة پيلي بعامين . ولعله هو الذي عناه الأمير فيصل في نص رحلة پيلي (الفقرة 74 من الكتاب) .

بعد عامين اثنين أرسل نابوليون موفداً آخر إلى جزيرة العرب هو الإيطالي كارلو غوارماني Carlo Guarmani مندوب مصلحة البريد الفرنسية في القدس (كما رأينا في كتابه الذي نشرناه مؤخراً) . ومثلما فعل بالغريف ، أمضى غوارماني فترة من الوقت في منطقة جبل شمّر شبه المستقلة . ولذلك كله بدا أنّ من الضروري جداً للبريطانيين أن يستطلعوا مخططات الفرنسيين ، وفيما إذا كانوا يطمحون إلى إنشاء إمبراطورية عربية بسيطرة فرنسية على طريق الهند في وجه بريطانيا .

كان بالإضافة إلى ما تقدّم دافعان اثنان لحمل پيلي على هذه الرحلة . أولهما أنه كان يرغب بجمع معلومات جغرافية ، وأشار إلى كلمة رئيس الجمعية الملكية آنذاك بأن ما نعرفه في يومنا عن قلب الجزيرة العربية يقلّ عما كان يُعرف في زمن بطليموس ، وبأن أحداً لم يكن بقادر على تحديد موقع الرياض بدقّة . وثانياً : يبدو أن پيلي قد أرّقته الغيرة من بالغريف ، فأصر على إثبات بُطلان زعمه بأن من يسافر من الأوربيين في جزيرة العرب علناً دون أن يخفي شخصيته أمر خطر للغاية وربما يؤدّي إلى الموت . والحق أن رحلة پيلي اعتبرت في بلاده مجازفة كبيرة ، وطالما عدّها الكتّاب مأثرة هامة في ذلك الحين .

أما من الناحية السياسية فيبدو أن الرحلة لم تحقق الثمار المرجوّة منها ، فلقد توفي الإمام فيصل في ختام السنة ذاتها ، وأعقب ذلك فترة من الاضطرابات في جزيرة العرب بوقوع الخلاف بين ابني الإمام عبد الله وسعود ، وبانشقاق إمارة جبل شمّر في حائل . واتّخذت مندوبيّة بوشهر التابعة لحكومة الهند البريطانية موقفاً عدائياً محضاً من الدّولة السّعودية . أما عن الطموحات الفرنسية ، كائنة ما كانت ، فقد تبخّرت وتلاشت عُقيب هزيمة الفرنسيين الماحقة في سيدان .

غير أن الرّحلة تبقى ذات قيمة تاريخية خاصّة ، وأهمّ ما فيها بلا ريب هو وقائع اللقاء النّادر الذي تمّ بين پيلي والإمام فيصل ، الذي يلمح فيه القارئ مدى الاحترام الذي أبداه پيلي تجاه الإمام ، وهو شاهد غريب المفترض به أنه يؤدّي وجه نظر دولة معادية ، فلم يمنعه هذا من الإشادة بمزايا فيصل وحزمه وذكائه ومقدراته السياسية . أما المعلومات الجغرافية والاجتماعية الواردة فيها فهي هامة دون شك ، وكذلك الملاحق والجداول والإحصاءات بآخر الكتاب .

* * *

عند تولّي عبد الله بن فيصل بن تركي مقاليد الحكم في الرّياض نشبت أزمة جديدة بين نجد ومَسْقط ، فقد ساند عبد الله ثورة عزّان بن قيس حاكم الرُّستاق على قريبه السّلطان ثويني ، وأمدّه بقوّات حاكم البُريمي السّعودي تركي آل سديري ، وأرغم السّلطان على رفع قيمة مال الزّكاة . ثم في عام 1864 م استولى ثوّار عُمانيون على مدينة صُور السّاحلية بتأييد فصيل نجدي بقيادة عبد العزيز بن مُطْلَق ، وتعرّضت المدينة للنّهب وكان من بين المتضرّرين تجّار هنود ورعايا بريطانيون .

فما كان من الإنكليز إلا أن ناصروا ثويني وبعثوا باحتجاج إلى الرّياض ، فقام عبد الله بإطلاق سراح الأسرى الذين قُبض عليهم في صُور وبإعادة الأملاك المنهوبة . غير أن پيلي باشر بتطبيق سياسته المعادية للرّياض كما أبدى بوضوح في نصّه ، فانحاز عسكرياً إلى جانب سلطان مَسقط وأرسل إليه المدافع ، ثم أمر السفينة الحربية البريطانية «هاي فلاير» *High Flyer* بإطلاق النار على ميناء عَجمان المطلّ على ساحل عُمان في الخليج . وفي بداية شباط (فبراير) 1866 م دُمّرت قلعة القَطيف وعدّة سُفن صغيرة في مرفئها . وبعد عدّة محاولات فاشلة لإنزال قوّات بريطانيّة في الدّمّام أطلقت سفينة «هاي فلاير» النّار عليها ، ثم قصفت السفينة البريطانية مدينة صُور المتمرّدة ودمّرت فيها زوارق السكّان .

تلا ذلك ركون الإمام عبد الله بن فيصل إلى فتح مفاوضات سياسية مع پيلي عن طريق تبادل المراسلات الديبلوماسيّة ، ساعياً إلى الحيلولة دون تدهور العلاقات مع بريطانيا وإلى تأمين اعتراف الإنكليز به حاكماً للإمارة ، وإبعاد الدّسائس البريطانيّة . مع ذلك ، كان عبد الله يُدرك أن الإنكليز كانوا ضدّه ، فعمل جهده على اتّقاء شرّهم ، إلى أن وجد نفسه في خاتمة المطاف مضطراً للاستعانة عليهم بالعثمانيين .

شهدت بقيّة ستّينيات القرن الثامن عشر استفحال النّزاعات والقلاقل في شرقي إمارة نجد في البحرين وعُمان والبُريمي ، وقامت في حائل بجبل شمّر إمارة آل رشيد التي بدأت تتملّص من النّفوذ السّعودي ، حتى استقلّت تماماً بزعامة محمد بن عبد الله ابن رشيد (1871–1897 م) . أدّت هذه القلاقل ، بالإضافة إلى النّزاع الطويل بين الإمام عبد الله وأخيه سعود ، إلى إضعاف الدّولة السّعودية الثانية . ثم بُعيد ضمّ العثمانيين للأحساء عام 1871 م كان مصير الدّولة الثانية الانهيار التام ، إلى أن قامت الدّولة الثالثة على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرّحمن الفيصل آل سعود .

* * *

أما پيلي فبقي في منصبه بالخليج حتى عام 1873 م ، وكان في تحركاته وأعماله فاعلاً لكن تعوزه الرويّة والتعقّل ، وكان من أوائل المسؤولين الإنكليز الذين رأوا عدم كفاية حفظ السّلام في المنطقة بل وجوب رفع السويّة المعيشية لشعوبها . وكان يدعو لإنشاء مستعمرة بريطانية على شبه جزيرة المُسَندم التي تُعدّ من أكثر المواقع حرارة على الأرض . بعد ذلك تولّى عدة مناصب هامة في الهند ، ومراراً ما دخل في صراعات سياسية مريرة . وفي عام 1883 ، دعاه ليوپولد ملك بلجيكا ليصبح حاكماً مدنياً للكونغو ، لكن پيلي آثر الدخول في البرلمان البريطاني . وتوفي عام 1895 م .

* * *

نشر پيلي نص رحلته في صحيفة الجمعية الجغرافية الملكية بلندن عام 1865 :

"A Visit to the Wohabee Capital, Central Arabia", in: *Journal of the Royal Geographical Society*, London, 1865, vol. 35, pp. 189-190.

ثم ظهرت الطبعة الثانية في كتاب منفرد نُشر في بومباي بالهند عام 1866 :

Report on a Journey to the Wahabee Capital of Riyadh in Central Arabia, By: Lieut. Col. Lewis Pelly, H. M's. Political Resident in the Persian Gulf. With map and appendices. Bombay, printed for the Government at the Education Society Press, Byculla, 1866.

أخيراً ، فإن نصوص رحلات الأوروبيين إلى بلادنا العربية ، ومنها جزيرة العرب ، تُعدّ مصدراً ثميناً وواسعاً لدراسة أحوال هذه البلاد في القرون الماضية . وهذه المصادر رغم كثرتها لم ينشر منها بالعربية سوى أقل من القليل . لذا نعقد العزم اليوم على نشر المزيد من هذه النصوص ضمن سلسلة «روّاد المشرق العربي» ، وكتتمّة لهذا الكتاب وكتاب رحلة كارلو غوارماني «نجد الشمالي» ، سوف ننشر قريباً كتاب «رحلة إلى نجد» للرّحّالة البريطانية الليدي آن بلنت ، وهو كتاب هام وشيّق يروي رحلة هذه المُغامرة الجريئة مع زوجها من دمشق إلى حائل في عام 1878-1879 م ، وكيف اجتازا صحراء النّفود وتعرّضا إلى الكثير من المفاجآت والمخاطر .

وأمنيتنا أخيراً أن يشاركنا القرّاء الأكارم أفكارهم وانطباعاتهم حول هذا الكتاب على البريد الإلكتروني : a.ibesch@hotmail.com ، مع وافر التحيّة .
والحمد لله ربّ العالمين .

بيروت ، 26 أكتوبر 2009

د . احمد إيبش

REPORT

ON A

JOURNEY TO THE WAHABEE CAPITAL OF RIYADH

IN

CENTRAL ARABIA

BY

LIEUT. COL. LEWIS PELLY
H. M'S. POLITICAL RESIDENT IN THE PERSIAN GULF.

WITH MAP AND APPENDICES

Bombay:
PRINTED FOR GOVERNMENT
AT THE EDUCATION SOCIETY'S PRESS, BYCULLA.

1866.

عنوان الطبعة القديمة للكتاب
في بومباي عام 1866 م

التقرير رقم 57 لعام 1866

الدائرة السياسية

من الكولونيل لويس پيلي
المُقيم (المندوب) السياسي لجلالة الملكة[1] في الخليج العربي
إلى سي. غوني C. Gonne المحترم
وزير الدّولة البريطانية في بومباي

المُقيميّة البريطانية ، بوشهر 15 أيار (مايو) 1866

سيّدي :

أُعرب لكم عن عميق أسفي لتأخّري في تقديم هذا التقرير ، وهو التقرير الخاص بزيارتي للعاصمة السُّعودية الرّياض في ربيع العام المنصرم . أما سبب هذا التأخير فهو أنني بُعيد عودتي من أواسط الجزيرة العربية بثلاثة أيام ، كلّفني سعادة رئيس المجلس بالذهاب إلى مَسْقَط ، بغية تقديم العون لسلطانها إزاء تعاظم قوة السُّعوديين . ومن مَسْقَط توجهت إلى بومباي ومن ثمّ إلى إنكلترا .

فور عودتي من إنكلترا أوكلت الحكومة إليّ من جديد شرف تمثيلها في مَسْقَط ، وذلك لمساعدة سلطانها الذي كانت حكومته مهدّدة آنذاك من جهة السُّعوديين بخطر الزّوال . ومنذ ذيّاك الحين إلى ما قبل أيام يسيرة خَلَت وجدتُ نفسي في ترحال مستمر ، مستغرقاً تماماً في واجباتي على سواحل الجزيرة العربية ، ولم يكن لديّ سوى كاتب واحد ، الذي وقع هو الآخر فريسة المرض كباقي الموظفين عندي . ولذا فلعلّ حكومتكم تُدرك جيداً أنني في الآونة الأخيرة لم أكن بقادر على تحرير مراسلاتي ، حتى اليومية منها .

---

(1) أي ملكة بريطانيا ڤيكتوريا ابنة إدوارد ابن جورج الثالث ، حكمت بين 1837-1901 .

– 2 –

علاوةً على ذلك ، فإن الغايات التي كانت نُصب عيني عندما توجّهتُ إلى عاصمة السُّعوديين لم تتضمّن أصلاً كتابة تقرير مفصّل . وهذه الغايات هي :

بالدرجة الأولى وبشكل رئيسي ، إبعاد مشاعر العداء عن مخيّلة الأمير [فيصل آل سعود] ، التي حملها من جرّاء أعمالنا حول تحريم تجارة الرّقيق على الشاطئ الشرقي لأفريقيا ومهاجمتنا للسواحل ، وكذلك لتوثيق عُرى الصداقة وإحلالها محل ذلك العداء . في هذا الصّدد كان علي بذل كل ما يمكن من جهود عبر المقابلات الشخصية ، وهذا ما يبدو لي مفيداً للغاية لمصلحة السلام العام في منطقة الخليج العربي ولنموّ حركة التجارة فيه ، وبذلك أكون قد وُفّقت في أداء المهمات الموكلة إلي على أكمل وجه كمندوب للحكومة بتلك الديار .

– 3 –

وعليّ الاعتراف كذلك بأن هناك عاملين اثنين أسهما في دفعي إلى القيام بهذه الرحلة إلى الأراضي السُّعودية ، وهما :

أولاً : سجّلت الجمعية الجغرافية الملكية في لندن أنه ما من رجل أوروبي قط استطاع الوصول إلى عاصمة نجد دون أن ينتهي به المطاف إلى نتائج مأساوية[1] . ولقد لاح لي في هذا الأمر نوع من التحدي ، ورأيت في نفسي العزم على قبوله لما وقر في اعتقادي على الدوام أن الضابط الإنكليزي يستطيع بشيء من الحيطة والخبرة المضي إلى أي مكان في آسيا ، حيثما يدعوه الواجب لخدمة الحكومة البريطانية في الهند .

---

(1) ليس هذا بصحيح البتّة ، ففي الواقع سبق بيلي بزيارة الرّياض الرّحالة البريطاني وليَم غيفورد بالغريف ، الذي زار متخفياً الجزيرة العربية وسواحلها الشرقية (منطقة الخليج كقطر والبحرين والشارقة وعُمان) بمهمّة سريّة من قبل إمبراطور فرنسا نابوليون الثالث ، بين عامي 1862–1863 م . ووصفُ الرّياض بآخر الجزء الأول من كتابه (الطبعة الأولى بلندن 1865) ، ص 389–466 ، بالإضافة إلى فصل آخر عن أوضاعها بمطلع الجزء الثاني ص 1–37 ، وفصل ثالث عن بلاط الحكم ص 88–126 . وعنوان كتابه :
The Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia.

ثانياً : كنتُ علمتُ أن رئيس الجمعية الجغرافية قد أقرّ بأن ما لدينا من معلومات – نحن المعاصرين – عن جغرافية أواسط الجزيرة العربية تقلّ عن المعلومات التي كانت لدى الأقدمين المعاصرين لبطليموس[1] . ولذا رأيتُ أن من الضروري جداً الشروع في تعيين درجات العرض والطول للمواقع الرئيسية في تلك المنطقة حالما تسمح الظروف بذلك ، وفي نفس الوقت جمع بعض النماذج الطبيعية حسبما يُتاح للمرء من ذلك .

– 4 –

وأظنّ في الواقع أنني قد أفلحتُ في أداء هذه المطالب ، وأعتبر بذلك أنني قد أنجزت المهمة المطلوبة مني على أكمل وجه ، وذلك لأن تقريراً كهذا لا بد وأن يستوفي إيضاح الأساليب المتبعة بالتفصيل التي أدت إلى النتائج النهائية ، وليس أمامي من مهرب أن أعترف بأن هذه المعلومات الواردة في تقريري ستبدو أقل شأناً بكثير من تلك المعلومات التي نشرها في السابق الرحّالون البارزون ، كبُركهارت[2] ونيبور[3] ومستر لايارد[4] وغيرهم .

– 5 –

وعلى أي حال ، فأنا واثق أن هذا التأخير الذي حصل لم يكن غير ذي فائدة ، وذلك لأنني خلال إقامتي في لندن استطعت أن أضيف بعض الملاحق إلى تقريري هذا بمعونة كريمة من السّير رودريك مِرتشيسُن Sir Roderick Merchison والدكتور هُوكَر Dr. Hooker ، وهذه الملاحق هي :

---

(1) بطليموس Claudius Ptolemaeus أحد أعلام الجغرافيين والفلكيين والرّياضيين القُدامى ، عاش في الإسكندرية بالقرن الثاني للميلاد . أشهر كتبه : «جغرافيا بطليموس» .

(2) يوهان لودفيغ بوركهارت J.L. Burckhardt (1784–1817) رحّالة سويسري شهير ، جال في المشرق وأسلم وعُرف بالشيخ إبراهيم ، له رحلات في سورية والجزيرة والنّوبة .

(3) كارستن نيبور Carsten Niebuhr رحّالة دنيماركي من أصل ألماني ، قام برحلة عام 1762 من كوبنهاغن إلى صنعاء ، تعدّ أولى رحلات الأوروبيين العلميّة إلى جزيرة العرب .

(4) أوستن هنري لايارد A.H. Layard (1817–1894) عالم آثار بريطاني ، نقّب عن خرائب نينوى عام 1845–1847 واكتشف بها قصر النّمرود ، له أبحاث عنها وعن آثار بابل .

أولاً : خريطة من إعداد المستر إدوارد وِلَر Mr. Edward Weller ، راسم الخرائط (الكرتوغرافي) في الجمعية الجغرافية الملكية ، تُبيّن مسار رحلتي .

ثانياً : تحليل لبعض النماذج الجغرافية التي جُمعت أثناء الرحلة .

ثالثاً : قائمة بنباتات أواسط الجزيرة العربية التي جُمعت ورُتِّبت بحسب تصنيفها الطبيعي .

رابعاً : لقد أمعنتُ النظر في هذا التقرير ، ورأيتُ أن ما جمعته فيه من بيانات إحصائية أثناء رحلتي كان قليلاً بعض الشيء ، فلذا ألحقتُ به بعض البيانات الإحصائية كما يلي :

- وصف الطرق والمسالك من الكويت إلى الرّياض عبر سَدُوس .
- وصف الطرق والمسالك إلى الأحساء والعُقَير .
- بيانات إيضاحية حول عدد المراحل وأسمائها على طول الطرق من الكويت إلى القطيف .
- بيانات إيضاحية حول عدد المراحل وأسمائها على طول الطرق من الكويت إلى الأحساء .
- بيانات إيضاحية حول المسافات ما بين بعض النواحي والمدن في نجد من جهة وبين العاصمة الرّياض ، وبين مرفأ الكويت من جهة أخرى .
- بيانات حول الأوزان المقاييس والعملات المتداولةفي الرّياض .
- بيانات حول الأقوام القاطنين بنواحي نجد وأسمائهم وعددهم التقريبي ، والدَّخل السنوي لهذه النواحي ، وعدد المقاتلين المتوفرين في كل منطقة .
- بيانات إيضاحية حول أسماء عشائر البدو في نجد وأعدادها التقريبية ، والدَّخل السنوي الذي تؤدّيه كل عشيرة للأمير .

- 6 -

وإجمالاً فأنا على ثقة كبيرة أن الحكومة البريطانية في الهند ستعتبر هذه المبرّرات للتأخير الحاصل مقبولة ومرضية .

- 7 -

وأشرع الآن ، حسبما تسعفني به الذاكرة ، بتقديم لمحة عن الظروف التي أدّت إلى قيامي بهذه الرحلة ، نزولاً عند رغبة الحكومة مني بإعطاء وصف شامل لما رأيت وما سمعت وما فعلت في غضون زيارتي للأمير السعودي في الرّياض في شهري شباط (فبراير) وآذار (مارس) من العام الفائت .

- 8 -

ليس بخافٍ عن علم سعادة رئيس مجلس الحكم بالهند أنه منذ 50 عاماً خلَت كان هناك حلف ما بين بعض القبائل العربية التي انضوت تحت لواء الدّعوة السّلفيّة ، وكانت آنذاك في أوج سلطانها السياسي . انبثق هذا الحلف عن دعوة دينية ، وهي إحياء الروح الأصولية للإسلام ، وصاحب هذه الدعوة هو محمد ابن عبد الوهاب الذي ولد في العُيَيْنَة بوادي حنيفة عاصمة بني عامر[1] ، وحكم جزءاً من نجد ، وهي منطقة الهضاب في أواسط الجزيرة العربية .

ولقد وجد هذا الداعية في شخص الأمير [محمد بن] سعود شيخ الدّرعيّة[2] القوّة الفاعلة لانتشار دعوته وتوسيعها ، فكان هذان الزعيمان على التوالي المؤسسين الفعليين للسلطة الدينية والسياسية للحلف السعودي ، وكان أبناء عشائر الحلف يُعرفون على حد سواء بالوهابيين[3] أو برجال ابن سعود . ولفترة من الوقت بقيت السلطة الروحية وقفاً على آل عبد الوهاب ، لكن مع مرور الأيام توحّدت السلطتان الرّوحية والسياسية كلاهما في آل سعود ، الذين جمعوا بين الإمامة والإمارة[4] .

---

(1) هذا غلط ، فشيوخ العُيَيْنَة إبّان ظهور الدّعوة السّلفية كانوا آل مُعَمَّر وليس بني عامر .
(2) ورد بالأصل : «شيخ الرّياض المسمّى سعود» ، والصّواب شيخ الدّرعية محمد بن سعود فشيخ الرّياض آنذاك كان دهام بن دوّاس ، وكان من أعداء الدّعوة السّلفية .
(3) هذا غلط ، فتعبير الوهابيّة والوهابيين أدرجه الأوروبيون على الدّعوة السّلفيّة .
(4) من الواضح تماماً أن پيلي يستعصي عليه فهم قواعد نظام الحكم الإسلامي ، فالقاعدة فيها أن الإمام (كزعيم روحي) يمثّل في الوقت ذاته أعلى سلطة سياسية . أما في حضارة الغرب فهناك فصل بين السّلطة الرّوحية للكنيسة والسّلطة الزّمنية للمَلَكيّة .

في يومنا الحاضر لم يبق من أسرة ابن عبد الوهاب غير ابنه وحفيده ، والأول يعيش متقاعداً دونما أية سلطة دينية أو سياسية ، بينما يتميّز الإمام بأسبقيته على باقي الموالي ، ويُدعى له على المنابر بغاية الثناء مقروناً بذكر النبي[1] .

– 9 –

ما إن انبثق هذا الحلف السُّعودي حتى نما وتعاظم بسياسية قوية بارعة ، فكانت السّلطة المركزية تجنّد قبيلتين أو أكثر من القبائل الخاضعة لها ضد قبيلة أخرى خارجية ، وذلك إلى أن يتم الانتصار على هذه القبيلة فلا تجد حينذاك بدّاً من الدّخول في الحلف لتصبح جزءاً منه . على هذا النّحو تمكن السُّعوديون من السيطرة على كامل الجزيرة العربية تقريباً ، وعند ذلك الحين لم يبق بمنأى عن سلطة السُّعوديين سوى اليمن وشاطئ حضرموت ، وإذا بالحلف يتعرض للغزو من قبل باشا مصر ويُمنى بهزيمة مريرة ، ثم قامت قواتنا البريطانية بمهاجمة الحلف السُّعودي على طول سواحل المحيط الهندي والخليج العربي .

– 10 –

أدّى كل ذلك إلى انحسار رقعة الحلف واقتصاره على المناطق الداخلية في منطقة هضاب نجد ، وفي خلال فترة الضعف هذه حاول الأمير السُّعودي فتح السُّبل لعقد معاهدة مع الحكومة البريطانية ، فقوبلت هذه المبادرة بالرفض . وبعد مضي بعض الوقت انسحب المصريون من الجزيرة العربية ، وشيئاً فشيئاً بدأ الوجود البريطاني ينحسر من الخليج كقوّة بحرية .

---

(1) عليه أطيب الصلاة وأتمّ التّسليم . وكتب المؤلف : مؤخراً زُوّجت ابنة الحفيد بابن عبد الله [ابن فيصل] الإمام الحالي ، وربما أدّت المصاهرة إلى حصول حفيد محمد بن عبد الوهاب على دور ما في الشؤون السياسية والدّينية .
قلت : الحفيد المذكور هو الشيخ عبد الرّحمن بن حسن ابن الإمام محمد بن عبد الوهاب ، توفي عام 1285 هـ = 1868 م . أما من أبناء الإمام فلم يكن أحد على قيد الحياة في عام 1865 م ، وهم : علي وعبد الله وحسين وحسن وعبد العزيز وإبراهيم . فلا شك أن بيلي ظن الشيخ عبد الرّحمن ابن الإمام بدلاً من حفيده . انظر : عنوان المجد لابن بشر ، 2 : 28 ؛ علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الله بن عبد الرّحمن البسّام .

كان الفشل مصير جميع المساعي التي بذلها شيوخ عشائر السّواحل العربية لكبح جماح الحلف ، وذلك بسبب بعض الخلافات الناشبة بينهم ، فسلطنة مَسْقَط على سبيل المثال إثر وفاة أقوى زعمائها ، وهو المعروف لدينا باسم الإمام السيّد سعيد ، سرعان ما تمزّقت وتلاشت قوتها عقب تحكيمنا عام 1861[1] .

في هذه الأثناء استطاع السُّعوديون استجماع قواهم ، وتابعوا سياستهم التوسعية دونما رقيب عليهم ، وكان في شخص الأمير فيصل كقائد مقدرة فائقة على بثّ الرّعب في أوصال البدو ، وعلى تثبيت دعائم حكمه ضمن نظام مستقرّ ومزدهر ، ولو أنه كان قاسياً ومتعصباً بعض الشيء . أما عبد الله ، أكبر أبناء الأمير ، فقد خدم والده بجدارة كقائد عسكري ، وتمّ ضم كل من إقليمي الأحساء والقطيف الغنيين نسبياً ، وهذا ما أعاد للحلف من جديد مكانته كقوة ساحلية هامة .

كما امتدت حدود السُّعوديين السّاحلية إثر إخضاعهم لقبيلة بني خالد القوية القاطنة بنواحي الساحل ، والتي تمتد ديارها ما بين القطيف ورأس الخليج العربي ، وأما إلى جهة الغرب فقد تم إخضاع عشائر قحطان في الهضاب الواقعة على الطريق الآخذ إلى مكة . أما الحكومة التركية (العثمانية) فكانت تُسترضى بالأتاوة الرمزية التي كان يدفعها لها شريف مكة . بينما إلى جهة الشمال لعبت أواصر القربى دوراً هاماً في إحلال الوئام مع عشائر جبل شمَّر والظفير .

وحتى في الهند بدأت تتردّد أخبار السُّعوديين كمذهب سَلَفي قوي ، ولطالما كتبت الصحف بانطباعات منمّقة عن أهمية السُّعوديين ، وعن بثّهم - وهذا ما جرى فعلاً - للدُّعاة في عدة مواقع متباعدة ، بالإضافة إلى عدّة جماعات مستقلة

---

(1) عقب وفاة سلّطان عُمان السيّد سعيد عام 1856 م ، نشب الخلاف بين أبنائه ، فتدخّل للتحكيم بينهم اللورد تشارلز كانينغ Charles John Canning ، حاكم الهند البريطاني (1856–1862) ، وأسفر هذا التحكيم في عام 1861 م عن فصل زنجبار والساحل الشرقي لأفريقيا عن سلطنة عُمان ، مع العلم أنهما كانا في دولة البوسعيديين تابعين لها ، حتى أن زنجبار أضحت في عام 1832 عاصمتها . وينبغي أن نشير إلى أن مصلحة بريطانيا في فصل زنجبار وإفريقيا الشرقية عن سلطنة عُمان إنما كانت الغاية الكبرى منه إضعاف قوة الدولة السّعودية في نجد ، وليس بسبب الدّعوة إلى مكافحة الرّق .

من أتباع مذهبهم على امتداد سواحل إيران والجزيرة العربية . وفي الهند كان الاعتقاد السائد أن المرحلة الحاسمة ستكون عندما يصبح بإمكان السُّعوديين التوسّع دونما أي رادع ، والقيام بالتحرّكات اللازمة لاستعادة سلطتهم المباشرة على أراضي مَسْقَط ومشيخة ساحل القراصنة[1] ، ومن هنا يُدرك المرء ما كان يعنيه الأمير فيصل ابن تركي بكلامه في اللقاء الذي أجريته معه لاحقاً ، وهو إرساء قواعد المملكة التي وهبه الله إياها ، تلك المملكة التي تمتد من الكويت إلى رأس الحدّ ، وربما حتى أبعد من ذلك .

- 11 -

عندما وصلتُ إلى هذه البلاد كمقيم (مندوب) في الخليج العربي منذ ثلاثة أعوام ونصف ، وجدتُ أن من بين المهمات الملقاة على عاتقي القيام بدور المُحكِّم للهدنة البحرية التي أبرمها عدد من المشايخ شبه المستقلين على طول الشاطئ العربي . فبعد أن تحققت من الأمر أكثر فأكثر ، وجدت أن هؤلاء المشايخ ليسوا في الواقع أكثر من تابعين لسلطة نجد في الداخل ، حيث تقوم هذه السلطة بالضغط على حدود هؤلاء المشايخ المتاخمة لها ، مما يحملهم على دفع الزكاة لها ، وإلا يكون مصيرهم الخضوع بالإكراه . وتؤكد الأحداث الأخيرة أن النفوذ السُّعودي في نجد كان يتجه في الواقع اتجاهاً توسعياً ، وأن السيطرة السابقة للحكومة السُّعودية على كامل الشريط الساحلي لشرقي الجزيرة العربية ، من الكويت إلى رأس الحدّ ، كانت تُفرض بالقوة على نطاق واسع في خليج عُمان والخليج العربي وكذلك في المحيط الهندي ، وهذا ما أدى بطبيعة الحال إلى إلحاق الضرر الكبير بالحركة التجارية وبالسّلام العام[2] .

---

(1) ساحل القراصنة the Pirate Coast اسم أطلقه الإنكليز في القرن الماضي على السّواحل الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي ، أي ما يشمل اليوم سلطنة عُمان والإمارات العربيّة . لكن تهمة القرصنة وتجارة الرّقيق المنسوبة للخليج تهمة واهية ليس لها مصداقية ، وثمّة دراسة وافية لهذا الادّعاء كتبها الدكتور الشيخ سلطان بن محمد القاسمي (حاكم إمارة الشارقة) : أسطورة القرصنة العربية في الخليج (بالإنكليزية) :
Al-Qasmi, S.M.: *The Myth of Arab Piracy in the Gulf*, London, 1986.

(2) كتب المؤلف : انظر تقريري رقم 39 المؤرّخ في 2 شباط (فبراير) 1863 .

– 12 –

فوق ذلك ، يبدو أن تخريب بريطانيا لبعض الممتلكات العربية على الساحل الشرقي لأفريقيا تنفيذاً لسياستنا المناهضة للرقّ ، قد أثار في نفوس العرب كراهية عميقة ضد بريطانيا ، وانتقل هذا الشعور إلى نجد[1] . ولا شك أن الحكومة السُّعودية بدأ يزداد سخطها مؤخراً من جرّاء هجماتنا على سواحلها ، وأدّى ذلك بالطبع إلى قطع جميع العلاقات ما بين أمير نجد ومقيمّتنا (مندوبيتنا)[2] .

وفي الوقت نفسه لا يسعنا تجاهل أن جميع الفرقاء يعترفون بأن الأمير فيصل ابن سعود حاكم عادل وصارم ، وأنه نجح نجاحاً منعدم النظير في الحدّ من النزعات العدوانية للقبائل التي يحكمها ، كما أنه كان ماضياً في ترسيخ الميول الحضرية المفيدة في أذهانهم ، وفي توجيه عنايتهم إلى الزراعة والتجارة . لا أظن أن أحداً يحب هذا الأمير ، لكنهم يجمعون كافة على الإعجاب به ، وكان ذكره يقترن دائماً بنوع من الرّعب المشوب بمزيج عجيب من الاحترام والبُغض .

– 13 –

يبدو لي أنه لكي ننجح فعلاً في قمع النزعات العدوانية لعرب السواحل ، ينبغي لنا أن ننطلق من الجوهر والأساس فنتعامل مباشرة مع الحكومة السُّعودية ، ولدي شعور بالثقة أنني فيما لو تمكنت من استرجاع العلاقات مع حاكم كالأمير فيصل ، فلربما نأمل بالانتفاع من نفوذه على مشايخ الساحل ، دون مخافة تطبيق هذا النفوذ بشكل تعسّفي .

---

(1) كانت الدّولة السّعودية الأولى والثانية تحصل على الزّكاة من عُمان ، وبالتالي مما يتبعها في شرق أفريقيا . فلمّا انفصلت زنجبار وساحل أفريقيا الشرقي بموجب تحكيم كانينغ عام 1861 انخفض مقدار الزّكاة المدفوعة لحكومة الرّياض ، وعلى ذلك عدّت حروبها في الخليج أعمالاً شرعية لحفظ حقوقها ، لا قرصنة كما ادّعى الانكليز .

(2) كتب المؤلف : انظر تقاريري المرسلة من زنجبار ما بين تشرين الأول (أكتوبر) 1861 وأيلول (سبتمبر) 1862 . وليس الآن بحوزتي نسخ عنها ، ما خلا بعض رسائل بعثتُ بها : رقم 113 بتاريخ أول شباط (فبراير) 1862 ؛ رقم 233 بتاريخ 10 تموز (يوليو) 1862 ؛ رقم 212 المرسلة للكابتن أولدفيلد Oldfield بتاريخ 11 حزيران (يونيو) 1862 .

لذا ، قمتُ بتوجيه رسالة مهذّبة إلى الأمير ، أعبّر فيها عن رغبتي بإقامة علاقات طيّبة ، وأبيّن أملي بالتشرّف بزيارته في عاصمته (الرّياض) إن أمكن . لكن ردّه كان مقتضباً وجافاً ، مشيراً إلى من كان في منصبي قبلي[1] . ويبدو لي في حقيقة الأمر أن هذه الهوّة العميقة ما بين المُقيم (المندوب) البريطاني السابق والأمير كانت السبب المؤدي إلى هذه العقبات كلّها ، ولذا أعطيتُ نفسي فرصة أخرى للكتابة إلى الأمير ، مؤكداً له أنه وإن أساء فهم شعوري تجاهه ، فإنني مع ذلك ما زلتُ معترفاً له بحكمه العادل ما بين العشائر . ولكن سموّه برغم ذلك لم يرسل أي جواب .

– 14 –

علمتُ في آخر الأمر من السكان المحلّيين القادمين من الرّياض أن الأمير بدأ يظهر بمظهر المتفهّم بأنني لست أبغي في قرارة نفسي إلا المصلحة المتبادلة ، وهذا ما دعاني في خاتمة المطاف إلى اتّخاذ قراري بالسفر إلى عاصمته بُغية إجراء لقاء ودّي معه . وعلى ذلك أبحرتُ في شهر كانون الثاني (يناير) من العام 1865 عبر الخليج العربي إلى الكويت ، ولمّا نزلتُ هناك قابلت بعض المشايخ وأطلعتهم على عزمي بالمسير صوب الجنوب الغربي إلى الرّياض ، ثم العودة إلى الخليج عبر الأحساء والعُقَير ، أو على أي طريق آخر حسبما تمليه الظروف .

في الوقت عينه ، بعثتُ برسالة إلى الأمير فيصل أُعلمه بأنني في طريقي إلى زيارته ، وأنني من خلال ما علمته من بعض رعاياه كنت مقتنعاً بأن تعارفنا الشخصي من شأنه إحلال المنفعة المتبادلة . وهذه الرسالة قمتُ بإرسالها بواسطة رسول ، وكنتُ عازماً على اللحاق بها دونما إبطاء بالمسير المعتاد . ولقد وافقني في الرأي شيخ مشايخ الكويت[2] المذكور في رسالتي السابقة ، وأردف قائلاً : «هاك الهجن والله ويّاك» .

---

(1) المقيم السّياسي العام في الخليج جيمس فيليكس جونز James Felix Jones 1862-1872 .

(2) كان شيخ الكويت آنذاك الشيخ صباح بن جابر بن عبد الله الصّباح ، رابع أمراء الكويت ، حكمها خلال 1276-1283 هـ = 1859-1866 م . انظر : تاريخ الكويت لعبد العزيز الرّشيد ، بغداد 1344 ، 2 : 21-27 ؛ وفي مذكرات خالد الفرج أن وفاته 1282 هـ .

بيد أن الشيخ يوسف بن بدر[1] ، المعـروف منذ أمـد بعيـد في سـوق الخيـل في بومباي كمصدّر رئيسي للخيول العربي ، وقف إزاء الأمر موقف المعارض .

وفي الختام عقد جميع الشيوخ مجلساً للتشاور ، وانتهوا إلى الرأي بأنـه مـن المفضّل الانتظار بعـض الوقـت وانتقـاء جمـال جيـدة ودليـل للطريـق ، واستجلاء بعض الأنبـاء مـن نجـد . فلـذا ، وبانتظـار بـدء الرحلـة نزلـتُ في ضيافـة يوسـف ، ورحتُ أجمع ما أتيح لي من معلومات من أبناء العشائر المجاورة بخصـوص بعـض القضايا التي سبق طرحها في الجمعية الجغرافيـة الملكيـة ، وبـالتحديد أحـوال البـلاد السّعودية وطبوغرافيتها العامة .

وبنتيجة ذلك ، كتبتُ مذكرة حول هذه الأبحاث وأرفقتُها برسالتي رقـم 11 المؤرخـة في 14 شـباط (فـبراير) 1865 ، وأعتقـد أن هــذه المذكـرة لا بـد أن تكـون وصلت في حينها إلى أيدي المختصين بهذه القضايا[2] .

– 15 –

أتـاحت لـي إقامتي في الكويت فرصـة فريـدة لمشـاهدة الحيـاة الاجتماعيـة واليومية لبيوت المشايخ العرب ، ولا أظن أن أي جنتلمان إنكليزي لديه مـن كـرم الضيافة والتهذيب الجمّ اللذين رأيتهمـا عنـد يوسـف بـن بـدر . يبلـغ يوسـف مـن العمر 72 سنة ، وأظـن أنـه تـزوّج مـا لا يقـل عـن الستة وعشـرين مـرة في حياتـه ، ومازالت اثنتان أو أكثر مـن زوجاتـه تقيمـان معـه في نفـس البيـت ، بينمـا مـا زالـت بعض من زوجاته السابقات يقمن بمساكن مستقلّة مريحة .

أما الاحترام الذي يكنّه له أبناؤه الكبـار العديـدون فكـان شـيئاً فائقـاً ويدعـو إلى الإعجاب . ولقد وضع هؤلاء الأبناء وقتهم وخدمـاتهم تحت تصـرفي كليّـاً ، فأمضيتُ بصحبتهـم أسبوعاً خـارج البيت في أحـد حصونهـم في البرّيـة ، نستمتع بالقنص بالصّقور وبالفرجة على خيولهم الأصيلة .

(1) يوسف البدر من أعيان الكويت وكبار تجارها آنـذاك ، وآل البـدر أسـرة مشـتهرة إلى اليـوم بين كبريات أسر الكويت .

(2) كتب المؤلف : انظر تقريري رقم 67 المؤرخ في 13 نيسـان (أبريل) 1863 ، الفقرة 128 .

وأما الحصن فيسمّى الجَهْرَا[1] ، ويقع إلى الزاوية الشمالية الغربية من خليج الكويت ، ويُذكر أن هذا الموقع قديم جداً ، وما زالت قطع الآجرّ المتناثرة والأطلال الأخرى للأبنية القديمة تُرى بوضوح على الرّمال حوله . وفي هذا المكان يقوم يوسف بجمع خيوله التي يجلبها بمجموعات صغيرة من قبيلة شمّر ومن عِنْزَة ، ومن عشائر نجد وبعض القبائل الأخرى ، ثم يودعها داخل الحصن ، حيث تخلد للراحة بعدما قطعته من مسافات طويلة في الصّحراء ، ويقدّم لها الفصّة (البرسيم) المزروعة بالريّ الصناعي ، هكذا حتى يحين موسم التصدير إلى بومباي ، فيقوم بإرسالها إلى الكويت ومن ثمّ يتم شحنها .

أتحفني يوسف بقائمة لأهم سلالات الخيل العربية وأشهرها ، فألحقتُ هذه القائمة بتقريري هذا ، ولقد وجدتُ ما يؤيّد كل ما جاء فيها لدى أصحاب الخبرة في عُمان وغيرها من البلدان .

– 16 –

عندما يحلّ المساء يتوسّد الشيخ مجلسه في المضافة (الدّيوانيّة) ، ويُقبل عليه الأعراب من البلدة ذاتها ومن البادية ويدخلون دون مراسم تحيّة معيّنة ، ويأخذون في رواية القصص إثر القصص دون أي فاصل بينها . ومع أن يوسف متحفّظ بخصوص الشعائر الدينية لمذهبه ، فهو مطلع بما فيه الكفاية على فقه المذاهب الأخرى وتعاليمها ، وهو يتعايش معها بوئام .

ربما يسمع المرء في بعض الأحيان حكاية تشوبها الألفاظ النابية ، ولكن ذلك حتماً لا يصدر عن بذاءة مقصودة ، ومع أن العربي يُعدّ أقل تحفّظاً منا في العبارات التي يستعملها فأسلوبه في التفكير لا يختلف بشيء عن باقي الناس ، مع فارق وحيد هو أنه يسمّي الأشياء بأسمائها الصريحة ، دون مواربة أو تحذلق على طريقة استطرادات اللورد مَكُولي[2] Macaulay's periphrasis .

---

(1) يقع هذا الحصن إلى الغرب من مدينة الكويت العاصمة ، ويُطلق اسمه اليوم على ضاحية كبيرة معروفة أضحت امتداداً للمدينة .

(2) أسلوب في التقعّر الأدبي الإنكليزي يُنسب لمكُولي عضو مجلس اللوردات البريطاني .

بعد ذلك تـدور بـالمجلس دلّـة القهـوة والغليـون الـتركي[1] ، هـذا لأن الشيـخ يعتبر أن القهوة تسري في عروق العربـي[2] ، وفي صيـام رمضـان يشـقّ علـى الشيـخ الامتناع عن هذه المتعـة أكثر مـن الامتنـاع عـن أي شـيء آخـر . وفي هـذه المجـالس (الدّيوانيـات) المذكـورة يدخـل البـدو وغـيرهـم ، ويجلسـون القرفصـاء وسـيوفهم مُزجاة أمامهم ، يتجاذبون أطراف الحديث ، ثم تفاجأ بهم يثبون واقفين فجأة دون سابق إنذار ، وينتعلون أخفافهم ويتوارون عن الأنظار .

وتـرى أحـد الداخلـين يعـرض أمـام الشـيخ بـأن لديـه فرسـاً أصيلـة فائقـة في مضاربه ، وأنه يريد مقايضتها بما يحتاج إليـه مـن المـواد التموينيـة والبـارود وبعـض الحوائج لنسائه ، تمهيداً لجلب الفرس . بينما يذكر رجل آخر أن عشيرته انتجعـت مرعى جديداً وأنها بحاجة لبعض المؤن . ويأتي ثـالـث ببعـض الدراهـم التي كـان اقترضها من الشيخ منذ عام ، والتي حان موعد سدادها قبل موعد رحلـة حجّـه ، فيأخذ في عدّ النقـود ثـم يُعرب عـن رغبتـه باقتراضهـا مـن جديـد ، أو أخـذ بعـض البضائع مقابلها .

وتندّ عن هـؤلاء الأعـراب الرحّـل تعـابير عفويّـة تصويريـة حيّـة حـول حيـاة البداوة ، والمصاعب الكأداء التي تواجههم خلال فصل الصيف الحارّ أو من جـرّاء الغزوات التي تجرّ عليهم الخراب والضرر .

ومن الأمور التي استطعتُ جمعها من هؤلاء الأعراب ومـن الشـيخ نفسـه ، ملخّص لبعض الوسائل التـي يستجير بهـا الغربـاء عندمـا تـلزمهم الحاجـة ، وهـم يعتبرون أن هذه الوسائل تقارب الأربعين عدداً . ولقد ألحقتُ بتقريري هذا بعضـاً منها[3] .

---

(1) كتبها المؤلف : the Turkish pipe ، ولا شك أنه يعني الغليون (الجُبُـوق) ، لأنـه لاحقـاً في الفقرة 19 يذكر : the Persian Nargeilah and the Turkish Cheebook ، أي النرجيلـة العجميّة والجُبُوق التركي .

(2) للقهوة في التراث الشعبي والعادات العربية مكانة كبيرة جداً وذكر بالغ في الشعر العامي .

(3) انظر الملحق الحادي عشر حول هذه الوسائل .

ربما يكون من المفيد في هذا الموضع أن أقدّم بضعة ملاحظات عن خليج الكويت . يرى الأقدمون أنه الخليج المقدّس الذي قامت على شواطئه مدينة جيراهنسيس[1] Giranhensis . وكلمة «القُرَيْن»[2] يقال بأنها مشتقة من كلمة «قَرن» بالعربية ، حيث أن الخليج نفسه يشابه شكل القرن .

أما مدينة الكويت الحالية ، والاسم مشتق من «الكُوت» وتعني الحصن ، فلها من العمر مئة عام تقريباً ، وفي بادئ الأمر احتلّ شيوخ الكويت حصناً يسمّى «أم قصر» Mongassar على خُور الزُّبير على مسافة يسيرة إلى جهة الشمال . وكانوا آنذاك أسياد مدخل شط العرب ، ولكن بعد أن أغار عليهم الأتراك أبحروا إلى الجنوب ، واستقرّوا في مكانهم الحالي وقاموا بتحصينه من جهة البر تحسّباً لغارات البدو .

وجميع الأراضي المحيطة بهذا الموقع ضمن قوس نصف قطره 8 أو 10 أميال تُعدّ تابعة لهم ، لكن هذه البقاع جميعها قاحلة باستثناء حصنين أو ثلاثة مع ما يجاورها من أراضٍ مسقية .

---

(1) أي مدينة الجرهاء الأثريّة ، راجع كتاب «ارتياد جزيرة العرب» لهوغرث ، ص 40 .

(2) كان موضع الكويت في السابق يسمّى القُرَين ، وكان يتبع لبني خالد ، ورئيسهم في أواخر القرن الحادي عشر الهجري برّاك بن غرير الحميدي . وكان برّاك بنى قصراً في القُرين ، والقصر في اصطلاح ذلك الزمن هناك يُسمّى «الكُوت» ، وبنى قصراً صغيراً على الساحل جعله مخزناً للأزواد التي تأتي من البصرة عن طريق البحر ، فسمّاه «الكُوَيت» بصيغة التصغير . وكانت القلاقل وحروب القبائل منتشرة على ضفاف الخليج من عُمان إلى البَصرة ، فهاجر كثير من سكّان السواحل في عُمان وقطر والبحرين إلى سواحل فارس والأحواز ، ونزل بنو عُتبة في الكويت والرئاسة فيهم لآل صباح ، وكان بنو عتبة يحترفون الملاحة في النقل والغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك ، فما زالت الكويت تنمو حتى صار «الكوت» محلّة من محلاّت «الكويت» .
أما عن آل الصّباح ، فجدّهم صباح (الأول) من عشيرة الشملان من بني عُتبة من جُميلة من عنزَة من ربيعة . يُرجّح أن أصله من الهدار من مقاطعة الأفلاج من نجد . بُنيت الكويت في عهده ، وتوفي فيها سنة 1175 هـ = 1761 م ، وخلّف خمسة ذكور : عبد الله وسلمان ومالح ومحمد ومبارك . راجع : تاريخ الكويت للرّشيد ، 1 : 12 ؛ ملوك العرب للريحاني ؛ 2 : 153 ؛ ومذكرات خالد الفَرَج (الخبر والعيان في تاريخ نجد) .

والمياه في الكويت نفسها مالحة غير سائغة للشرب . وبالرغم من ذلك كله تُعدّ الكويت واحدة من أكثر الموانئ ازدهاراً في منطقة الخليج العربي ، وصنائعها واسعة ومتعدّدة ، ولها حركة تجارية كبيرة مع الهند والسواحل العربية ، ويشتهر بحّارتها بأنهم أمهر بحّارة المنطقة . هذا وتبلغ تجارتها حداً هائلاً ، حيث تستورد الأرز من شستار والبَصرة وساحل الْمليبار ، وتستورد الذّرة من ساحل إيران والتّمور من البصرة ، كما تستورد الأخشاب لصناعة السفن من الساحل الغربي للهند . أما من جهة البرّ فتتم المقايضة مع البدو الذين يجلبون إليها في فصلي الشتاء والربيع أصواف «الرُّوغان» والخيول ، ليبادلوها بالبنّ والأرز واللوازم الأخرى .

ويُسمح للبدو بدخول المدينة بحريّة ، بشرط واحد هو أن يتركوا أسلحتهم عند بابها ، وذلك حيث يجلس كبير المشايخ والقضاة غداة كل يوم لسماع ما يستجدّ من أنباء ، وللإشراف على التجارة وللقضاء فيما يقع من أمور . ويتم كل يوم إعداد وليمة غداء هائلة ضمن قاعة مقسّمة إلى حجرات لإضافة الغرباء . والعملة المتداولة في الكويت هي ريالات ماريّا تيريزا والكران الإيراني والقروش النحاسية التركية ، كما توجد في بعض الأحيان جنيهات إنكليزية ذهبية ، ويمكن الحصول على الأوراق النقدية في البَصرة وبُوشهر وبومباي وكذلك في العاصمة السّعودية (الرّياض)[1] .

ويتمتع السكان جميعهم ، بما في ذلك اليهود[2] ، بحريّاتهم الدينية على أكمل وجه ، وليست تُفرض على الناس أية ضرائب أو رسوم ، وأما القادرون على دفع الضرائب فيقدمون لكبير المشايخ عطيّة سنوية . ويبدو في الواقع أن تدخّل الحكومة في الشؤون العامة ضئيل للغاية ، حيث أنه لا لزوم لذلك تقريباً . ويدير الكويتيون تجارة مراكب كبيرة ، ولعلّهم أفضل صناع المراكب في منطقة الخليج بأسرها .

---

(1) حول العملات المتداولة في المنطقة آنذاك ، كتب المؤلف تفصيلات وافية في الملحق 8 .
(2) من المعلوم أن جالية من اليهود كانت تقيم في العراق والبحرين وفي إيران ، أما الكويت فإن كان بها بعضهم ، بحسب رواية المؤلف ، فهم حتماً من التجّار الوافدين .

أما بخصوص الطقس ، فرغم أن فصل الصيف فيها حارّ جداً ، تُعدّ الكويت مع ذلك موقعاً صحياً بشكل ملحوظ ، والأمراض قليلة بوجه عام ، ونادراً ما تلزم الحاجة إلى ممارسة العلاجات الطبية ، ما خلا الكي بالنار . ولقد علمتُ أنه إثر رحيلي قام مضيفي بوقاية نفسه من جائحة الهواء الأصفر ، (الكوليرا) بما يعتبره ضرباً من ضروب العناية الإلهية ، وذلك أنه بمجرد ظهور عوارض المرض عليه وضع ألف ريال تحت وسادته ناذراً إنفاقها في وجوه الخير عند شفائه . ويبدو أن هذا العلاج كان من نصيبه النجاح ، وكنتُ لاحظتُ خلال إقامتي عند هذا الشيخ أن الفقراء يتجمهرون على بابه كل يوم جمعة ، وأنهم كانوا يتلقون العطايا . أترى يكمن السرّ في جُود نفس هذا العجوز ؟

– 19 –

أما بخصوص الطعام فالأغنياء بالطبع يأكلون ما يحلو لهم من المآكل الموسمية كما هو الحال في كل مكان . وأما الغذاء التقليدي المتوفر للفقراء على طول الشريط الساحلي فهو الأسماك الجافة مع بعضٍ التّمر ، بينما إلى جهة البر يتألف الغذاء الرئيسي من التّمور والذّرة وحليب النُّوق . أما في مضارب البدو فالواقع أن الناس والخيول يقتاتون أحياناً بحليب النُّوق فقط ، وهو غذاء دسم للغاية . وكذلك يعتبر حليب النُّوق مفيداً للعيون ، وهو غذاء أساسي للتربية السليمة للأمهار . وأما باقي الأسس فهي وجوب إطلاق المهرة لتعدو في هواء الصّحراء ، وركوبها بدءاً من عمر عام ونصف ، شريطة أن يتناسب وزن راكبها مع قوة احتمالها .

ذكر لي أحد الأعيان المحليين الذي أتيح لي أن أمضي بصحبته أياماً بالقرب من الجهرا أنه كان من عادته خلال فصل الربيع عندما تغتذي الجمال على العشب الغضّ أن يرحل باتجاه الصّحراء وينقطع عن كل أصناف الطعام ما خلا حليب النُّوق . ولقد أكّد لي – ومظهره يؤكد كلامه – بأن حليب النُّوق دسم للغاية ، ولقد تحققتُ مع ذلك بأن صاحبي هذا يختار عادة شهر رمضان للقيام برحلته الصحراوية تلك ، على اعتبار أن السّفر يعفي المؤمنين من فريضة الصيام .

ويُعنى كل من البدو وأهل المدن في الكويت بتخزين الجراد ، الذي يعتبرونه لوناً من أشهى الأطعمة[1] . وفي إحدى المرات لفت انتباهي أمر غريب هو أن المدينة بأسرها خرجت إلى الشوارع تصيح من الفرح ، فتبين أن السبب حدوث نعمة إلهية مزدوجة هي هطول المطر خلال تحليق سرب من الجراد .

وفي الكويت ، كما على طول الشريط الساحلي عموماً ، ترى العرب أقل تعصباً بكثير من البرّ الداخلي . وهم يدخنون النّرجيلة العجميّة بالتبغ المجلوب من لار مروراً بلِنجة ، كما يدخّنون الغليون التركي (الجُبُوق) بالتبغ المجلوب بنهر دجلة من الموصل أو من اليمن عبر المُخا . أما في الصّحراء فهم يدخّنون (السّبيل) العربي عموماً ، على اعتباره أرخص الغلايين وأخفّها وزناً .

– 20 –

يقولون في الكويت إنه كانت هناك فيما مضى قناة اصطناعية شُقَّت من نهر الفُرات إلى منطقة العدان الساحلية باتجاه القَطيف ، ولم أتمكن من العثور على أية بقايا تدل على وجود مثلِ هذه القناة في أيامنا الحاضرة . لكنني في مرّة مضت كنتُ مبحراً إلى رأس خُور الزُّبير في نقطة تبعد عشرة أميال عن البصرة فرأيتُ هناك جدولاً صغيراً تعبر فيه الفلوكات ويربط ما بين الخُور وأنهار البصرة .

وأودّ أن أنوّه هنا بأن خُور عبد الله الآخذ إلى خُور الزُّبير ربما يكون في المستقبل أفضل للمراكب البخارية المتجهة إلى البحر من الأقنية الحالية الآخذة إلى البصرة ، فمدخل هذا الخور متسع وعميق إلى حد كافٍ ، ولقد رسوتُ يومها عند رأس خُور الزُّبير بمحاذاة الرصيف في مياه عمقها 4 قامات[2] . ومن رأس خُور الزُّبير هذا يمكن إقامة سكة حديدية تصل إلى البحر الأبيض المتوسط بخط مباشر بطول 800 ميل تقريباً ، ولقد أكّد لي العرب بأن هناك خطين مباشرين إلى الجهة الغربية من نهر الفُرات ، يجتاز أحدهما بالبادية بشكل رئيسي ، بينما يتاخم الآخر حدود المدن ، ومن الممكن في رأيي استطلاع هذين الخطين يوماً ما .

---

(1) هذا الأمر كان ينطبق على بوادي الشام والجزيرة العربية بأسرها .

(2) أي 7.2 متراً ، والقامة fathom مقياس لعمق المياه يساوي 6 أقدام ، أي 180 سنتمتراً .

عدتُ أدراجي إلى الكويت بعد بضعة أسابيع أمضيتُها عند الشيخ [يوسف ابن بَدر] ، وعلمت أن رجلاً سعودياً ذا مكانة مرموقة قد وصل قادماً من الرّياض وهو في طريقه إلى بغداد ، ومعه ثلاثة جمال تحمل وسم الأمير فيصل ، وقد أخبرني أنه مكلّف بثلاث مهمات معينة ، وتقضي التعليمات الموجهة إليه بأن يعيد واحداً من الجمال عقب إنجاز كل مهمة على التوالي ، وذلك كعلامة على أن المهمة المرموزة به قد تم إنجازها .

ولقد توقف هذا الرجل يوماً وبعض يوم لصالحي في الكويت ، وأتاح لي كمية جيدة من المعلومات المتنوعة فيما يتعلق بالأوضاع السائدة في العاصمة . ومن بين ذلك وصف لي الطريقة التي استُقبل بها عرضي الأول لزيارة الأمير في الرّياض[1] ، وحكى كيف أن الأمير وحاشيته بأسرها جزموا بمعارضة هذه الزيارة عند استلام رسالتي الأولى . ثم عند وصول رسالتي الثانية التي التمست فيها من الأمير بذل مساعيه الكريمة لمساعدتي في ابتياع بعض الخيول العربية المسوّمة ، أبدى الأمير بعض الارتياح . وساعة تأهب هذا الرجل لمغادرة الرّياض وصل الخبر إلى الأمير بأنني كنت في طريقي إليه ، فما كان منه إلا أن تلقى الأمر مستبشراً ، فيما بقي الملالي ورجال البلاط على موقفهم السابق .

سألتُ الرجل إن كان بإمكانه تأجيل رحلته إلى بغداد ومرافقتي كدليل إلى الرّياض ، وللوهلة الأولى بدى ميّالاً لتلبية هذا المطلب ، لكنه بعد جلسة مباحثة ليلية مع أتباعه عاد صباح اليوم التالي قائلاً إن الأمير قد يقطع رأسه فيما لو عاد إليه دون تنفيذ المهمّات الموكلة إليه . ولكنه على ذلك أعرب عن استعداده لوضع أحد الجمال الموسومة تحت تصرّفي ، ففي حال تعرّضي لمضايقة ما في طريقي يكفيني إبراز هذه السّمة ، وعندها سيسارع البدو إلى إلقاء السّلام والهروب مبتعدين . لكن يبدو لي أن هذا الإجراء غير فعال في حال نفق الجمل أو في حال كان البدو جاهلين بوسوم الجمال ، ولذا انتهت المفاوضات بيننا بغير طائل .

---

(1) ورد بالأصل : لزيارة الأمير في دُرْبار Durbar ، ولا شك أنه سبق قلم من المؤلف .

بعد مرور بعض الوقت ، وصل الرسول حاملاً لي الجواب المنتظر وسلّمني رسالة من الأمير فيصل يسمح لي فيها بالمجيء ، لكنه لم يبعث مع هذه الرسالة بدليل أو رسول . وبما أن الوقت قد راح يمضي لم يعد بوسعي الانتظار أكثر من ذلك . وكنت في خلال الفترة السابقة قد جمعتُ كميّة جيدة من المعلومات الطبوغرافية ، وأوردت بعضاً منها في مذكرتي المرفقة برسالتي رقم 11 المؤرخة في 14 شباط (فبراير) 1865 ، ومن خلال ما تقدّم توجهتُ للاجتماع ثانية بشيخ الكويت وعزمتُ على المسير حالاً باتجاه الرّياض .

قمنا أولاً بتجميع الجمال ، من مختلف القبائل بالطبع ، ولم يكن بين هذه الجمال هجائن للركوب ، وبلغ عددها ما بين السبعة وعشرين إلى ثلاثين جملاً . ولقد اصطحبتُ معي الملازم دوز Dawes الضابط الملحق بالمركب البخاري العائد إلى المُقيميّة (المندوبيّة) ، وذلك لكي يقوم بعمل الأرصاد الفلكية[1] ، وكذلك اصطحبتُ المستر كولفيل Colvill جرّاح المُقيميّة ، كمسؤول طبي عن معسكري ، كما كلفته أيضاً بجميع ما يتيسر له من النباتات والصّخور ، دون لفت أنظار الناس ما أمكنه ذلك . وكان معي أيضاً ترجماني إلى اللغة العربية المستر جورج لوكاس George Lucas ، واثنان من الياوران (الحجّاب) orderlies وهما مسلمان من الأقاليم الشمالية الغربية للهند ، ورجل من الشوپراسي من كلكوتا ، وخادم عجمي ، وطبّاخ برتغالي . ولقد طلبتُ إلى الجميع ارتداء العباءات فوق ثيابهم ، وذلك لتجنّب المضايقات والتعدّيات التي نحن بغنى عنها .

وفي مساء 17 شباط (فبراير) ، بدأ موكبنا بالتحرك إلى خارج المدينة للشروع في مسيرته ، وبعدما تأكدتُ من اكتمال كل ما يلزم قبل الرحيل ، لم أجد بيني وبين نفسي مهرباً من الاعتراف بأننا كنا أشبه ما يكون بعصابة لربما رفض فولستاف Falstsff نفسه قيادتها إلى كوفنتري[2] .

(1) المسير في الصّحراء يُشابه الملاحة في البحار ، فلا بدّ فيه من الاهتداء بالرّصد الفلكي .
(2) فولستاف نديم الملك هنري الخامس ، وكوفنتري مدينة في وسط إنكلترا . والمعنى يحمل تورية ، على اعتبار أن اسم كوفنتري يُستخدم بمعنى النّفي إلى وجهة غير مستحبّة .

كانت الخيمة الوحيدة التي بحوزتنا من النوع المضلّع ، أما مؤونتنا فتتألف بأكملها من أصناف الحساء واللحوم المجففة مع بعض التّمور والأرز ، ولقد تأكد لنا في خاتمة المطاف أنه لولا هذه المؤن ما كنا لننجح في الوصول إلى العاصمة . ولقد أخذتُ معي أيضاً 3000 ريال تحسّباً لوقوع أي طارئ ، وكذلك صندوقين مليئين بالهدايا .

– 23 –

قمنا بتوضيب الكرونومتر (المقياس الزمني الدقيق) ، والسكستانت (آلة السُّدس)[1] وآلة الأفق الاصطناعي بعناية في حقيبتي الخاصة ، وأما الكرونومتر فهو من صنع جون پول John Pool في شارع فِنتشرتش Fenchurch (بلندن) ، وقد تم تركيبه على النحو التالي :

تم رفع الحامل الأفقي والإطار النحاسي بأكملهما من الصندوق ، كما تم إقفال القسم السفلي من الغطاء مع بقاء القسم العِلوي طليقاً ولكن دون وجود الزجاج . ثم تم توضيب الكرونومتر بإحكام بالقطن في أسفل صندوقه ، وتم ملء القسم الأعلى بحشوة من القطن ملفوفة بمنديل ناعم ، ووُضع كل ذلك بحيث يمكن إغلاق الغطاء . وبعد ذلك تم إنزال الصندوق في فتحة شُقّت خصيصاً في عارض الحقيبة وبُطّن بطبقة من قماش الفلانيلاّ الطري ، ثم أُغلق غطاء عارض الحقيبة المصنوع من الكرتون ، وشُدّ فوق الرزمة المعلّبة . أما باقي الحقيبة فقد مُلئ بالثياب الطرية التي رُصّت بإحكام كاف للإقلال من الارتجاج ما أمكن .

بهذه الطريقة يمكن حمل الكرونومتر عبر بلاد لا طرق بها على جمل حمولة لمسافة 800 أو 900 ميل . وكان قد تم ضبطه بعناية قبل بدء المسير ومقارنته بالكرونومترات الأخرى ذات القيم المضبوطة بدقة ، وعند رجوعنا وجد الملازم وورنر Warner والمستر دوز Dawes أن المؤشر قد أعطى القراءة على 1/ 64 ميل إلى الشرق من الوضع الصحيح .

(1) السُّدُس آلة يستعملها البحّارة لقياس مواقع المجموعات النجمية وزوايا ميلانها في القبّة السّماوية بغية تحديد مواقعهم في عرض البحر ، ولذا تنفع للاهتداء في الصحراء .

– 24 –

قبل المسير في البرّ ، وجهّت تعليماتي للكابتن وورنر ربّان المركب البخاري التابع للمُقيميّة بالإبحار إلى البحرين والابتعاد عن الساحل السُّعودي على خط العرض نفسه ، والاتصال بين الفينة والأخرى بمرفأ العُقَير[1] ، لإطلاعهم على أنباء تحركاتنا ، ولكي يكونوا جاهزين لاستقبالنا عند عودتنا على ذلك الخط . وثمّة نسخة من تعليماتي هذه ملحقة بهذا التقرير ، ولقد اتضح لنا أننا استطعنا تقدير زمن وصولنا إلى العُقَير بشكل صحيح وذلك بمسيرة يوم واحد .

– 25 –

أعتقد أنني سأتمكن من إعطاء نص شامل للرحلة على قدر واف من الدقة ، ولو أنه ليس بذاك النص الأدبي البليغ كما يخيّل لي ، ومصدري الأساسي فيه هو دفتر ملاحظاتي اليومية ، ولذلك سأتّبع في كتابتي هنا أسلوب اليوميات . وبديهي أن المرء عندما يصف مسيره عبر قفر قاحلة فلا بد أن تتسم روايته المكتوبة ، إن كانت دقيقة ، بنفس الصفات المميّزة للمنطقة التي اجتاز بها .

– 26 –

وهكذا ، في صباح يوم 18 شباط (فبراير) ، غادرنا مخيّمنا الواقع خارج أسواق الكويت دونما إبطاء ، وسرنا لمدة ساعة إلى اتجاه الشرق ، ثم بدأنا بالانحراف شيئاً فشيئاً إلى جهة الجنوب والجنوب الشرقي باتجاه قلعة تسمى مَلَح[2] وهي تبعد 5 ساعات عن الكويت ، وتقع على الحدود البريّة لقضاء مشيخة الكويت . وحول الحصن بضعة آبار ومزرعة صغيرة وبضعة سقائف مؤقتة ، وهناك طريق تسلكه الجمال يمكن رؤية آثاره ما بين المدينة والحصن ، ولكن هنا تختفي علائمه جميعها بشكل مفاجئ . والهيئة العامة لهذا الصقع تتألف من براري لا يحدّها سوى الأفق ، تتموّج كما لو أن بها أمواجاً طويلة واطئة .

---

(1) العُقَير مرفأ سعودي يقع جنوبي الظهران ، مواجه البحرين وإلى الغرب من قطر .
(2) مَلَح موقع به جب جنوبي مدينة الكويت بحوالي 20 ميلاً .

خلال الساعة الأولى سرنا فوق أعشاب هزيلة قد أكلها الجراد ، وبعد ذلك بدأت تتناثر في السهول أجمات منخفضة ، بالكاد تعطي لوناً أخضر في هذا الفصل بأوائل الربيع ، ولقد أخذت جمالنا برعيها أثناء مسيرنا . والأرض التي خيّمنا بها هذا المساء تقع على بعد ساعة ونصف ما بعد الحصن ، وهي واقعة مباشرة على تخوم الأراضي السعودية . وهناك هضبة مخروطية الشكل تسمى وارة[1] تسلك اتجاه الجنوب الغربي بجنوب ، وتبعد مقدار أربعة أو خمسة أميال ، وهناك أيضاً هضبة أخرى أبعد منها تسمى صبيّة ، تسلك اتجاه الجنوب إلى الغرب قليلاً . وليس في الأرض التي خيّمنا بها أية سقائف أو حصون .

ولقد قمنا بجمع بعض المياه من الأحواض التي خلّفها سقوط المطر هذا الصباح ، فعادة لا يتوقع وجود الماء في هذا المكان .

– 27 –

في صباح يوم 19 شققنا طريقنا عند بزوغ الفجر ، وبما أن هذا اليوم كان فيه أول مسير لنا دونما عارض فلا بأس من وصف مجرياته كنموذج عن أسلوبنا المعتاد للمسير : فالنهار يبدأ عندما يؤذّن رئيس العكامين لصلاة الفجر فيستيقظ المخيّم بأسره معه ، وهذا ما كان يمكننا من تقويض خيمتنا وتحزيم أمتعتنا والانطلاق مع شروق الشمس .

وخلال رحلتنا إلى العاصمة داوم جميع من معنا من عكّامين دون استثناء على صوم رمضان بكل مثابرة ، ولا غرو فالعربي مشهور بشدة الاحتمال . لكن مع ذلك من المعروف أن العربي شديد الحساسية تجاه البرد ، ولا أظن أن أي شيء مهما كان – باستثناء الفروض الدينية اللازمة – من شأنه حثّ مرافقينا على الاستيقاظ باكراً جداً في الصباح . فحتى عندما يفرغون من صلاتهم في الصباح تراهم عادة يتهرّبون من تحميل الدّواب ، ويتحلّقون مرتعدين حول النار التي يوقدونها .

---

(1) جبل وارة يقع إلى الغرب من الأحمدي وإلى الشمال من برقان ، وعنده موقع أثري قديم كما تدلّ عليه بعض الخرائب المنتشرة حوله .

ولكـن عندمـا أشـرقت الشـمس أخـذ الجميـع في الحركـة والنشـاط ، وشـرع موكبنا في التقدم بتؤدة بمعدل 3 أميال في السـاعة . ولـم تكـن الجمـال لتشـرد على مسافات بعيدة ، لكن كلاً منها كان يرسم في مسيره خطاً متعرجاً وهـو يبحث عمّا يشتهي من أعشاب ، وعندما يصادف عثور الجمال على باقة عشـب لافتة للانتباه بشكل خاص بعرفها الأخضر ، ترى ثلاثة أو أربعة مـن الجمـال يتسـابقون إليهـا في وقت واحد ويتطاولون إليها برقابهم إلى أقصى حد ، ومن يفشل في الوصـول إلـى العشب يثأر لنفسه بانتزاع بعض اللقيمات من فم جـاره . وقرابـة السـاعة العاشـرة تقدّمنا بعض الشيء عن جمالنا وجلسـنا نعـدّ قهوتنـا ، مـع بعـض مـا بحوزتنـا مـن طعام لتناول الفطور ، هكذا حتـى أدركتنـا بـاقي القافلـة . وعلـى هـذا النحـو كنـا نمضي باقي النهار .

وكنا نتوقّف عادة ما قبل الغروب بقليل لنصب المخيّـم وتـأمين كـل مـا يـلزم قبل حلول الظلام . وفور تنزيل الأحمال عـن ظهـور الجمـال كنـا نقـوم بإطلاقهـا لكي تبحث عن عشائها بحريّة ، ولكن على أن تجتمع ثانيةً قرابة السـاعة الثامنـة أو التاسعة ، وحينذاك تُناخ الجمال أرضاً في نسق متراصف ، فينام العكامون بجانبهـا المحجوب عن الريح . أما خيمتنا فقد نصبناها جاعلين بابها متجهـاً إلـى الشـمال ، وعندمـا كـان المعسـكر يخلـد إلـى النـوم كنـا نبـدأ العمـل بآلـة السُّـدس وآلـة الأفـق الاصطناعي . وكان بإمكاننا رؤية نجـم القطـب بـالطبع مـن داخـل الخيمـة دون أن يُفتضح أمرنا ، أما بالنسـبة إلـى خطـوط الطـول فسـواء عـن طريـق رصـد القمـر أو النجوم كنا نضبط جهاز الأفق الاصطناعي فوراً بعد رفع الستارة الجانبية للخيمة ، وأما الوقت فكنا نقرأه من الحقيبة الموجودة في آخر الخيمة .

وعلى هذا النحو كنا نتمكن من تسجيل خطوط العرض والطول بدقـة لكـل النقاط التي نمر بها ، وبالأخص حيثما يتغير شكل الأرض أو يتميّز بأمر مـا . وبمـا أن هذه التغيرات كانت متميّزة جداً ، وبما أن الرائح والغـادي مـن العاصمـة وإليهـا يمرّ بها مراراً ، فقد قمنا بتعيين سلسلتين من النقاط وحدّدنـا الاتجـاه العـام للسّـهول والهضاب والسلاسل الرّملية ، وذلك على امتداد بقاع شاسعة .

ولقد رسم كل من خط مسيرنا إلى البر الداخلي ثم خط عودتنا ضلعي مثلث تقع العاصمة عند رأسه ، وأما قاعدته فتمتد من الكويت التي انطلقنا منها إلى العُقَير وهي النقطة التي عُدنا إليها ، وتبلغ هذه القاعدة مسافة 200 ميل[1] . وبالطبع فإن الإحداثيات التي قمنا بتسجيلها كانت فقط لبعض النقاط الواقعة على خط سيرنا ، ولكن بالاستناد إلى بعض المعلومات المحليّة حول اتجاه بعض الضواحي المأهولة المعيّنة على بضعة أيام متتالية ، تمكنا عبر تقاطع المعلومات من تحديد مواقع هذه المواضع المأهولة ، بأقرب ما يكون إلى الصحّة فيما أظن .

– 29 –

ستلاحظ الحكومة أن الخريطة التفصيلية المرفقة تبيّن تواريخ مراحل السير على التوالي ، وكذلك تم بالمثل تأريخ قوائم النباتات والصّخور المجموعة . ومن خلال ذلك يمكن مقارنة هذه القوائم والخريطة التفصيلية مع الملاحظات المرفقة بها ، والتي أقوم الآن باستخلاص المعلومات منها هاهنا . وبذلك يتم التحقق بسهولة من مصدر النماذج الطبيعية كل على حدة .

– 30 –

لنعد الآن إلى مسيرة يوم 19 ، فقبل الانطلاق دبّ الخلاف في الرأي بيني وبين رئيس العكّامين ، وذلك بسبب رغبتي بتغيير مسار الرحلة بالالتفات من جهة سُدَير . وفي أثناء ذلك قابلنا أحد شيوخ عشيرة سبيع ، وكنت قد ابتعتُ منه حصاناً عندما كنت في الكويت ، ورأيت أن أصطحبه معي على أمل الانتفاع به لتهجين خيل السباق . وهذا الشيخ رجل كالح السّحنة ويعرج بشدّة ، لكنه ادّعى بأنه واحد من المعاونين الشخصيين للأمير عبد الله بن فيصل ، وأنه شخص ذو شأن بين قومه . واشترط علي أنه سوف لن يمضي بأي حال من الأحوال أبعد من الرّياض ، وطلب خمسين ريالاً لمرافقتي إلى العاصمة .

---

(1) هذا فيما يتعلّق بقاعدة المثلّث ، أما ضلعاه الآخران ، من الكويت إلى الرّياض ثم من الرّياض إلى العُقير ، فبلغا بالمسير المتعرّج 900 ميل . راجع نص المؤلف بالفقرة 94 .

ثم ثبت لي في النهاية أنه لم يكن على الإطلاق قادراً على تأمين الأحصنة ، بدليل أن المعاملة التي تلقّاه بها رجال قبيلته أنفسهم الذين صادفناهم على الطريق لم تكن لائقة ، وفي إحدى المناسبات أوشك أن يتسبّب في توريط مخيّمنا بأسره بالمتاعب عندما صادف بعض أعدائه وبينهم ثأر دم . وأخيراً عندما وصلنا إلى الرّياض ، تلقّاه الأمير عبد الله بكل ازدراء وتساءل عما يفعل هنا ، وسرعان ما قذف به إلى غزو عشيرة قحطان على طريق مكة .

– 31 –

في صباح هذا اليوم بالذات فارقنا ابنا مضيفنا يوسف بن بدر اللذان رافقانا إلى الحدود ، وكانا قد رسما في نفوسنا انطباعاً عميقاً بما أبدياه من كياسة فطرية وكرم جمّ على العادة الجارية في عائلتهم . ولقد رأيتُ من المناسب أن أرسل بعض الهدايا الصغيرة لهذه العائلة كعربون لامتناني لهم .

– 32 –

بدأ طريقنا اليوم يتجه لساعتين من الزمن إلى الجنوب مع شيء إلى الغرب ، ثم إلى الجنوب مع شيء إلى الشرق لمدة ساعة ، وأخيراً إلى الجنوب لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة . وكانت مسيرتنا اليوم قصيرة نسبياً ، وتوقفنا للمبيت في وهدة يسيرة من الأرض تدعى لقيط[1] .

وأما بُنية الأرض فهي مشابهة لما مررنا به البارحة . وخلال مسيرتنا صادفنا بيت شعر واحد أسود ، وعند المساء رأينا بدوياً ومعه ثلاثة أباعر ، فقمت بشراء اثنين منها تحسّباً لأي طارئ . أما هذا الفصل من السنة فقد واتانا الحظ بأنه كان أنسب وقت للسفر ، وكان الهواء عليلاً منعشاً وأجمات العشب كأنضر ما يكون في هذه البوادي ، وتتناثر في الحقول كميات كبيرة من الأزهار البرية .

---

(1) لقيط مورد ماء يقع على بُعد 25 ميلاً من الساحل إلى الجنوب الشرقي من مدينة الكويت . وتبدأ من هذه النقطة طريق تعبر الصّحراء إلى الزّلفي في نجد . راجع : دليل الخليج ، ج . ج . لوريمر J. G. Lorimer ، القسم الجغرافي ، 1 : 33–34 .

من هذا المكان الذي خيّمنا به الليلة ينحرف الطريق إلى الزُّلفي ، على اعتبارها أقصى مدن سُدَير شمالاً ، ولكونها محطة رئيسية لقوافل الحج القادمة من البصرة إلى مكة . وإلى جهة اليسار ، أي بين المكان الذي نحن فيه وبين الخليج العربي ، ويقع طريق آخر يعرف لدى أهل الكويت بطريق وثيلان[1] إلى الرّياض .

هناك ثلاثة أو أربعة طرق تسلكها العشائر في ترحالها السّنوي من الكويت وإليها وكذلك إلى أعالي نجد ، وهذه الطرق جميعها متوازية بغير انتظام ، وتتبع عادة وجود المراعي وتوفر الآبار وكذلك قابلية الفيافي الرّملية للمسير .

– 33 –

في يوم 20 غادرنا لقيط ، وبعد أن سرنا لمدة ثلاث ساعات وصلنا إلى وهدة تعرف بخُور (أي جُون) القُرَين ، وهذه الوهدة تتصل بالخليج العربي ، وإلى اليمين على بعد بضعة أميال توجد هضبة تحمل اسم الخور .

بعد مسير ثماني ساعات خيَّمنا على تلّة تقع في الجانب الأدنى لسلسلة تدعى الحير أو تلّة الدّلّة Della-ud-Della ، وهذه الأرض التي توقفنا بها خاوية تماماً من السكان وتشتق اسمها من أراضي الوفرة[2] ، التي تقع إلى الشرق قليلاً . وأما قسمات الأرض هذا اليوم فتشبه ما مررنا به البارحة .

خلال الصباح جُزنا بثلّة من البدو الوهابيين ، لكننا لم نر في سحناتهم مسحة الورع التي كنا نتوقّعها ، بل كانت تلوح عليهم علائم الشراسة والانفعالية والفضول . سرعان ما خفّوا إلينا مستعجلين ، ولم يكن بأنوف جمالهم حلقات ولا بأفواه جيادهم شكائم ، وفي لحظة واحدة ترجّلوا جميعاً ، وأرخى كل منهم عنان فرسه ما بين قائمتيها وربطه بسرعة ما فوق عرقوبها بقليل .

---

(1) كتب المؤلف بالأصل : Ureplyan ، ونظن المقصود وثيلان التي كتبت في الملحق الرابع من الكتاب بالإنكليزية : Vetaitan ، ولا يبعد أن يكون التصحيف وقع في الطباعة .

(2) كتبها المؤلف بالأصل : وَبرة ، والصواب ما أثبتناه ، موقع معروف في المنطقة المحايدة جنوبي الكويت وشمالي حَفَر الباطن من الأراضي السّعودية .

مضت الجمال ترعى على حساب هذا التأخير ، فيما جلس الأعراب حولنا القرفصاء وسألونا إعطاءهم بعض التبغ ، عارضين تقديم خناجرهم بديلاً عنه ، فتظاهرنا بعدم حيازتنا للتبغ وأجبناهم بأن الأمر غير ذي بال ، على اعتبارهم سيبلغون الكويت غداً وهناك سيدخّنون كما يحلو لهم . وهكذا اختتمت المباحثة وقام كل من هؤلاء الأعراب يعدو خلف بعيره أو فرسه غير عابئ بأصحابه ، وتواروا عن الأنظار .

– 34 –

استناداً إلى العارفين الكويتيين ، تؤلف سلسة الهضاب المنخفضة التي تشرف علينا إلى الإمام الحد البريّ لناحية العَدَان ، كما كنتُ ذكرت في مذكرتي السابقة[1] . لكن نقلاً عن أهالي القطيف من جهة أخرى ، يُطلق اسم العَدَان عادةً على كامل المنطقة الساحلية الممتدة من الكويت إلى رأس تنّورة التي تؤلّف الحد الشمالي لنواحي القَطيف[2] . أما المنطقة الساحلية التي تضم الخليج الذي به جزيرة البحرين الحالية ، فتُعرف سابقاً باسم البحرين بوجه الإجمال[3] .

ويبدو أن البدو يميّزون هذه النواحي المختلفة من اتجاه الطبقات الأرضية المتباينة للأرض . فعلى سبيل المثال ، يتم تمييز إقليم العَدَان بواسطة طبقته الواقعة باتجاه الهضاب المنخفضة التي تقع أمامنا الآن ، أي إلى الجنوب الشرقي مع بعض الانحراف إلى الشمال الغربي . ومن المؤكد أنه عندما تضيع المعالم الأرضية في الفصل الحار بسبب كثافة الجو يمكن للبدوي التحقّق من هوية المنطقة التي هو بها بالحفر قليلاً في سطح القشرة الأرضية .

---

(1) كتب المؤلف بالحاشية : 14 شباط (فبراير) 1866 .

(2) راجع ما ورد في : دليل الخليج ، ج . ج . لوريمر J. G. Lorimer ، القسم الجغرافي ، 1 : 29–30 ؛ المعجم الجغرافي للملكة العربية السعودية (معجم المنطقة الشرقية) للشيخ حَمَد الجاسر ، 1134–1140 .

(3) هذا الكلام صحيح ، فيذكر الجغرافي العربي الشهير ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري في كتابه معجم البلدان (1 : 346) : «البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البَصرة وعُمان» . ويورد سوى ذلك روايات أخرى متباينة .

– 35 –

في يوم 21 ، بعد أن غادرنا الوفرة واجتزنا بعدها هضاب تلّة الدآلّة ، دخلنا نواحي الشقّ ، فواجهتنا هضاب منخفضة تسلك اتجاه الشمال من جانبها الأقصى ، حتى تصل إلى حدّ ما بين الصّحاحة Sahahah [1] وهضاب صفوان بالقرب من الزُّبير . وطبقة الشقّ الأرضية تتبع تقعّر الهضاب التي تؤلف حدود الناحية . أما شكل الأرض اليوم فبدأ بالارتفاع قليلاً من ناحية البر وبالانحدار يسيراً جداً إلى جهة الشرق عبر طريقنا ، والشكل العام لهذا الارتفاع يأخذ النحو التالي :



إلى يسارنا ظهرت هضبة مخروطية ، وعلى بعد حوالي أربعة أميال إلى الأمام رأينا منحنىً به خمس هضاب منفصلة تُعرف باسم تلال الكبريت ، ومع ذلك فلا يوجد الكبريت في سوى اثنتين منها .

– 26 –

خيّمنا اليوم في تلّة الكبريت بناحية الشقّ .

– 37 –

في يوم 22 بعد أن سرنا 5 أميال رأينا أن كبرى هضاب الكبريت ، وهي أقصاها باتجاه الشرق ، تسلك اتجاه الجنوب لمسافة ميلين ، وأما الهضبة التي مررنا بمحاذاتها بعد ذلك فتسلك اتجاه جنوب غرب بجنوب . وعندما قاربنا الأخيرة انكشفت أمامنا هضبة متوسطة الارتفاع ، وبعدها هضبتان إلى اتجاه الغرب والشمال الغربي مع شيء إلى الغرب ، وبذلك اكتملت مجموعة الهضاب الخمس التي تأخذ شكل القوس على عرض طريقنا .

---

(1) كذا وردت التسمية بالأصل ، ولعل ما رسمناه بالعربية هو الصّواب .

وتلال الكبريت جميعها موجودة في الشقّ . أما قسمات الأرض فتموّجاتها أقل انتظاماً اليوم ، كما تتوزّع بعض الهضاب الواطئة هنا وهناك ، والأرض منبسطة أكثر من ذي قبل ، بينما تتضاءل أجمات العشب وبدأت تظهر مساحات من الأراضي المعشوشبة بشكل خفيف .

في موضع أو اثنين تبرز الصّخور الرّملية على مستوى محاذ لأديم التراب ، وتبدو لنا الأرض آخذةً بالارتفاع إلى جهة البر على يميننا ، وكذلك تبدأ بالانحدار تدريجياً إلى جهة اليسار . ولقد لاحظنا بوضوح أننا بدأنا بالصعود شيئاً فشيئاً أثناء اتجاهنا قطرياً صوب الجنوب الغربي . وكذلك كان الطقس أبرد قليلاً ، حتى أننا شعرنا في الصباح ببرد قارس . ولقد استمتعتُ في الصباح بالترجّل والمشي لمسافة ميل أو اثنين ، وقابلنا أسرة بدوية تشدّ الرحال على بعد حوالي تسعة أميال من النقطة التي انطلقنا منها صباحاً ، فاشتريتُ منهم قربة ماء ولكنهم رفضوا بيعنا ناقتهم الحلوب .

قبل أن نصل إلى الموقع الذي خيّمنا فيه ، لاحت لنا بضعة هضاب هرمية على بعد عدّة أميال إلى جهة اليمين ، وتبدو هذه الهضاب كرمال مكوّمة على شكل أهرامات ، لكن ميلانها منحدر بشدّة مما يدعو إلى الشك بأن تكون مؤلفة فعلاً من الرّمل . وهذه الهضاب تسلك اتجاه الجنوب الشرقي بشرق إلى أرض مخيّمنا ، وتبعد عنها حوالي ميلين أو ثلاثة . وهذه الأرض التي تقع بين الشقّ الذي تركناه للتو وبين الوريعة التي لم نصل إليها بعد تُدعى الرّدايف ، أي الآكام الرّملية .

– 38 –

23 شباط (فبراير) : عندما بدأنا المسير هذا اليوم كانت الأرض أمامنا بنفس الشكل الأخير الذي رأيناه البارحة ، وبعد ساعة دخلنا منطقة تعرف بالوريعة ، أما البقاع التي تركناها للتوّ والتي تقع ما بين الوريعة والشقّ ، فليس لها من اسم سوى الرّدايف . وتُعدّ الوريعة مدخلاً للصمّان ، ذلك لأن الأرض بدأت تبدو متكسّرة ومتباينة بالتدريج ومنثورة بالحصباء وآكام التراب والحجر الرّملي .

ثم بعد ست ساعات ، أو حوالي 18 ميلاً إلى جهة الجنوب الغربي بمنتصف الجنوب من الموقع الذي انطلقنا منه ، دخلنا الصَّمّان فعلياً [1] . وهذه المنطقة تضم أراضي شعثاء وهضاباً منخفضة من الحجر الرّملي ذات قمم مسطّحة بالإضافة إلى بعض الغُثاء الذي جرفته سيول الشتاء ، أما القيعان فهي متعرّجة وسطحاء ، وتتوشّى هنا وهناك ببعض العشب والأزهار البريّة والأجمات في هذا الوقت من الربيع ، وأما الهضاب فتصبح أعلى قليلاً وأكثر تشابكاً كلما اقتربت المسافة أكثر من الصَّمّان .

بعد ساعات نزلنا بالقرب من بيوت شعر سوداء ، ولم نجد فيها الرجال حيث كانوا قد ذهبوا إلى الساحل لبيع ما عندهم من أصواف الرُّوغان ، فسألنا النساء أن يعطيننا بعض الحليب . سألت النسوة عمّن نكون ، لأن هيئاتنا ليست في نظرهن هيئات بدوية والأثواب التي علينا لا تلائمنا . فقال الشيخ عبد العزيز [2] بأننا من العسكر ، وأن هيئاتنا لذلك مختلفة . فتعجبّت النساء علامَ يُعطى العسكر مثل هذا الحليب الفاخر . فأجاب بأننا وإن كنا من العسكر فنحن مسلمون على كل حال . فأعطيننا بعض الحليب . وكانت تقف بالقرب فتاة يافعة ، فقال الشيخ عبد العزيز بأننا مستعدّون لدفع عشرة ريالات كسياق لها ، فما كان من الفتاة إلا أن هُرعت ضاحكة إلى داخل بيت الشّعر ، وودّعتنا النسوة قائلات : «الله لا يقدّر لها تكون من نصيب عشيرتكم !» .

كان في نيّتنا أن نغذّ السير إلى آبار وَبرة [3] لكنها ما زالت بعيدة جداً ، فلذا توقفنا لمبيت الليل قبل نصف ساعة من حلول الظلام بالقرب من بيوت لعشيرة السُّودان [4] . وأحضر لي البدو مهر عبيّان للبيع ، ومعه خروف كهدية ، لكنني دفعتُ في الخروف ريالين فطالبني صاحبه بنصف ريال إضافي ثمناً لصوفه .

---

(1) ذكر ياقوت (3 : 423) الصَّمّان : أرض غليظة دون الجبل ، والصَّمّان متاخم للدَّهناء .
(2) لا شك أنه ما هو إلا الشيخ السّبيعي المذكور في الفقرة 30 .
(3) آبار وَبرة مورد ماء قديم يقع بشرقي الصَّمّان ، عنده تلتقي طرق عديدة . انظر : المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية (المنطقة الشرقية) ، للشيخ حَمَد الجاسر ، 1 : 332 .
(4) يذكر المؤلف أدناه بالفقرة 45 : أما عشيرة السُّودان ، وهي فخذ من العجمان ، فمنازلها الصيفية في الصَّمّان .

يقال إن الصَّمّان تمتد على مسافة ثمانية أيام شمالاً ، حيث تختفي من المنطقة الصّخور الرّملية وتغطيها بالمقابل الجلاميد ، بعضها ضخم وأسود ، وتأخذ تلك الناحية عندها اسم «الحَجْرَة»[1] ، وتبلغ هذه الناحية إلى سوق الشياخ[2] . كان اهتزاز الجمال أثناء المسير شديداً جداً اليوم ، فأدّى ذلك إلى تحطّم بعض حقائبي وتبعثرها .

تمتدّ الصَّمّان إلى الشمال أكثر من الدَّهناء ، بينما تبلغ الدَّهناء جنوباً إلى الصّحراء المعروفة باسم الرَّبع الخالي أو اليَمَامة ، واليمامة هذه منطقة قديمة يبدو أنها كانت مأهولة جيداً بالسكان ، لكن عاديات الدهر أخنت عليها وطمست رسومها تحت الرّمال ، وتلاشى وجودها السياسي بسبب الغزوات الإسلامية اللاحقة . في العشيّة قدمت بعض النسوة من بيوت الشّعر المجاورة لنا وغَزَينَ ترجماني الخاص[3] ، وسألنه أن يبيعهن أزراره ومنديله الحريري ، فلمّا أبى انقلبن ضاحكات وقلن : «والله غير ناخذهم !» ، وقمن لساعتهن فقطعن أزراره المعدنية وسَلّلن من رقبته منديلاً وآخر من جيبه .

– 39 –

يتفرّع الطريق إلى سُدَير على بعد ساعة من هذا المكان بالقرب من الآبار ، ولذا أتى دليلنا ليناقشني مجدداً في أمر اختياري لهذا الطريق ، لكنني كنت راغباً إلى أقصى حد في سلوكه وقد عقدتُ العزم على ذلك . بيد أن هناك بضعة أسباب تعاكس هذا الأمر كما يلي :

أولاً : تبلغ المسافة ما بين الآبار والصَّمّان ثلاثة أيام ، يضاف إليها يومان في الدَّهناء ، فيصبح المجموع خمسة أيام دون ماء . وليس لدينا سوى ثماني قرب لعشرة أشخاص ، هذا عدا عن أن القِرَب ترشح دائماً ، ولقد وجدتُ بعضها الآن

---

(1) تقع الحَجْرَة شمالي وادي الباطن والدَّهناء ، وهي أرض ذات آكام وأودية ومناهل ماء . راجع : المعجم الجغرافي للمملكة (المنطقة الشرقية) ، للشيخ حَمَد الجاسر ، 1 : 332 .

(2) ورد الاسم بالأصل : soong es-Shiyakh .

(3) أي من عشيرة السّودان الذين نزلوا بقربهم كما يذكر أعلاه .

خاوياً من الماء تماماً بالرغم من أننا لم نمض سوى ثلاثة أيام منذ غادرنا مورد الماء الأخير على الطريق .

ثانياً : هذا الطريق نادراً ما يطرقه المارّة ، وفيه مسيرة يومين عبر آكام رملية مترامية الأطراف ، والناس عادة ما يتلمّسون طريقهم بدلالة الرائحة والرّطوبة ، أو في بعض الأحيان من شكل الأرض في حال شكّهم بالاتجاه الصحيح ، وفي حال حدوث خطأ فمن المحتمل أن يتوه المرء لمدّة عشرة أيام وهو يهيم ما بين الآكام المتسلسلة .

ثالثاً : يتجه هذا الطريق إلى الجنوب الغربي بغرب ، بينما يتجه الطريق المباشر جنوباً مع بعض الشيء إلى الشرق ، ويعني ذلك أنه قد يلزمنا على الأقل خمسة أيام إضافية لبلوغ الرّياض . وفي هذه الحالة قد تستولي الشكوك على الأمير ، وسيكون الفشل التام مصير كل الجهود المبذولة في هذه الرحلة من وجهة النظر السياسية .

بالإجمال اتضح لي أني أمام أمرين : فإما أن أطلب إلى مرافقيّ العودة ، وبالتالي متابعة الطريق وحدي بأقصى سرعة ، وإما أن ألغي الفكرة من أساسها . في النهاية وجدتُ نفسي مُرغماً على إلغاء الفكرة ، لكنني مع ذلك صمّمتُ على الانعطاف مزيداً إلى الجنوب والاتجاه إلى منطقة المحَمَل وسَدُوس[1] ، لقصد هذه البلدة المذكورة آخراً كموقع ملائم يتم منه إخطار الأمير باقتراب وصولي .

– 40 –

في يوم 24 شباط (فبراير) غادرنا الأرض التي خيّمنا بها على أمل أن نصل وَبرة في غضون ساعة أو اثنتين ، وبما أننا لم نكن عارفين بالوضع الذي سنجد الآبار عليه ولا عدد بيوت شعر البدو النازلين هناك ، فقد قام رجالنا باغتراف بعض مياه المطر النقيّة التي وجدوها راقدة في فيضة بأحد الوديان ، وكانت لحسن الحظ كافية لملء قربنا السبع .

---

(1) سَدُوس من قرى اليَمامة القديمة ، انظر أدناه الفقرة 58 .

في هذه الأثناء انعطفنا إلى يمين الوادي باتجاه بعض بيوت الشعر التي علمنا أنها تعود لقبيلة سبيع ، وهي قبيلة الشيخ الذي يصاحبنا ، وكانت هناك أربعة أو خمس عائلات تنزل في هذا المكان القصيّ ، ومع ذلك كان كل بيت منصوباً على بعد كبير من الآخرين . جلسنا قبالة واحد من البيتين الكبيرين ، ومن كليهما خرجت النساء يحملن أطباقاً معدنية مستديرة كبيرة ملأى بالجبن البدوي ، وكانت مليئة بوبر المعزى ، كما جلبن لنا بعض التّمور النّجدية وبعض السَّمن البدوي في وعاء ، بالإضافة إلى مقدار وافر من اللبن الرائب .

وبالطبع فإن هذه الضيافة الكريمة كانت على شرف الشيخ ، وذلك طبقاً للعرف البدوي السائد عندما يمر أحد الشيوخ في سفره على مضارب لبعض أبناء عشيرته . ولو كنا نمرّ وحيدين ، أو لو كان هذا الشيخ من قبيلة أخرى لما كنا نتوقع أن نتلقّى أي شيء من هؤلاء النسوة ، أو على أكثر تقدير كان علينا الاكتفاء بحفنة من التّمر وبشرب بعض الحليب . على أي حال هذا ما جرى ، وكنا نشعر بجوع كبير كالصيّادين فحصلنا على وجبة دسمة . ولقد لاحظتُ أن الفتيات الصغيرات وكذلك الشبان اليافعين خارج البيوت لهم جميعاً جدائل شعر طويلة خلف ظهورهم ، كما رأيتُ أحداً من اليافعين قد عقد اثنتين من جدائله الأمامية حول ذقنه .

– 41 –

بعد أن تركنا بيوت الشعر المذكورة ، جعلنا نصعد المزيد من الهضاب المنخفضة ، وفي خلال نصف ساعة بلغنا القاع الذي توجد في آبار وبرة ، على اعتبارها محطة رئيسية للقبائل المتجهة من وإلى الساحل . وهناك ما ينوف على 100 بئر وكلها تقع ضمن مساحة 400 يارد مربع ، ويُلاحَظ في الأرض الممتدة حولها على مساحة شاسعة وجود آثار أقدام وزبل مواشٍ ، مما يدل على نزول مضارب كبيرة ، ولكننا مع ذلك لم نجد بيت شعر واحد الآن . ومن بين هذه الآبار كلها لا يوجد سوى البعض القليل في حالة جيدة ، فقمنا بسحب بعض الماء من أحدها الذي يُعرف بأن ماءه أعذب من سواه .

وهذه الآبار محفورة بعمق ثلاث أو أربع قامات في الصّخر الرّملي ، ولها فوهات متآكلة بأثلام غائرة من جراء احتكاك حبال السحب بها ، وهذه الآبار في الواقع تشتهر بعراقتها في القدم ، ولعل مظهرها يدل بالفعل على هذا الأمر . وعندما ينتجع البدو هاهنا بأعداد هائلة يكاد يقتلهم الظمأ تنشب المناوشات بين الرجال وبين الدواب للحصول على الماء ، وقد تحدث منازعات شديدة في بعض الأحيان ، إلى أن تنضب الآبار العذبة في نهاية المطاف ، ويجد البدو أنفسهم آنذاك مضطرين للّجوء إلى الآبار الأخرى ، رغم أن البعض منها مالح للغاية .

– 42 –

تُعدّ وَبِرة عقدة رئيسية تتفرع عنها عدّة طرق ، وأحد هذه الطرق الذي يمر بمحاذاة الآبار يتّجه إلى بلدة المَجْمَعَة في سُدَير[1] ، ويتّجه إلى الجنوب الغربي بغرب ويجتاز أعداداً كبيرة من الهضاب الرّملية الوعرة . أما الطريق المباشر إلى الرّياض فهو يتّجه رأساً من الآبار إلى صوب الجنوب مع شيء إلى الغرب ، وبمجرد دخوله بهذه الأراضي المتكسّرة تُرى على رابية تقع إلى اليمين قليلاً بقايا حصن صغير . ويقال إن هذا الحصن يعود إلى زمن بعيد ، ولكن بدلالة الكسر الفخارية التي التقطتها من الموقع ، وكذلك من المظهر العام للأطلال المتبقية أخمّن بأن الموقع وإن كان قديماً فاللّقى الموجودة حالياً لا تتعدّى بضعة مئات من السنين .

– 43 –

بعد اجتياز الحصن بدأت منطقة الصَّمّان تنكشف أكثر فأكثر ، فالهضاب أقل تشعّثاً ، والقيعان أفسح وقعرها مسطّح وتأخذ عموماً شكلاً متعرّجاً على محور شمال – جنوب . أما الهضاب المحاذية لها فتصبح أخفض ، وذُراها مسطّحة ، وهي معصوبة بالتناوب على مستوى قاعدتها باللون القرميدي . وفي بعض الأحيان عندما تكون الهضاب مخروطية تتلوّن ذُرى المخاريط باللون القرميدي أيضاً .

---

(1) ذكرها ياقوت الحَموي (معجم البلدان ، 5 : 58) : موضع بوادي نخلة من بلاد هُذيل .

بقينا نسير في قلب أحد هذه القيعان حتى المغيب ، ثم توقفنا عند الأرض المتصاعدة عند أقصاه الجنوبي والتي تواجهنا مباشرة . وخلال ساعات النهار جمعنا كميّة وافرة من الأزهار البريّة ، وكذلك بعض البقدونس البريّ . والأجمات المنتشرة في هذه الأراضي تشبه نوعاً من الآس (الحُمّيض) البري . ولقد جلب لي أحد العكّامين نبتة ذات جذر بصلي ، وبعد أن قشر لحائها ذقتُها فذكرتني من داخلها ومن خارجها وبمظهرها وبطعمها ببندق البرازيل . وكذلك ينمو الحُمّاض هنا بوفرة ، ويقول البدو إنه كان قد استورد إلى نجد من مصر على يد خورشيد باشا ، وبأنهم الآن يأكلونه بشكل شائع .

والأراضي التي اجتزنا بها اليوم كانت جرداء وبطحاء بشكل لم يسبق لنا مشاهدته من قبل ، وكان من نتيجة ذلك أن الجمال أسرعت في المسير لقلّة العشب الذي ترعاه ، فقد لاحظتُ أن الجمل بإمكانه رعي العشب أثناء مسيره دون أن يؤثر ذلك على سرعته البالغة ثلاثة أميال في الساعة .

حكى لي صحبي عن خرائب حصن يسمّى ثاج[1] يقع إلى جنوبنا الشرقي على مسافة حوالي مسير ثلاثة أيام إلى جهة البر من القطيف ، وذكروا أن ثاجاً كانت في الأيام السالفة المدينة الرئيسية في الأحساء ، وبأنها كانت مشيّدة بالحجارة البيضاء الكبيرة ، وأضافوا أن أساساتها ما زالت بادية للعيان على طول يناهز الميل وعرض نصف الميل تقريباً . وما زالت بالجوار توجد بعض الخرائب وآبار ماء . ويبدو بعد ذلك أن بلدة كبيرة ومزدهرة تسمى Duta[2] قد قامت مؤخراً على مقربة من ثاج ، ويقال إن ضواحي هذه البلدة تقع في مركز إقليم خصب وممرع وبأن سكانها ماهرون بالزراعة وكذلك يتعاونون التجارة .

---

(1) سمّاها المؤلف بالإنكليزية تاج Taj ، والصواب كما أثبتنا . انظر : المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (المنطقة الشرقية) للشيخ حَمَد الجاسر ، 307-331 وملخصه : ثاج موقع قديم به آثار ونقوش بالخط المُسند ، تقع على تقاطع طرق القوافل التي كانت تصل بين شرق الجزيرة العربية والعراق وبين سواحل الخليج العربي ، تُلحق قديماً باليَمامة من إقليم البحرين (أي شرقي الجزيرة) . أضحت في عصرنا هَجرة للعوازم .

(2) هذا ما كتبه المؤلف بنصه الأصلي ، ولا يستبين المقصود به ، فهل هي دوته أم حوطه أم ماذا ؟ وليس في المصادر الجغرافية المعتبرة ما يفسّر ذلك .

عند شروق شمس يوم 25 شباط (فبراير) نقضنا مخيّمنا وهرعنا إلى خارج الوادي في الصَّمّان المذكورة آنفاً ، ولكننا من فورنا تقريباً دلفنا إلى تشعّب آخر من القيعان . أما الأرض في الساعات الثلاث الأولى فهي تشبه ما رأيناه البارحة ، وتمتد على طول قاع مسطّح القعر على محور شمال جنوب تقريباً ، مع وجود هضاب منخفضة من الحجر الرّملي ذات قمم مستوية على جانبي القاع كليهما . والهيئة العامة للصَّمّان ألطف من ذلك عموماً .

وبعد ثلاث ساعات أصبحت الأرض أكثر انكساراً وتكدّراً ، وبدأت تظهر بعض الرّقاع المغطاة بالعشب الأخضر في القيعان مع بعض الأزهار البرية وأجمات الصَّمّان المعروفة ، يخالطها الآس (الحُمّيض) البرّي الذي يكثر في أم الجنيب . لقد بدأ الاتجاه يتحول تدريجياً نحو الغرب ، أما الحرارة فهي شديدة نهاراً مما أدّى إلى إصابة الملازم دوز بضربة شمس ، وأما في الصباح الباكر فهناك لسعة برد . توقفنا في مساء هذا اليوم قُبيل الساعة الخامسة بعد مشية مرهقة ما بين بضعة جُروف واطئة متكسّرة من الصّخر الرّملي .

قام الملازم دوز بأخذ رسم لدليلنا الصّلُبي[1] ، وهو عجوز دمث طيّب ويتّسم بخصال حميدة ، ويتدرّع بشملة مصنوعة من جلد الأيِّل . لقد وجدتُ الوصف الذي رواه عن عشيرته مطابقاً تماماً لما كنتُ قد جمعته سابقاً ودوّنته في مذكّرتي المؤرخة في 14 من الشهر الجاري . لكنه يقول إن غالبية أبناء عشيرته من الرُّعاع ، وقد تجد بينهم أحياناً من يماثله ، وهم قلّة لكنهم على مستوى عالٍ من الذكاء والتفوّق . وليس ثمّة أدنى شك في أن مظهره العام يفوق كثيراً كلّ من شاهدت من عشيرة الصلّبب في الكويت ، تماماً كما يفوق جنتلمان إنكليزي لدينا أبناء ريفنا الأجلاف .

---

(1) خصّص المؤلّف في آخر كتابه الحالي الملحق 13 لذكر نبذة عن عشيرة الصلّبب . وفي كتاب جبرائيل جبّور «البدو والبادية» (ص 333) بحث واف وقيّم عنها . وكذلك راجع :
Doughty, Charles: *Arabia Deserta*, London, 1936; Müller, Victor: *En Syrie avec les Bedouins*, Paris, 1931; Dixon, H.R.P.: *The Arab of the Desert*, London, 1949.

لاحظتُ أن هذا العجوز يأكل مع باقي الأعراب ، ويشاركهم في كل صلواتهم وصيامهم طوال النهار بالرغم من المشقّات التي تواجهنا في مسيرتنا الطويلة ، وذلك لأننا الآن في شهر رمضان . وفي الواقع يستحيل على المرء إلا أن يأخذ به العجب لما يراه من حرص واهتمام كبيرين يوليهما هؤلاء الناس بفروض دينهم ، فخلال هذه الأيام المتعاقبة بما فيها من مسير مرهق لم تلامس شفاههم قطرة ماء واحدة أو أي شيء من الطعام إطلاقاً ، ثم عندما تغيب الشمس يتناولون قهوتهم وبعض ما يجدونه من حشف الطعام في أكياسهم . وفي حال حصولهم على خروف ، أو في حال قدّمته أنا لهم تراهم يبتهجون بأكله ، وإلا فليس أمامهم غير شرب بعض الماء من قِرَبهم وتناول بعض الجبن البدوي مع حفنة من التَّمر ، وهذا مبلغ طاقتهم .

* * *

اليوم استخلصت من النقاشات بضعة فوائد :

أولاً : لا يطلق البدو على الصّحراء الجنوبية اسم الرّبع الخالي ، وإنما يسمّونها الربع الخليّ في بعض الأحيان ، وأحياناً يسمّونها الرمل الخالي ، ولكنها تُعرف عموماً في نجد باسم اليمامة ، وذلك بالإشارة إلى مدينة اليمامة الموجودة حالياً في ناحية الخَرْج . وناحية الخرج هذه أيضاً تسمّى ناحية اليمامة ، واليمامة القديمة[1] كانت في السابق لا تضم ناحية اليمامة الحالية وحدها فحسب ، وإنما تصل شرقاً إلى مشارف بادية الأحساء . وإقليم الأحساء نفسه ، أو هَجْر كما كان يسمى قديماً[2] ، ليس سوى واحد من أقاليم اليمامة[3] .

---

(1) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان (5 : 442) : اليَمامة في الإقليم الثاني . . . وبين اليمامة والبحرين عشرة أيام ، وهي معدودة من نَجد وقاعدتها حَجْر ، وتُسمّى اليمامة جَوّاً والعَروض .

(2) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان (5 : 393) : هَجْر مدينة ، وهي قاعدة البحرين ، وقيل ناحية البحرين كلها هَجر ، وهو الصواب .

(3) الرّبع الخالي والأحساء ليسا من المناطق التابعة لليمامة جغرافياً ، وما يدّعيه المؤلف غلط .
راجع : بلاد العرب للأصفهاني ، 322–327 ؛ صفة جزيرة العرب للهمداني ، 282–285 ، 307–313 .

ثانياً : هناك إحدى عشرة قبيلة متحالفة تحت حكم نجد ، ولهذه القبائل الإحدى عشرة عدّة أفخاذ متفرّعة عنها ، ولكل فخذ شيخه الخاص . ويُعدّ الشيخ بمثابة القاضي في عشيرته . وإذا نشب خلاف أو نزاع ما بين هذه القبائل يسارعون إلى إطفاء نار الفتنة فما بينهم ، وإلا يحتكمون إلى الأمير . لكنهم غالباً ما يجتنبون الاحتكام إليه لأنه شديد القسوة ، ونادراً ما يحكم بغير عقوبة القتل للجنايات الكبيرة[1] ، وأما الجنايات الأقل شأناً فيعاقب عليها عادةً بالنفي إلى القطيف ، ويعني ذلك الموت البطيء بسبب حمّى المستنقعات (الملاريا) . أما في حال نشوب نزاع دام بين القبائل التي يحكمها يكلّف الأمير بعض جنوده بقمع الاضطرابات ، أو يتركُ للقبيلة المظلومة حريّة الأخذ بثأرها .

وفي حال وقوع جريمة قتل العَمْد بين أفراد القبيلة الواحدة ، تتمّ تسوية هذا الجُرم ضمن إطار القبيلة بدفع ديّة المقتول . وأما إيقاع القتل أو حتى الجَرح برجل من قبيلة أخرى فربما يمكن تسويته بدفع الدّية ، ولكن الأمر لا ينتهي بالضرورة عند هذا الحد . فعلى سبيل المثال ، جرح شاب من معارفي في الكويت رجلاً ينتمي إلى عشيرة أخرى فجعل أفراد هذه العشيرة يترصّدونه ، فلم يجد والد الشاب بُدّاً من دفع 1200 ريال كديّة للمجروح . ومع ذلك لا يخرج هذا الشاب من بيته إلا محاطاً بحرس ، ذلك لأن المجروح لو شاء طعنه أو حتى قتله فليس عليه آنذاك سوى ردّ الدّية ، ويُعدّ الأمر بذلك مقضياً وما عليه من حَرَج[2] .

ولطالما استقر في ذهني أن هذا العُرف المرعب للأخذ بالثأر ما بين العشائر يدفع جميع الناس إلى تجنيب أنفسهم مغبّة الوقوع فيه ، ومن هذا المنطلق أعتبر أن سلامتي الشخصية مضمونة ، وذلك لأن هؤلاء الناس المعتادين على هذا النمط من التفكير لا بد وأن يفترضوا الشيء ذاته بخصوص «العشيرة» التي أنتمي إليها أنا الآخر !

---

(1) رغم اشتهار الإمام فيصل بن تركي بالقسوة فإنه كان يحكم بمقتضى الشرع ، وهو ما عبّر عنه بنفسه لبيلي (الفقرة 78) . انظر : عنوان المجد لابن بشر النجدي ، 2 : 158 .

(2) حول قوانين الثأر عند البدو وأصول دفع ديّة القتل أو الأرش عن الجراح ، راجع كتاب : «عوائد عرب الروَلَة وشمائلهم في بوادي الشام والجزيرة» لموزيل ، الفصل 20 .

تدفع القبائل الزكاة للأمير بشكل خيول[1] وبضائع كقاعدة عامة ، ويُستثنى من ذلك أهل الأحساء والقطيف ومنطقة الكويت ، حيث يختلف الأمر على اعتبار أن الأموال تكون رهن التداول لأغراض التجارة العامة ، فلا يصل منها إلى العاصمة سوى قسم يسير .

ويرسل الأمير رجلاً مرة في العام الواحد لاستلام الزكاة من القبائل ، أو يقوم شيخ القبيلة نفسه أو نائبه بحمل مال الزّكاة إلى الرّياض ، وفي هذه الحال يخلع الأمير عليه عباءة تشريف أو اثنتين . وهذه العباءات التي تصنع في الأحساء يبلغ ثمنها من 10 إلى 20 تومان ، وقد ترسل الأحساء نفسها بعض هذه العباءات على وجه الزّكاة المفروضة . ولبعض القبائل مضارب صيفية في العاصمة ، أما بعض القبائل الأخرى فلها مضارب في أماكن أخرى .

على سبيل المثال ، تُعدّ عشيرة سُبيع نوعاً ما حرساً شخصياً للأمير ، وهم ينزلون ببيوتهم بالقرب من الرّياض خلال فصل الصيف ، وأما خلال الخريف والشتاء والربيع فهم ينتجعون حيثما واتاهم الكلأ والماء ، رائحين وغادين على نفس الطريق التي أجتازها الآن ، وأقصى حد ينتجعون إليه هو المراعي الخصبة التي تقع بين الزُّبير والجَهْرا وشطّ العرب . والأمر نفسه ينطبق على عشيرة مطير . أما عشيرة السُّودان ، وهي فخذ من العُجمان ، فمضاربها الصيفية في الصَّمّان ، وهم نادراً ما يزورون العاصمة وإنما ينتجعون بأطراف الساحل . ويبدو أن القبائل الواقعة على طريق الكويت لا تربطها علاقات طيبة بالقبائل الواقعة على طريق الأحساء ، فعلى سبيل المثال يقول الشيخ السّبيعي الذي معنا إنه فيما لو ذهب إلى تلك المنطقة للاقى حتفه هناك دون أي شك .

---

(1) كان للإمام فيصل بن تركي عناية خاصة بجمع كرائم الخيل العربية النجدية ، حتى غدا مربطه في الرياض أشهر مرابطها في عصره ، وبقيت تُنسب إليه مدة طويلة . غير أن وفاته عام 1282 هـ = 1865 م بُعيد زيارة لويس پيلي قد أدّت إلى نشوب الخلاف بين أبنائه ، وانتقال زعامة نجد حتى عام 1891 م إلى آل رشيد في جبل شمّر (حائل) ، وكان من جرّاء ذلك أن غالبية سلالة خيل الإمام فيصل قد آلت لفترة طويلة إلى حائل . انظر كتاب : «رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية» ، لليدي آن بلنت عام 1878-1879 م .

وجميع أبناء العشائر يسمّون أنفسهم بالبدو ، أي الرُّعاة الرُّحّل ، وحتى عندما يقصدون مضاربهم الصيفية تراهم ما زالوا يقيمون في بيوت الشعر . ولقد أخبرني دليلنا الصّلُبي أنه لا يعرف من نجد سوى هذا الجزء ، وبأنه خبير بكل مفحص قطاة فيه ، لكنه يجهل أراضي الأحساء . غير أنني اكتشفت لاحقاً أنه يعرف أيضاً ناحية الأحساء شبراً شبراً ، ولكن من عادة الصّلُبَة أن يخفوا دائماً ما لديهم من معرفة وذلك خوفاً من العرب .

ثالثاً : لدى جميع بدو نجد ، باستثناء أربع عشائر هي سبيع ومطير وعنزة وشمّر ، عادة نصب صليب[1] يُعلّق عليه ثوب أحمر على مدخل الخَربوش الذي ستجري به عملية ختان ، وذلك كدعوة حضور للجميع . ويرسل المعارف عادة خروفاً كهدية بهذه المناسبة ، ويُربط هذا الخروف بحبل على اسم الطفل الذي سيجري ختانه ، وكل من يرسل خروفاً له الحق في القدوم كضيف ليشارك في الوليمة .

لا يقوم الأغنياء عادةً بذبح الخراف الواردة كهدايا إليهم ، بل يبقونها كمال مُدّخر للابن ، وأما الفقراء فليس أمامهم أي خيار غير الذبح . ويقول العرب بأن الصّلُبَة قد اقتبسوا عادة الصّليب والثوب منهم ، فيما يصرّ الصّلُبَة على العكس . ويؤكّد الفريقان كلاهما أن هذه العادة سابقة لعصر النبي[2] .

رابعاً : تتألف المدن والقرى في نجد بأكثريتها من السكّان البدو المتوطّنين ، وهم ما برحوا محتفظين بأنساب عشائرهم ، ويدفعون الجزية لشيوخهم ويلوذون بحماهم . لكن هؤلاء البدو صاروا من المتوطنين ، ومعنى ذلك أنهم من البدو الذين نزعوا إلى الصناعة المستقرة أو الزراعة منذ جيل أو أكثر[3] . وقرى سُدَير ومدن العارض ووادي الدّواسر وغيرها تتألف من هؤلاء السكان .

---

(1) وكان يُطلق عليه لدى البدو اسم : صَلاّب .

(2) عليه الصلاة والسّلام وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين .

(3) لا ريب أن سكان نجد بأسرهم ينتمون إلى عشائرهم ويحافظون على أنسابهم وارتباطهم العشائري ، برغم تحضّرهم وتعاطيهم الصناعة والزراعة . غير أن ما يفترضه المؤلف من قيام حواضر نجد قبل جيل أو أكثر هو أمر خاطئ ، فهي قديمة ومشتهرة أصلاً .

خامساً : إن نجداً بمفهومها الدقيق تشمل العارض وسُدَيراً والمحمل والخَـرج والقصيم والوشم .

سادساً : يُعدّ جبل شـمّر موالياً للرياض ، والواقـع أن زعيمـه الحالي ابـن رشيد[1] يدين بمركزه للأمير ، وبالمقابل كان الأمير نال عون ابـن رشـيد إثر عودتـه من مصر[2] . ويدفع الشيخ ابـن رشـيد الزكـاة لنجـد[3] ، لكـن هـذه المنطقـة لا تُعـدّ واقعة في نجد ، وجبل شمّر هذا يضمّ قسماً من جنوب القصيم ، ويصل إلى حدود ولاية الفُرات .

سابعاً : رغـم أن الأمـير نفسـه يـردّ إلـى عشـيرة عـنزة مـن حيـث النّسـب ، فعلاقته بها ليست طيّبة .

ثامناً : قـام الدّواسـر ، وهـم أصحـاب السّـلطة السـابقون في نجـد[4] ، بعـدّة محاولات لاسترجاع سلطانهم دون جدوى . وسلطتهم الآن متلاشية تماماً .

– 46 –

إن الأرض التي أقمنا بها الليلة الماضية ما تزال ضمن الصَّمّـان ، وأمـا اليـوم وهو 26 من الشهر (شباط – فبراير) فهيئة الأرض التي مشينا بهـا للنصـف سـاعة الأولى تشابه مـا مررنـا بـه البارحـة . وبعـد ذلـك بـدأت الأراضـي تنبسـط بشـكل سـهول ، وبـدأت الهضـاب تتقلّـص تدريجياً ويتضـائل ارتفاعهـا إلـى أن أضحـت

(1) كان حاكم جبل شمّر آنذاك طلال بن عبد الله بن رشيد ، تولّى الحكم عـام 1843 م وقضـى منتحراً عام 1866 م . انظر ما ذكرناه عنه في رحلة كارلو غوارماني «نجد الشمالي» .

(2) أي من والد طلال ، عبد الله بن رشيد ، مؤسس إمـارة آل رشـيد في جبـل شـمّر عـام 1835 بعد أن أقصى حكامه السابقين آل علي من بني تميم . توفي عام 1847 م .

(3) بقي آل رشيد يدينون لحكم آل سعود طوال حياة الإمام فيصـل ، ثـم بعـد وفاتـه قلبـوا لهـم ظهر المجنّ وانفردوا بحكم جبل شمّر وصاروا أسياد نجد الشـمالي . إلـى أن دارت عليهـم الدوائر وتقوّضت إمارتهم بقيام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وتوحيده مُلك أجداده مـن جديـد ، ثـم قضائـه نهائيـاً علـى إمـارة آل رشـيد في عـام 1921 م بعـد أن دامت 86 عاماً .

(4) هذا الكلام غير دقيق ، ويُفهم منه أن الدّواسر كانوا الحكّام المُطلقين لنجـد بأسـرها ، بينمـا لم يتعدّ الأمر كون بعض فنداتهم حازت مسبقاً على الشّيخة في بضعة قرى بنجد .

مجرّد آكام من الرّمال والحجارة وشظايا الحجر الرّملي . ولحظة أن يبارح المرء الصمّان يتبدّى أمام ناظريه نسق من الهضاب الرّملية (العُروق) على مسافة ما يقارب خمسة أو ستة أميال ، وتمتد هذه السلسلة على مدّ البصر إلى أقصى اليمين وأقصى اليسار قُبالة الناظر ، ويُرى جرمها واضحاً في الأفق كما لو كانت هضاباً على الساحل يراها الناظر من عرض البحر .

هذه السلسلة الرّملية هي أولى سلاسل صحراء الدّهناء ، ويفصل بيننا وبينها أُحدور يسير بشكل أرض حصوية قاسية ، لقد قمنا الآن بارتقاء هذا المنحدر ونصبنا مخيّمنا على ذروة السلسلة الرّملية الأولى . لدى استطلاعنا السلسلة من أعلاها وجدنا الرقعة الرّملية أشبه ما تكون بانتفاخ منها إلى سلسلة هضاب ، حيث لا يتجاوز ارتفاعها 70–90 قدماً ، ويقارب عرضها 400 يارد تقريباً . وهي تمتد من الشمال الغربي مع بعض الميلان إلى الغرب ، إلى الجنوب الشرقي مع بعض الميلان إلى الشرق باتجاه الأفق ، وتتناثر فيها الخضرة التي تبدو بتنوعها مختلفة عما صادفناه سابقاً . تبدو النباتات أغضّ أيضاً من تلك التي في الصمّان ، لأنه في واقع الأمر لا يهطل في شريط الصمّان سوى النّذر اليسير من المطر .

عندما نظرتُ في اتجاه مسيرة يوم غد تمكّنت من موقع مخيّمنا من رؤية سهل آخر في الأفق تتخلّله سلسلة أخرى من الهضاب الرّملية تعلو وتنخفض كأمواج واطئة طويلة ، وفيما بينها اتساعات تتخلّلها كمياه البحر .

– 47 –

فاتني أن اذكر أنه خلال مسيرنا عبر الصمّان هذا الصباح مررنا بصدع دائري في الصخر يبلغ قطره 35 قدماً تقريباً ، وعمقه حوالي 20 قدماً إلى الأسفل . وكان هناك ما يشبه المجاز الضيق في الصدع ، ثم مجاز آخر أخفض منه يبلغ عمقه حوالي ثلاثة أقدام . ولم أتمكن من التأكد فيما لو كانت هذه الفجوة طبيعية أم لا ، ولكنها تبدو عموماً اصطناعية في بعض أطرافها ، وجوانبها تتألف بالكامل من الصخر الأصم . قام أحد مرافقينا بالتدلّي إلى أسفل المجاز بحبل ، ثم أفضى منه إلى الهوّة السفلى ، لكنه لم يجد فيها أي ماء .

- 48 -

للإتيان بمثال على نمط عادة ثأر الدم أشير هنا إلى الأمر التالي :

بعد أن تحادث الشيخ السبيعي المرافق لنا مع كبير العكامين ، أجريا جمليهما أمام القافلة ميلاً أو أكثر فأشرفا فجأة على مضارب للبدو ، وخطر لكبير العكامين أن يحاول شراء ناقة حلوب منهم ، فكنت قد كلّفته بهذا سابقاً . لكن لسوء الطالع تبيّن أن هذه البيوت تعود لعرب وادي الدّواسر ، وبينهم وبين سبيع ثارات عميقة !

فلمّا تبيّن هذا الأمر ، هرع كل من الشيخ وكبير العكامين وانقلبا على أعقابهما هاربين بأقصى سرعة ، وعندما وصل الشيخ إلينا رأيناه يرتعد هلعاً من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه . وفي المساء هنأه الجميع على السلامة . ولقد علمتُ أن قومه كانوا قد قتلوا 70 من الدواسر في العام الفائت .

- 49 -

قمت بجمع بعض المعلومات من أحاديث الطريق لهذا اليوم كما يلي :

أولاً : ثمّة عشيرة منبوذة على التخوم الصحراوية لليمامة ، لها دين مستقلّ بها وتسمّى عشيرة العوازم[1] ، ويصنّف المسلمون كلاً من هؤلاء العوازم والصّلَبة كمنبوذين[2] ، حيث لا شيوخ لهم ولا تنظيم عشائري أو كيان معترف به .

وعندما سألنا لماذا عندما قام المسلمون بدفع أكثر الأعراب إلى الدخول في الإسلام تركوا هؤلاء الصّلَبة جانباً ، كان الردّ بأن الدخول في الإسلام كان يتمّ عن طريق التفاوض مع رؤساء القبائل ، وبما أن الصّلَبة لم يكن لهم شيخ فلم يكن

---

(1) للمؤلف في رحلته هذه مزاعم وافتراءات جمّة . أما العوازم فيدينون كغيرهم من عشائر الجزيرة العربية بالإسلام ، وهو الدين الوحيد بها منذ صدر الإسلام . أما إن كان الأمر يتعلّق ببعض التهاون في أداء الفروض الدينية فهذا مما قد يقع آنذاك . راجع : قبيلة العوازم ، لعبد الرحمن العبيد ، 16 ، 36 ، 42 .

(2) ما يدّعيه المؤلف حول دين آخر للعوازم أمر باطل ، أما الصّلَبة فيذكر أكثر من كتب عنهم أنهم كانوا يدينون بدين الصابئة الذي يقدّس النجوم . راجع الملحق 13 .

بالإمكان إدخالهم في دين الإسلام إلاّ بالإكراه أو الترغيب والترهيب الفرديين ، الأمر الذي لم يلق الصبر الكافي لدى المسلمين . وفوق ذلك يرى المسلمون في الصلّبة أدلاّء مفيدين ، وبما أنهم ذوو طبيعة مسالمة وخانعة فليس من اللائق إكراههم بالقسر أو نفيهم .

* * *

من خلال ما علمتُ حتى الآن ، فأنا ميّال للاستنتاج أن الديانة الإسلامية لم تدخل بها قبائل الجزيرة العربية جملة واحدة منذ زمن بعيد[1] . وبأن بعض هذه القبائل قد تحوّلت مباشرة من الوثنية إلى السّلفية الوهابية (التوحيد) دون أن تمرّ بين ذلك بأي طور وسيط من الإسلام ، وهذا التحول لم يجر إلا في القرن الماضي ، أو حتى في غضون الخمسين عاماً الماضية .

فعلى سبيل المثال ، أكّد لي بعض العارفين الثقات أن سكان الحوطة في سُدَير قد تم تحويلهم على يد الأمير فيصل من الوثنية إلى السَّلَفية رأساً في غضون الأربعين عاماً الماضية ، وأنه ما يزال يوجد إلى يومنا الحاضر كهوف منقوبة محفورة في هضاب طوي التي تشرف على سُدَير ، وكان بها معابد ديانة الحوطة القديمة . وأضاف أن أهل الحوطة أنفسهم ما زالوا يحتفظون بهذه الكهوف سليمة لم يمسّها انتهاك من الغرباء . وقد أكّد لي هؤلاء العارفون أنفسهم وغيرهم على حدّ سواء أنه بالقرب من بلدة جلاجل إلى الشمال من الحوطة في سُدَير توجد هضبة وفي ذروتها بقايا منحوتة لهيكل وثني عتيق .

كذلك في الجنوب هناك قبيلة مُرّة من الداخلين حديثاً في الإسلام ، وإلى الآن مازال تعلّقهم بأهداب التوحيد يُفرض عليهم بالقوة ، واتّباعهم للنبي غير راسخ . ويقال إنهم لمّا ضاقوا ذرعاً بضغط السلطة الحاكمة هدّدوا بالتحوّل إلى ما يسمّونه بدين «السيّد» ، أي الديانة السّائدة في نجران[2] أحد أقاليم اليمن .

---

(1) هذا تخريص باطل لا أساس له من الصحّة ، والكاتب يميّز بين الإسلام والسّلفية !

(2) آل مُرّة ينتمون إلى عشيرة بني يام المقيمة بنجران وإقليمها ، وأما دين السيّد فالمقصود به المذهب الإسماعيلي الجعفري الذي تزعّمه السيّد المكرمي . راجع : في بلاد عسير لفؤاد حمزة ، 172–173 .

وبالمثل في الأحساء والقطيف ، يعود الفضل إلى السيف وحده في إحكام سلطة العقيدة السّلفية (التوحيد) ، ومع ذلك تعتبر السّلفية في هذه الأقاليم واهية للغاية . فالناس يدخّنون ويلبسون الحرير ، وهم ميّالون إلى الانحلال واللهو ، ومن الثابت أنهم يتعاطون المشروبات الكحولية المخمّرة .

يبدو أن السّلفية الوهابية ما هي عموماً إلا نمط من أنماط الإسلام ، وُضعت خصيصاً لتلائم المناطق الفقيرة والقاصية . لكن مع ذلك قد تفي النتائج العسكرية والسياسية باستمرارها وبقائها بشكل صوري ضمن المجتمعات الثريّة ، بيد أن الاحتكاك التجاري والحضاري في هذه المناطق سوف يؤدّي إلى أن تأخذ الأمور قالبها الطبيعي ، وبالتالي تتجرّد السّلفية من جوهرها فتبقى مجرّد اسم[1] .

من المعروف أن السَّلَفي الوهابي لا يعدّ أيّاً من أهل السنّة[2] أو الشّيعة مسلمين أحقّاء ، وبالمقابل يردّ شريف مكّة على هذا الادّعاء بأن السّلفيين أنفسهم من الغُلاة . وفيما كان من الشائع سابقاً اعتبار أن الدّين الإسلامي يتفرّع إلى اثنتين وسبعين فرقة فقط - باستثناء الشيعة الذين يُعدّون مختلفين - فاليوم إنما يتضمّن الاستثناء السّلفية الوهابية نفسها .

وكذلك فإن الأسرة الحاكمة في مسقط والأسرة الحاكمة في نجد تصم كل منهما الأخرى بالخروج عن الدين . وبوجه الإجمال من المهم أن يلاحظ المرء ، في حال نشوب حرب دينية في آسيا ، إلى أي مدى ستلاقي صرخة «الدّين» التي قد يُطلقها أي مذهب إسلامي أصداء متجاوبة لدى أصحاب المذاهب الأخرى ، وفي حال تمّت هذه الاستجابة فكم من الوقت يمكن أن تدوم ما بينهم سياسة الاتّفاق الودّي المنبثقة عنها . نحن نعلم من خلال التاريخ أن الحكّام المسلمين العظام بذلوا جهوداً كبرى في سبيل صهر التيارات الدينية المتفاوتة ضمن اتّجاه فكري موحّد ، لكن بالرّغم من ذلك علّمتهم فطرتهم وتجاربهم أنه من الصعوبة بمكان ديمومة هذه الإنجازات على الوجه المطلوب .

---

(1) خاب ظنّ بيلي ، فما زالت حركة الإصلاح السّلفي قائمة حتى عصرنا الحاضر .

(2) الثابت أن الحركة الإصلاحية السّلفية تنتمي إلى السنّة بمذهب الإمام أحمد بن حنبل . وما يذكره بيلي هنا لا نصيب له من الصّحة .

نعود إلى ما كنا بصدده حول مسيرتنا لهذا اليوم :

ثانياً : استخلصتُ من الأحاديث الجارية أن جوهر النزاع ما بين الإمام وسلطان مَسْقَط إنما يكمن في المطالب السابقة لرفع قيمة مال الزكاة من 12,000 إلى 40,000 ريال ، وأنه لهذا السبب تم الإيعاز إلى والي الإمام في البُرَيمي للتوجه إلى غزو أراضي مَسْقَط . والواقع أن الإمام ذاته هو من يثير حبائل هذا النزاع .

ثالثاً : ذُكر لي اليوم أنه ما قبل استلام آل سعود مقاليد السلطة ، كانت أواسط الجزيرة العربية مُقسّمة ما بين عدّة شيوخ صغار مستقلين .

رابعاً : حتى ما قبل ثلاثة أعوام تقريباً كان الحجّاج في غير العرب يدفعون خاوة لعدّة مشايخ على الدرب في نجد ، ولكنهم الآن يتعاقدون مع حكومة نجد على دفع 72 ريالاً للفرد الواحد ، ومن أصل هذا المبلغ يؤدّي الأمير 20 ريالاً لشريف مكة ، و12 ريالاً لشيوخ العشائر الواقعة على الطريق[1] .

هذا ويبلغ عدد الحجّاج الوافدين سنوياً على وجه التقريب ما يلي :

بطريق البصرة 18,000

بطريق الكويت 2,000

بطريق الأحساء 30,000

من الشام وديرة الشمال 150,000

لكنني مع ذلك أفترض أن حجّاج الشام وديرة الشمال لا يدفعون للإمام مبالغ طائلة[2] .

(1) كان العُرف السائد أن تتعرّض أكثر العشائر الواقعة على طريق الحج إلى قوافله ، وتنهبه أو تفرض عليه الخاوات ، فقام الإمام فيصل وابنه عبد الله بتوجيه ضربات شديدة إلى عشائر مطير وقحطان وعتيبة والعُجمان وغيرها ، خاصة في عامي 1276–1277 هـ . وكان من نتيجة ذلك تغيير نظام مرور الحجّاج بنجد ، ومنع الإمام فيصل شيوخ العشائر من فرض خاواتهم المذكورة ، بل صار يتم دفع ما يترتّب لهم عن طريقه .

(2) كان طريق محمل الحج الشامي الآتي من شمال الحجاز لا يخضع آنذاك لسيطرة الدولة السّعودية الثانية ، بل يتبع مباشرة سلطة الدولة العثمانية التي تحافظ عليه بقوة .

على جميع الأحوال فإن العوائد الآتية من الحجاج الآتين براً تتفاوت في الوقت الحاضر كثيراً ، ذلك بأن النفقات تتغير دائماً . وفي كل موسم يزداد الاتجاه إلى تطوير وسائط نقل الحجاج بالمراكب البخارية ، فمن غير المتوقع أن يرضى زوار مكة بعد الآن بتعريض أنفسهم للمهانة وللسرقات والتأخير وقلّة النوم والطعام والشراب ، بالإضافة إلى آلاف المصاعب التي تواجههم على متن الجمل في وسط الصّحراء ، بينما بالمراكب البخارية سيمكنهم الوصول إلى قبلة حجهم بيسر وسهولة نسبياً ، وبتكلفة معقولة وبغير ما يكدّر نفوسهم .

خامساً : تحوّل الحديث اليوم إلى ذكر واردات الأمير ، فذُكر لي أنه يتلقّى الواردات المالية من تابعيه على النحو التالي :

من البدو عموماً	114,000	ريال
من إقليم القصيم	70,000	ريال
من إقليم الوشم	12,000	ريال
من إقليم سُدَير	70,000	ريال
من إقليم العارض	50,000	ريال
من إقليم اليمامة والخرج والحريق	30,000	ريال
من إقليم الحوطة	20,000	ريال
من إقليم الأفلاج	7,000	ريال
من إقليم السليل	7,000	ريال
من إقليم وادي الدّواسر	16,000	ريال
من إقليم الأحساء	270,000	ريال
من إقليم القطيف	130,000	ريال
من إقليم العُقَير	4,000	ريال
من المناطق الواقعة بين العارض وحَزم الرّاجي[1] المعروفة بالقرنيّة	6,000	ريال
المجموع العام :	806,000	ريال

(1) يعيّن لوريمر موقعه في دليل الخليج (5 : 2345) إلى الجنوب الغربي من عفيف بعالية نجد .

سادساً : تبيّن أنه ما من ضريبة رؤوس في أواسط الجزيرة العربية ، وأنه من المتعذّر إعطاء إحصاء تقريبي للسكان ، علماً أن النساء والأطفال لا يُحصَون .

سابعاً : تناولنا بالحديث حاجب الأمير المدعو محبوباً[1] ، والذي كان والده الطيب الصيّت عبداً حبشياً من عبيد الأمير ، وفي النهاية أعتقه الأمير فيصل ومنحه إحدى سراريه التي كان قد جلبها من مصر ، ويقال كانت كُرجية الأصل . ويبدو أن التسرّي (اتخاذ الجواري) غير مسموح به في نجد ، فللرجل الحق في اتخاذ أربع زوجات في الوقت نفسه ، وله الحق في التطليق متى شاء ، لكن لا يجوز له معاشرة أيّ من النساء إلا أن تكون زوجة حليلة له ، وليس سريّة أو جارية .

وفي أصول نَسابة الدّم يطبّقون على أنفسهم المبادئ نفسها التي يطبّقونها على خيولهم الأصائل ، وبالأخص أن الدّم متى تلوّث فلا يمكن تنقيته أبداً . ومن هذا المبدأ لو أن عربياً تزوج من امرأة زنجية فولدت له ، لا يحق لابنه الهجين أن يتزوّج عربية حرّة بهدف تطهير عرقه من جديد نحو الأصل العربي . بينما على الشريط الساحلي يُنظر إلى ابن الحبشية كغيره من الناس دون تفريق ، فسلطان عُمان الأسبق [ثويني بن سعيد بن سلطان] الذي اغتاله ابنه [سالم] منذ بضعة أسابيع كان من أب عربي صرف هو السيِّد سعيد ، ولأم حبشية .

أما بخصوص الإرث لدى السَّلفيين فهم يحكمون بشرع القرآن ، ولا يمكن للرجل تبعاً لهذا التوصية بالإرث بأكثر من نصف[2] ما يملك . وينال أهل عصب الرجل المتوفى ثلث التركة ، أما الأرملة التي لا أولاد لها فلها الرُّبع ، والأرملة ذات الأولاد تحصل على الثُّمن ، فيما يؤول الثُّمن الآخر إلى أبنائها .

---

(1) اسمه محبوب بن جوهر ، ذكره الرحّالة البريطاني اليسوعي وليَم غيفورد پالغريف في زيارته للرياض عام 1862 (قبل 3 أعوام من زيارة پيلي) ، فيروي أن جوهراً كان أحد عبيد الإمام تركي بن عبد الله فأعتقه الإمام فيصل ، ثم أضحى واحداً من كبار موظفيه وأمين خزانته . أما ابنه محبوب فكان له نفوذ عظيم في القصر ، حتى أن پالغريف لقّبه برئيس الوزراء (Prime-Minister) ، وقدّر عمره يومها بحوالي 25 سنة . راجع :

Palgrave, W.G.: *The Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia*, II, pp. 98-101.

(2) بل الثلث ، والمرأة التي يموت عنها زوجها ولها ذرّية تحصل على الثُّمن وينال الأبناء الباقي .

في صبيحة يوم 27 غادرنا مخيّمنا على السلسلة الرّملية الأولى ، وبعد أن سرنا عبرها بضعة مئات من الياردات نزلنا سهلاً يبلغ اتساعه سبعة أميال تقريباً . ثم صعدنا السلسلة الرّملية الثانية ، التي كانت أعرض وأكثف من الأولى ، فلزمنا لاجتيازها ساعة ونصف الساعة .

بعد ذلك نزلنا سهلاً ثانياً يبلغ عرضه حوالي الميل ونصف ، وبعدها صعدنا السلسلة الثالثة ، ثم بعد أن اجتزناها بساعة وعشر دقائق نزلنا السهل الثالث ، الذي يبلغ اتساعه ثلاثة أميال . ولزمنا لاجتياز السلسلة الرابعة ساعة واحدة ، ولاحظنا أن السلاسل الرّملية مع السهول التي تتخلّلها تتبع جميعها سَمتاً واحداً ، هو الذي أشرنا إليه عند ذكر السلسلة الأولى .

لذا أستنتج أن قاعدة التكوين العام للبلاد هو نفس ما كنت افترضتُه فور مغادرتنا الكويت ، أي براري مع سلسلة متقطّعة من الآكام الخفيفة تتبع اتجاهاً واحداً ، ويُستثنى من ذلك الدّهناء ، التي تؤلّف هضبة أعلى قليلاً و أقرب إلى جهة الداخل وتحدّها من أقصاها الشمالي والجنوبي فيافٍ رملية شاسعة . والرّمال من هذه الفيافي نقلتها الرياح السائدة ، فتراكمت حيث لاقت عواقب في وجهها ، أي تحديداً على طول الآكام ، التي لهذا السبب أضحت مكسوّة بالرّمال الآتية من السلاسل الرّملية التي وصفتُها ، بينما بقيت السهول والقيعان المتخلّلة الفاصلة ما بينها ، والتي لعبت دور القُمع في وجه الريح ، خاوية تماماً من الرّمال ، حيث تذروها الرياح يمنة ويسرة نحو المرتفعات المحاذية .

وينبغي الإشارة إلى أن الرياح السائدة في هذا البقاع تتبع الاتجاه ذاته الذي تتبعه سلاسل الدّهناء الرّملية ، أي محور شمال بغرب - جنوب بشرق . وحيث تنكشف طبقة الأرض التحتيّة للسهول ، تتألف هذه الرّقاع من غضار ناعم جداً ، متكسّر هنا وهناك بفواصل من حصى دقيق وشظايا حجر رملي . أما النباتات النامية على الهضاب الرّملية فتختلف عمّا في الصّمّان ، واليوم جنيتُ نماذج منها . أما لون الرّمال فأحمر باهت أو برتقالي محمرّ .

كنا بصدد اجتياز السّهل الرابع عندما اشتدت بي نوبة الإسهال الزُّحاري الذي كنت أعاني منه ليومين أو ثلاثة أيام مضت ، وبلغ بي الإعياء حدّ العجز عن احتمال ارتجاج الجمل من تحتي ، فلذا أمرتُ الركب بالتوقف عند الساعة 3:00 ظهراً . لكننا ما كدنا نفرغ من نصب خيمتنا حتى دبّت صيحة التحذير في المخيّم . كانت هناك مجموعة من الرّكبان تقترب منا وتبيّن لنا أنهم بعض أعداء الشيخ من وادي الدّواسر . كان عددنا أكبر منهم وأقوى ، لذا تصرفوا بكل دعة . ولكن الشيخ السبيعي أخبرني عندما كنا نشرب القهوة في المساء أنه لولا خشيته من الأمير لما توانى عن قتلهم .

سعى ترجماني لاستخلاص بعض المعلومات عن وادي الدّواسر من هؤلاء الأغراب ، لكنهم رفضوا حتى ردّ السلام واكتفوا بقول : «صلِّ على النبي !» . وهذا الجواب ردّ مهذب يعني أننا أعداء وخير لنا عدم طرح الأسئلة .

واليوم تبيّنت أن أحد العكامين معنا هو من قبائل عسير القاطنة في الجبال المتاخمة للحُديدة . واتضح لي أنه واحد من أقل الرجال انضباطاً في الجملة ، وفي إحدى المرات كنت أستحثّ الجميع على المسير عقب حلول الظلام فقام يحرّض الآخرين على الممانعة وكادوا يقومون بالعصيان ضدي ، وبدا الرجل مستعداً لأكثر من ذلك ، بأن يضربني ببلطته التي يحملها على عاقته . لكنني رغم ذلك وضعته تحت رقابتي وأجبرتُ المعسكر على تحميل الأمتعة والمسير .

أحد العكّامين كان كويتياً ورأيناه رامياً بالرّصاص من الدرجة الأولى ، وكان يحمل بندقية أم فتيل ، يرمي بها فلا يخطئ الهدف أبداً . والطريدة الوحيدة التي رأيته يرمي عليها هي الأرنب البرية ، فكانت لناظريه قدرة فائقة على تمييزها بسرعة في مكامنها ، وكان على أتمّ الثقة من أنه صائبها لا محالة[1] . والأرانب هذه صغيرة الحجم لكنها لذيذة الطعم بالفعل .

---

(1) ما زالت هواية الرّماية شائعة ومرغوبة في الكويت ، وما برح الرّماة الكويتيون يحصدون المراكز الأولى في أكثر البطولات الخليجية والعربية التي تُقام في عصرنا !

أما بخلاف هذا فلم نر من حيوانات الصيد سوى النذر اليسير ، ظبي واحد وبضعة حُبارى كانت كل ما شاهدناه ، ورأينا كذلك بعض بيض الحُبارى . أما الثعابين فكثرة كاثرة ، كان صحبنا يقتلون منها دستة أو أكثر في دربهم يومياً . كما رأينا العديد من السحالي ومن الجُعلان ، ومنها أنواع وأشكال عديدة جداً .

– 53 –

في اليوم 28 من شباط (فبراير) انطلقنا من موقعنا الكائن في السّهل الرابع فأكملنا اجتياز نصفه الأخير ، ثم صعدنا السلسلة الخامسة من الهضاب الرّملية ، وكانت هذه الأعلى فيها وأكثرها كآبة وإقفاراً . كنتُ اليوم مُرهقاً إلى الغاية بحيث لم أتمكن من ملاحظة سلاسل الهضاب أثناء مسيرتنا اليوم ، لكنني أظن أن السهل ما بين السلسلتين الخامسة والسادسة هو أوسع هذه السهول على الإطلاق . وهناك بالإجمال سبعة أنساق متميزة من الهضاب الرّملية ، مع السهول التي تتخلّلها ، تؤلف جميعاً اتساع الدَّهناء عند الخط الذي اجتزناها منه . ولكن هذا الخط المحدّد تم انتقاؤه نظراً لسهولته النسبية[1] ، وكان باستطاعتنا أن نلاحظ من جهة أخرى أن المنطقة بدأت تصبح أكثر تشعّثاً وانكساراً .

وبمعزل عن الخطوط السبعة الأساسية الموصوفة أعلاه ، اجتزنا خطين صغيرين متداخلين . لكن عموماً تشبه الدَّهناء كما نراها سبع أمواج ضخمة مع سبعة بحور تتخلّل فيما بينها . وعندما يقف المرء على ذروة السلسلة الأخيرة أو الغربية ، التي يبلغ عرضها حوالي الميلين ، فهو يشرف على سهل لا يحدّه سوى الأفق مكسوّ بقصار الشجر ، ومغمور هنا وهناك بالهُباء والرّمال . ولربما يمتّع المرء نفسه بالوقوف فوق جرف رملي مشرفاً على المحيط الهادر من الرّمال تحته ، ولعل هذا الوصف يجوز لتشبيه قاعدة السلسلة الرّملية ومبدأ السّهل .

---

(1) تمتدّ صحراء الدَّهناء من الجنوب إلى الشمال ، بشكل عدّة سلاسل من الكثبان الرملية الطولانية السامقة والمتوازية ، تُعرف باسم «الحبال» ، أشهرها سبعة يفصل بين أحدها والآخر سهل أجرد بلا رمل يُسمّى صريمة أو شقيقة أو خبَّة . والطريق الواصلة بين نجد وشرق الجزيرة تجتاز هذه الحبال والصرائم معترضة من أماكن محددة . راجع : بلاد العرب للأصفهاني ، 309–312 ؛ معجم اليمامة لابن خميس ، 1 : 438–439 .

نصبنا خيمتنا على أعلى نقطة في السلسلة ، وذلك لتشكيل نقطة علاّم لدليلنا الصّلْبي الذي أرسلناه في الأمسية الفائتة صوب بعض الآبار التي تبعد 15 ميلاً ثمّة في السهل ، وكان من المفترض رجوعه هذا المساء ومعه زوج من قِرَب الماء التي كنا بأمسّ الحاجة إليها . ذُكر لنا أنه باتجاه الجنوب تنتهي حدود الدَّهناء بالقرب من جبل يبرين في اليمامة . ولكن إلى حدّها الأقصى الجنوبي تفقد اسم الدَّهناء لتأخذ اسم النّفود[1] بينما إلى جهة الشمال يقال إن الدَّهناء تلتفّ حول الحدّ الأقصى الشمالي الشرقي لهضاب طويق ، ومن هناك إلى جهة الغرب حول جبل شمّر ، ثم إلى مشارف الجوف[2] .

– 54 –

في اليوم الأول من آذار (مارس) هبطنا السلسلة الأخيرة من تلال الدَّهناء ، وبعد أن سرنا عبر السّهل حوالي ست ساعات دخلنا منطقة تعرف بالعَرَمَة[3] . وعلى تخومها مررنا بآبار تُعرف باسم العُرميّة [الرُّمحيّة؟] أو العَرَمة الصغرى ، تمييزاً لها عن آبار أخرى في المنطقة نفسها ، تقع إلى الشرق قليلاً ، وتُعرف بآبار

---

(1) حول صحراء النّفود الكبير (الشمالي) راجع الوصف الشيّق لرحلة الليدي آن بلَنت عبرها في كتابها : «رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية» ، سنصدره في هذه السّلسلة .

(2) تتألف الدَّهناء من ذراع عظيمة من الرّمل على شكل قوس يوازي مرتفعات اليمامة من الشرق . يبدأ هذا الذّراع من رمال الرّبع الخالي إلى الشرق من الأفلاج في الجنوب ، ثم يتّجه شمالاً بميل إلى الغرب حتى يتّصل برمل عالج أو النّفود الكبير شمالي جبل شمّر . ويتراوح عرض الدّهناء ما بين العشرين والمئة كيلومتراً . أما جنوب الدّهناء فلا يُطلق عليه اسم النّفود بعينه ، بل إن التسمية تُطلق على كل مجتمع للكثبان الرّملية . وليس هناك جبل بالقرب من يَبرين تُنسب إليه تلك الواحة ، بل هي «جوبة يَبرين» أي منخفض يَبرين . وواحة يبرين ليست من اليمامة ، لأن الدَّهناء تفصل بينهما . راجع : معجم اليمامة لابن خميس (الدّهناء) ؛ معجم المنطقة الشرقية لحَمَد الجاسر (يَبرين) .

(3) العَرَمَة هضبة مستطيلة تمتدّ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، تفصل ما بين الدَّهناء وجبل طويق الشمالي . يبلغ طولها حوالي 300 كيلومتر ، وعرضها 30 كيلومتراً في المتوسّط . وهي شبيهة بجبل طويق من حيث الانحدار التّدريجي بناحية الشرق والهبوط المفاجئ بناحية الغرب . وتنحدر من ظهر هذه الهضبة بعض الوديان باتجاه الشرق حتى تفيض في السّهول الواقعة بينها وبين الدّهناء ، كما تتخلّلها بعض الثنايا التي تسلكها الطرق بين اليمامة وشرق الجزيرة . راجع : معجم اليمامة لابن خميس (العَرَمَة) .

العَرَمة بعينها[1] . ومجموعتا الآبار كلاهما تقعان على الضفة الجافة لسيل شتوي يجري من الجنوب الغربي إلى الشرق ، بميل يسير نحو الشمال .

هذا السيل ينتج عن فيض المطر في نسق من الهضاب تسمى الثُّمامة[2] ، تشكل الحدود البرية للعَرَمَة . ويتلاشى هذا السيل شرقاً في رمال الدَّهناء . وعلى رقعة أرض صغيرة معشوشبة بالقرب من الآبار أيكة من شُجيرات السَّنط القزمي ، هي أول أشجار نصادفها منذ أن وطئنا الجزيرة العربية في الكويت . بالمقارنة مع القفار الشاسعة التي تم لنا اجتيازها الآن ، صرنا نعدّ أشدّ بلاد فارس إقفاراً وكأنها نضيرة ومأهولة بالسكان ، هذا لأننا لم نر هنا حتى الآن لا شجرة ولا كوخاً ولا فلواً ، بل بالكاد بعض السَّخلات ، منذ مغادرتنا الكويت .

– 55 –

بعد أن تركنا الآبار سرنا لمسافة يسيرة على خط مجرى السيل ، ووجدناه مهدّباً بالأشجار القصيرة . وكلما تقدّمنا كنا نرى الأرض تزداد تكسّراً مما ذكّرنا بالصَّمّان ، ما عدا أن هذه الأخيرة جرداء تماماً من الشجر . وعند الآبار كنا قد قابلنا بعض الدَّواسر الذين أتوا لجلب الماء لبيوتهم المنصوبة على بعد 20 ميلاً في مكان ما في صحراء الدَّهناء .

إن الماء الذي حصلت عليه جمالنا اليوم من آبار العُرميّة [الرُّمحيّة؟] كان ثاني شربة لها فقط منذ مغادرتنا الكويت في اليوم 17 من الشهر المنصرم .

---

(1) لا تذكر كتب الجغرافيين آباراً باسم العَرَميّة أو العَرَمة ، بل لعلّها آبار الرُّمحيّة أو الغيلانة (في النص : Ormayeh) ، وهي من أهم مناهل وادي الثّمامة وأقصاها شرقاً عند الدّخول إلى العَرَمة بطريق وادي الطّوقي أو الثّمامة ، وخاصّة أن يبلي ذكر الغيلانة في مراحل طريقه (الملحق رقم 3) . أما ما سمّاه آبار العَرَمة بعينها فلعلها آبار رماح ، أغزر المناهل بين الدَّهناء والعَرَمة ، ولا تبعد رماح والرّمحيّة كثيراً عن الغيلانة إلى الشمال الشرقي . ومن خلال وصفه للآبار ودرب اجتيازه العَرَمة ، يبدو أنه دخل الهضبة عند مصبّ وادي الطوقي ثم ارتقى منه إلى وادي الثّمامة ، فتبع مجرى سيل الوادي صاعداً في العَرَمة حتى خرج منها عن طريق ثَنيّة الثّمامة ، وهو الطريق القديم بين اليَمامة والبَصرة .

(2) الثُّمامة اسم لثنيّة من ثنايا العَرَمَة يسلكها الطريق ، كان طريق يبلي منها ، فلذا ربما أطلق اسم هذا الجزء من مرتفعات العَرَمة على سائرها . انظر معجم اليمامة لابن خميس .

سبق أن لاحظتُ أن جمالنا كانت دائماً عارفة بطريقها وبرعاتها في هذه المفاوز العديمة المعالم ، ولاحظتُها أيضاً عندما تكون مُوسقة بالأحمال ويُترك لها الحبل على الغارب صباحاً ، تمضي بشكل طبيعي ترعى في طريقها آخذةً بالاتجاه الصحيح ، فسألتُ رجالنا عن غريزة الجمال حول الاتجاه ، فأكدوا لي أن البعير يميّز دوماً الطريق الذي سلكه سابقاً . وأشاروا فوق ذلك أنه في حين كانت تُترك جمالنا التي في المخيّم جميعها لتشرد على هواها بعد المسير ، كان أحدها وهو جمل ظفيري يتم تقييد قوائمه بالشكال عند التوقف ، وكان آخر ما يُحمّل من الجمال عند المسير ، والسبب أنه يعود لعشيرة الظفير بالقرب من نهر الفرات ، وإذا لم يُقيّد بالشكال فسينطلق على الفور ميمّماً شطر موطنه الأصلي .

2 آذار (مارس) : خيّمنا الليلة الماضية بجانب مجرى سيل ، على مسافة 6 ساعات بعد مرورنا بالآبار ، وبقي دربنا هذا الصباح مسايراً لضفته اليسرى ، إلى أن شارفنا عند الهاجرة على منبع السّيل ضمن نطاق الهضاب التي تؤلف المتراس الغربي للعَرَمَة . تحصر هذه الهضاب ما بينها مخروطاً عظيماً يقع الآن أمامنا إلى اليسار واليمين ، وفي مركز القوس ثغرة واضحة ، تنكسر عندها مناكب الهضبة بشكل جُرُفٍ عالٍ شديد الانحدار[1] . هذه الهضاب هي مفاض المطر للعَرَمَة .

تنساب الجداول التي إلى الشرق في خَبْرات متعرّجة إلى الدَّهناء ، أما التي على البطانة الغربية للمنحدر فتهوي فجأة في سهل ضيّق يقع بين لُحف بطانة المنحدر وبين ضلع رملي متّسع طويل[2] . وفي المنظر الكفافي للهضاب يتّخذ السهل الضيّق والكثبان الرّملية مجرى واحداً غير منتظم ، وتبدو كتحصينات طبيعية .

---

(1) هذه الثغرة التي تشق مرتفعات العَرَمَة هي ثنيّة اليَمامة أو رَبع اليَمامة ، الذي يسلكه الطريق من الرياض إلى الكويت والبَصرة . وهذا الرَّبع هو مفاض المياه بين شقّي وادي الثُّمامة المتّجه أحدهما شرقاً والآخر المتّجه غرباً ، والثاني أقصر من الأول . أما الجُرُفان الشديدا الانحدار على جانبي الرَّبع ، فالجنوبي منهما يسمّى «زُور صالح» ، بينما يُسمّى الشمالي «خشم الثُّمامة» . راجع معجم اليَمامة لابن خميس ، 1 : 239–241 .

(2) هذا الضلع الرّملي هو كثيب الغينة أو عُريق بَنْبان ، كثيب يمتدّ مسافة 80 كيلومتراً إلى الجنوب بمحاذاة المرتفعات الغربية للعَرَمة . يبدأ قرب روضة الخَفْس وينتهي بالقُرب من شمال شرق الرياض . انظر معجم اليَمامة لابن خَميس ، 1 : 479–480 .

قادنا طريقنا باتجاه الثّغرة أو الوهدة ، فكان ذلك أول موضع بهي المنظر نمر به حتى الآن ، وهو مجاز ضيق وعر يتلوّى بجوانب منحدرة تنمو فيها الأشجار بشكل متوسط ، وتبدو بها وفرة في المياه . وإن بطانة المنحدر تتكشّف عن مساحة كبرى من الهضاب . ثم مباشرة ما تحت الوهدة تُفضي الثّغرة إلى السّهل الضيق المشار إليه أعلاه . لقد وجدنا أن السلسلة الرّملية المحاذية كانت أعلى وأكثف من كل ما رأيناه في الدَّهناء . واستغرق اجتيازنا لهذه السلسلة ساعة وربع .

خيَّمنا الليلة عند السفح الأقصى قرب قاعدة هضبة هرميّة رملية سامقة . وكنا نلحظ هذه الهضبة الهرمية من قمّة الثّغرة تلوح من بعيد أعلى من الكثبان الرّملية جميعاً ، وتسلك نحو الجنوب الغربي . وخلف مكان مخيّمنا تُرى تلول الثُّمامة التي مررنا للتوّ من صدعها ، وهي تبتعد إلى الشمال الغربي وتتناهى إلى أقصى ما تبلغه عين الناظر بجُرُف عال . وعلى هذا المنوال تسلك الهضاب اتجاه جنوب شرق ، لكن يبدو أن رتل الكثبان الرّملية ينقطع فجأة بهذا الاتجاه . قدّرتُ ارتفاع هضاب الثُّمامة عن سطح السّهل المحاذي لها بما يقل عن 1000 قدم .

بالإجمال كما أسلفت آنفاً ، تذكّرني منطقة العَرَمَة كثيراً بالصَّمّان على الجانب الأقصى من الدَّهناء ، لكن مع فارق هو أن مجاري السّيول في العَرَمة أعمق وأغنى بالنباتات وتحمل آثار وفرة أكبر في المياه . غير أنه لا يبدو مؤكداً أن متوسط هطول الأمطار أعلى في العَرَمَة من سواها ، لكن مع ذلك انحدار الوادي أشدّ ، وقوّة الفيض أكثر تركيزاً . وكذلك فإن المناخ قد تحسّن بشكل ملموس منذ أن غادرنا الدَّهناء ، فالجو رائق وفي ساعات الصباح تخيّم برودة منعشة ، لكن بعد الظهيرة يشتدّ القيظ ، وتتوهّج الشمس ومعالم الطبيعة معها .

مررنا اليوم ببضعة بيوت شعر لقبيلة القحطان ، فوق الثّغرة بقليل . فرفضوا إعطاءنا الحليب ، وكذلك أبوا بيع عنزة لنا ، ذلك بأنهم قالوا إنه ليس بحوزتهم سوى الإناث من المعزى ، وأنها جميعاً لازمة لهم للحليب[1] .

---

(1) لا نظن أن سبب ذلك ناجم عن شحّ ، فالواقع أن السنة التي قام بها بيلي برحلته (1282 هـ = 1865 م) اشتدّ فيها الغلاء واستمرّ حتى منتصفها . راجع : الأخبار النّجدية لمحمد بن عمر الفاخري ، ص 187 .

غادرنا الضّلع الرّملي [عريق بَنبان] صبيحة يوم 3 آذار (مارس) ، وتقدّمنا لمدة ثلاث ساعات عبر سهل ، ثم أشرفنا على نواحي الهضاب القاحلة . ومن هذا السّهل صار اتجاه الرّياض إلى الجنوب تماماً ، وهذا سيكون طريقنا المباشر . لكنني كنت أرغب بزيارة سَدُوس ، وللمرة الثالثة أو الرابعة دبّ الشجار بيني وبين مرافقيّ الأعراب بخصوص هذا الأمر . وكان الشيخ السّبيعي بالأخص أكثرهم ممانعة ، ولما ألفاني مصراً على ما أبغي ادّعى في آخر الأمر أنه كان قد ترك عباءة له في قرية صغيرة كان مرّ بها في آخر مجيء له إلى هذه الناحية ، وأنه الآن يطلب الإذن مني للذهاب وجلبها ، على أن يلحق بي في المساء .

كان معنى ذلك ، كما هو واضح ، أنني فيما لو تركته يبتعد عن ناظري لبضعة دقائق للوى عنان ناقته ميمّماً شطر الرّياض ، ولاختلق على الفور قصّة مستفيضة حول ذهابي إلى سَدُوس . لذا رفضتُ طلبه ، وتابع المسير معي . ثم ما كان من هذا الماكر إلا أن تابع حديثه معي بشكل ودّي جداً ، وسألني فيما لو كنتُ راغباً في المشاركة بالحملة التي سيقوم بها ابن الأمير بعد بضعة أيام على هضاب قحطان إلى الغرب[1] .

سألته عن طبيعة هذه الحملة وغاياتها ، فأجاب أن الأمير قد تعهّد للحجّاج العابرين بنجد بحرّية المرور إلى حدوده التي لا تبعد عن مكّة سوى يومي مسير ، وأنه على الجزء من الطريق الذي يمر بديرة قحطان قد تعرّض الحجّاج للهجوم والسلب من قبل عشائر تلك الهضاب . ولذا عند اقتراب موعد الحج كان عبد الله يستعد لتجريد حملة بغية تطهير الطريق من قطّاع الطرق . أجبتُ بالطبع أنه مما يشرّفني أن أتعرف بعبد الله ، وأن أكون شاهداً على بسالته في الحرب .

---

(1) قحطان واحدة من أكبر وأقوى العشائر في الجزيرة العربية بأيام الدّولتين السّعوديتين الأولى والثانية ، تمتدّ منازلها من سفوح جبال عَسير الشرقية إلى منازل الدّواسر في الشرق ، كما تمتدّ شمالاً بأغلب عالية نجد الجنوبية . أهم منازلها : وادي تثليث ووادي الركاء ووادي الرّين والعِرض . أضحت بعهد الإمام فيصل بن تركي أقوى عشائر نجد بزعامة شيخها محمد بن هادي بن قَرْملة ، وقامت بدور بارز في الصراع بين أبناء الإمام . صحيح الأخبار لابن بليهد النّجدي 2 : 129-131 ؛ لمع الشّهاب لمجهول ، 64-65 .

وقعت عباراتي الوديّة موضع الاستحسان لدى الشيخ السّبيعي الماكر ، فاقترح أن أفضل طريقة بهذا الصّدد هي أن أقبل الدعوة بالإقامة في نجد بالمرّة . ولسوف يقدم لي الأمير زوجة عربية جميلة ذات عينين مليحتين وشعر طويل ، فضلاً عن المئات من البعير والآلاف من الغنم والخيل ، وكل ما يلزمني . فأجبتُه بأن لي الحق في أربع زوجات . «لك ذلك !» أجاب ، «لك ذلك ، ما عليك إلا الإقامة في نجد !» . أكّدتُ له أن هذا العرض يبدو مغرياً للغاية ، ولكن المعضلة تكمن في كوني خادماً لحكومتي مما يحول بيني وبين الكثير من الأمور التي لولا ذلك لكانت ممتعة للغاية .

أخيراً ، لمّا تيقّنوا من عزمي الأكيد على المضيّ فيما أبغي نزلوا عند إرادتي ، لكن لم يتمّ الأمر دون وجوه مقطّبة عابسة ، وذلك لأنهم فيما كانوا يقتربون من الرّياض كان رعبهم من الأمير يتحول إلى ما يشبه حرارة الحمّى .

كنا الآن قد وصلنا إلى المشارف المنخفضة المتكسّرة لهضاب العارض ، أو بالمعنى الأصح كنا في مرتفعات نجد بعينها . والسّهل نفسه يسمّى الشّعيب[1] عند النقطة التي اجتزناه فيها ، وهو يمتد بعيداً إلى الشمال إلى جهتنا اليمنى نحو الحدّ الأقصى لهضاب العارض نفسها ، وهي مسافة مسير يوم طويل إلى اليمين منا . وهو هناك يأخذ اسم البَطينة[2] ، حتى يشارف على جبل طُويق ، حيث تسمّى الأراضي المنبسطة التي تمتد مباشرة تحت سفوحها باسم سُدَير .

---

(1) في الأصل الإنكليزي : Shaab الشّعب ، والشّعيب اسم حديث لوادي قُرّان القديم الذي ينحدر من على جبل طُويق في الغرب حتى يفيض في روضة الخَفس في حضن العَرَمة . وأضحى الاسم يُطلق على الوادي وقراه والشّعاب الصغيرة الواقعة إلى الشمال مباشرة من وادي حَنيفة . من أهم بلدانه : حُرَيملاء ومَلْهَم والقُرَينة وسَدُوس وصُلبوخ والبَرَّة . راجع معجم اليَمامة لابن خميس ، 2 : 56 .

(2) في الأصل الإنكليزي : Batinah ، والصحيح في اسمه : البَطين أو بَطين المُلتهبة أو بطن العَتَك ، وهو سهل منخفض مستطيل يمتدّ بحذاء الجانب الغربي لمرتفعات العَرَمة ، بينها وبين حواف جبل طُويق الشرقية ، شمالي منطقة المحْمَل . تفيض إليه سيول العَتَك الأعلى النازلة من سفوح طُوَيق الشرقية وسيول العَتَك الأسفل المنحدرة من مرتفعات العَرَمة الغربية . راجع : صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار لابن بليهد النجدي ، 4 : 86 ؛ معجم اليمامة لابن خميس ، 2 : 138-140 .

وسُدَير واحدة من أكثر المناطق استقراراً وآهلية بالسكان في نجد . ولتحديد هضاب جبل طويق يُعتبر أنها تنحدر من الزِّلْفي في الشمال الشرقي ما وراء سُدَير ، وتتّجه جنوباً ما وراء النقطة المعروفة بالمحمل[1] (الفجوة) في الخريطة ، وهكذا حتى تصل رأس وادي حنيفة ، الذي تُعدّ هضاب جبل طويق حدّاً له من جهة الغرب . وكذلك فإن مرتفعات العارض يُعدّ مبدؤها بالتحديد من النقطة التي تؤلّف المدخل الشرقي للمحمل أو الفجوة ، ثم تأخذ بالتوسّع باستمرار حتى تصل إلى الجانب القريب أو الشرقي لوادي حنيفة[2] . أما سهول الشَّعيب وبَطينة وسُدَير فهي تؤلّف جميعاً تلعة واحدة تمتدّ ما بين هضاب العَرَمة والناحية التي على تُخمها الشمالي الشرقي ، وهضاب طويق والعارض التي على تُخمها الجنوبي والغربي .

– 57 –

أخيراً دخلنا سلسلة هضاب العارض من وادٍ يدعى وَتَر[3] ، وهو يقطع الهضاب بشكل مستعرض من جانبها إلى الآخر ، أي بعبارة أخرى من سهل الشَّعيب إلى سَدُوس ، وهكذا نزولاً حتى المحمل . ووَتَر وادٍ عميق بعض الشيء وواضح المعالم ، وفيه مجرى سيل . وفي بعض المواضع تتكشّف بطانة المجرى عن طبقة أفقية من الصّخر الرّملي .

---

(1) تقع منطقة المِحْمَل بين منطقة الشَّعيب جنوباً وسُدَير شمالاً ، إلى الشرقِ من منحدرات جبل طُوَيق بينه وبين بَطين المُلتهبة . من أهم بلدانها : ثادق والبير والصَّفْرات ورَغْبَة . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس ، 2 : 344 .

(2) اختلط على فهم المؤلف عموماً تحديد هضاب جبل طُويق والعَارض ، ففيما عدّ كلاً منهما جبلاً مستقلاً نجد أن طُويقاً والعَارض واليَمامة ما هي إلا أسماء لمسمّى واحد ، وهي تلك السّلسلة الجبلية التي تمتدّ في وسط نجد من الشمال إلى الجنوب على شكل قوسٍ ظهره إلى الشرق ، وتبدأ من نفود الثُّويرات شرقي القصيم شمالاً حتى تندفن في رمال الربع الخالي جنوباً . وفي القرون المتأخرة أصبح اسم العارض يُطلق على جزء من تلك السلسلة ، وهو الجزء الواقع بين منطقتي الشَّعيب في الشمال والخَرج في الجنوب . ويشمل أغلب هذا الجزء وادي حنيفة بروافده وبلدانه ، ويُعرف سكّانه بأهل العارض . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس ، 1 : 17–18 .

(3) في الأصل الإنكليزي : Wattar ، والصواب كما أثبتنا أعلاه . وهو يُعرف اليوم بوادي صُلْبوخ . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس ، 2 : 436–437 .

أمضينا حتى الآن سبع ساعات باجتياز هذا الوادي . وبعد حوالي ثلاث ساعات بلغنا بقعة صغيرة زاهية يجري بها جدول صغير ، فكان أول ماء جار نصادفه في الجزيرة العربية حتى الآن . وقرب الجدول بقعة مزروعة صغيرة ، بالإضافة إلى بعض أشجار النخيل وحصن صغير . كانت تلك أول أشجار نخيل وأول مزرعة وأول بناء نصادفه منذ أن غادرنا الكويت . كانت تبدو أعلى قُنَن السلسلة على بُعد ما يقارب الخمس ساعات من الجانب الشرقي لهذا الوادي ، بيد أنني أشك أن يكون ارتفاع هذه القُنَن أعلى من 1000 قدم ، هذا رغم أنها تلوح في الأفق سامقة شديدة التحدّر . وفي هذه النقطة أيضاً يبدو أن فيض مياه السيل يتشعّب ، وأن معظم الذي إلى جهة الغرب منه ينساب إلى سَدُوس . وكذلك بالمثل تبدأ قسمات الوادي بالتغيّر ، فجوانبه أصبحت أقل انبتاراً وبدأت تظهر بهذا الفصل البهيج بعض مسحات خفيفة من كلأ أخضر على بطاحها القوراء .

- 58 -

توقفنا عشية هذا اليوم في سَدُوس[1] ، المؤلفة من مجموعة من القرايا المرتبة اللطيفة ، التي تتناثر على أديم الوادي حول حصن صغير . وثمّة العديد من رياض النخيل المنفصلة ورقاع مسيّجة للزراعة تزهي بما حولها . ومن أرباض الحصن يبلغ النظر إلى المحمل بالأسفل ، وهكذا متجاوزاً إلى سلسلة جبل طويق الأعلى من سواها . وإنني عندما استخدم عبارة «الأعلى» هنا فهي على سبيل المقارنة ، وذلك لأن سلاسل نجد ليست بذاك الارتفاع الكبير . وكذلك ليس في مظهرها العام ما يلفت الانتباه . وهي ليست بشديدة الوعورة ولا بالجرداء ، وليست كذلك بالمُمرعة النضرة ، لكنها وادعة غير مُقفرة ، تشبه في ذلك منطقة التّلاع الإنكليزية لدينا إذا نُزعت عنها خضرتها .

---

(1) سَدُوس من أقدم قرى اليَمامة ، وكانت تسمّى القُرَيّة . قال الهمداني : قرية بني سَدوس من ذُهل بن ثعلبة ، وهي قرية جيدة وفيها قصر سُليمان بن داود عليه السّلام ، مبني بصخر منحوت عجيب خراب ، وبقيت القصبة . راجع : صفة جزيرة العرب للحسن ابن أحمد الهمداني ، ص 285 . وانظر : تاريخ نجد لمحمود شكري الآلوسي ، 26 ؛ مدينة الرياض لحَمَد الجاسر ، 11- 12 .

بالقرب من سَدُوس ركام يتألف من حطام كان فيما مضى من الأيام أبنية ذات شأن ، وبين هذا الحطام ينتصب عمود أنيق من الحجر المنحوت[1] ، ذُروته مبتورة لكن جذعه ما زال قائماً بارتفاع ما يقارب 20 قدماً . والمداميك الحجرية التي تؤلّف الجذع ذات مقطع دائري ، وكل مدماك منها يتناسب مع حجم العمود الذي يبلغ قطره قرابة ثلاثة أقدام . وكل من الوَطيدة والقَوْصَرَة[2] المربعة معمول أيضاً من الحجر المقصوب ومتناسب جيداً من حيث الارتفاع والقُطر .

يقوم القرويون بنبش الحجارة والتربة تحت الحطام المحيط بالعمود ، وكذلك تحت قاعدة العمود نفسه ، إلى درجة أن أسفله صار في يومنا الحاضر منقوباً إلى أبعد حد ، وربما أدّى نزع المزيد من حجارة قاعدته إلى انهياره بالكامل . ولم نجد لدى السكان أية معلومات عن تاريخه ، ولا حتى تمكن الأمير عندما سألته لاحقاً من إعطائي أية فوائد حول أصله . وهو لا يبدو قديماً جداً ، والملاط المستخدم في بعض مواضعه هو من الطين العادي ، ومع ذلك فالكل يجمعون على أنه يعود إلى زمن سابق لعهد النبي محمّد[3] ، ومن المؤكد قطعاً أنه ما من أحد اليوم في نجد بوسعه أن يصمّم أو ينفّذ تشكيلاً معمارياً بهذه الرّشاقة .

ثمّة صليبان منقوشان على جذع العمود . فهل يكونا من بقايا مذاهب مسيحية هاجرت إلى الجزيرة العربية في عصور المسيحية الباكرة ؟ كائناً ما كان الأمر ، فإن وجود شعار المسيحية في قلب قفار نجد يُعدّ في رأيي أكثر غرابة من وجود عمود ذي نسب فنيّة سليمة بين أبنية نجد . هذا ولقد قمتُ بإضافة رسم للعمود إلى تقريري الحاضر[4] ، قام برسمه المستر دوز بُعيد زيارتنا له .

---

(1) كان في خرائب القصر المنسوب إلى النبي سليمان بسَدُوس حتى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة بناء شاخص كالمنارة فيه كتابات منحوتة بالصخر ، فلما رأى أهل القرية السيّاح يقصدونه لرؤيته هدموه نفوراً من الأجانب . تاريخ نجد للآلوسي ، 26 ؛ مدينة الرياض للجاسر ، 11–12 . أما ما ظنّه پيلي صلباناً فهو من حروف المُسند الحِميَري !

(2) الوطيدة هي الجزء المربّع الأدنى من قاعدة العمود ، والقوصرة مثلّث في أعلى واجهته .

(3) صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، وسلّم تسليماً كثيراً .

(4) انظر الملحق رقم 14 بآخر الكتاب .

– 60 –

إن دُور سَدُوس والأسوار المحيطة بها مرتّبة وتامة ، تدلّ على عدم وقوع اعتداءات أو أعمال عنف على البلدة . قمنا بنصب خيمتنا بالقرب من الحصن الرئيسي ، غير بعيد عن حافة مجرى سيل جاف يقطع الوادي . تجمهر الناس حولنا بنوع من الانذهال يخالطه الفضول والتبلّد . وهم وديعون ولطفاء ، لكنهم يبدون شديدي الفقر ، وعليهم هيئة زريّة رثّة يتوقع المرء رؤيتها في قرية تزوال الحرف اليدوية أكثر مما يتوقعها في قرية زراعية أو رعوية . أتانا الأهلون ببعض البيض ويزوج من الطيور كهدية ، لكنني لم أرغب بحرمانهم من الطيور ، ذلك لأن زريبة الدّجاج لديهم تبدو هزيلة بما فيها . وكانت هناك بضع بقرات عجاف تسرح حول الأسوار ، تؤلف كل ما لدى البلدة من مواشٍ .

ومع ذلك فسَدُوس تُعدّ في نجد موقعاً متميّزاً أثيراً ، وحتى في ساحل البحر سمعتُ عن بهاء رياض نخيلها التي تضفي الرّونق على أرجاء الوادي ، وعن الخضرة اليانعة لمزروعاتها ، وعن الوفرة المبهجة لمياهها الرّقراقة على مدار العام . وفي الواقع يبدو أن السكان هم من يوفّرون الفائدة من هذه المياه ، إذ أننا كنا نسمع صرير نواعير المياه التي تدور وتدور حتى الليل . وبوجه الإجمال يمكن وصف سَدُوس كواحة وسط الوادي .

– 61 –

4 آذار (مارس) : ما كدنا ننطلق في مسيرتنا هذا الصباح حتى شرعنا في ارتقاء مرتفعات العارض عبر ممرّ ضيق لكنه غير عسير ، فأفضينا إلى تلعة ترتفع حوالي 300 قدم عن سَدُوس . وهذه التّلعة مغطاة بشظايا الحجر الرّملي ، كما كانت تظهر بها مسحة ضئيلة من العشب الجبلي الهزيل . لكنني لاحظتُ أنه ما من قطعان ترعى هنا ، فبيّن لي مرافقيّ بأن كلأ هضاب العارض يُترك عادة لفصل الصيف الحار وللخريف . ويبدو أن القبائل تبدأ بالتجوال نحو الأراضي الواطئة إلى قرب نهاية الخريف ، ثم تمضي الشتاء ومطلع الربيع في منتجعاتها الدافئة ، وبعد ذلك تبدأ رحلة العودة بحيث تبلغ نجداً قبل حلول فصل الصيف .

عندما ننظر من هذه التلعة إلى خلفيتنا اليمنى نستطيع رؤية وادي سَدُوس ينحدر نزولاً باتجاه سهل المحمل ، ثم يجتاز النظر المحمل ، وهو اتساع يبلغ حوالي 15 أو 20 ميلاً ، إلى أن يصل إلى سفوح هضاب طُويق التي يمكن تمييزها من هنا بوضوح . وتقع قرى ناحية المحمل على سفحها الأقصى ، تحت طويق . وعلى ميمنتنا يقع جُرُف عالٍ واضح من سلسلة طويق ، أشار إليه دليلنا بأنه المدخل الشمالي لوادي حنيفة ، وتمكنّا من رؤية السّلاسل العليا من جبل طويق نفسه تمتد من تلك النقطة بعيداً باتجاه الخَرج .

وما بين هذه السلاسل والموقع الذي نقف فيه تُرى أمامنا على اليمين هضاب أخفض تتدرّج نزولاً لتؤلّف الجروف اليمنى لوادي حنيفة بالنسبة للداخل إليه من حدّه الأقصى الشمالي . وأمامنا إلى اليسار تقع هضاب العارض . وأشار الدليل إلى أن الرّياض تقع بالنسبة إلى النقطة التي نقف عليها باتجاه الجنوب الشرقي بشرق ، ووراءها إلى الجنوب تقع السَّلميّة[1] ، ثم سيح اليَمامة[2] والخَرج ، وأخيراً الحوطة[3] التي تقارب اتجاه الجنوب الأصلي . أما السِّيح فليس اسماً لبلدة ما[4] ، وإنما هو مصطلح يُطلق على غُدران المياه العذبة المنتشرة ضمن نطاق ناحية الخَرج ، حيث تُرسل غالبية نجائب خيل الأمير لترعى . وأدنى هذه الغُدران يبعد مسيرة يوم كامل عن الرّياض ، أما حصن الحوطة وناحيتها فيبعدان مسيرة ثلاثة أيام عن النقطة المذكورة .

---

(1) في الأصل الإنكليزي : Sulaimeeyah ، وتقع السَّلميَّة في منطقة الخَرج بالقرب من مفيض وادي حَنيفة ، وتبعد عن الرّياض حوالي 80 كيلومتراً إلى الجنوب . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس (السّلميّة) .

(2) سيح اليَمامة كان يُعرف قديماً بسيح جَوْ ، وهو قاعدة منطقة الخَرج الآن . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس (السّيح) .

(3) هي حَوطَة بني تميم التي تقع عند مُلتقى وادي بريك بوادي نَعَام ، في منطقة الفَرع ، وهما ينحدران من جبل طُويق شرقاً باتجاه الخَرج . وتبعد الحوطة عن الخَرج حوالي 70 كيلومتراً إلى الجنوب الغربي . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس (الخَرج ، حَوطة بني تميم) .

(4) السِّيح أيضاً مُصطلح طبوغرافي شائع في العربية ، يُطلق على الأرض المغمورة بماء .

اجتزنا أعلى نقطة في التّلعة بُعيد تسلقنا إيّاها مباشرة . وإلى ميسرتنا كانت مسارب طويلة من الأراضي المتموّجة ، وفي الأفق رواب قوراء تسدّ النظر وتؤلّف بوضوح الهضاب الشرقية القصوى لسلسلة العارض . وبعد ذلك قادنا السّرب الذي نسير فيه نزولاً إلى منحدرٍ يسير يؤلّف رافداً لوادي حنيفة ، فولجناه تماماً عند الموضع الذي تتناثر في مجراه أطلال بلدة العُيَيْنَة . وهذه البلدة التي تمتد خرائبها على طول كبير كانت عاصمة آل بني عامر[1] ، ويقال فوق ذلك إنها مَسْقَط رأس مؤسس الدّعوة السّلفية[2] .

وتنتشر الأطلال ضمن مجموعات مستقلّة لتشغل كامل قعر الوادي على كلا الجانبين لمجرى سيل مكسو بالحصباء . لكن هذا الوادي ليس له من العرض سوى بضعة مئات من الياردات . والدُّور رغم أنها الآن مهجورة ما زالت في أغلب أقسامها قائمة ، وتوجد بعض أشجار jow[3] أو غيرها من الأشجار لتضفي على المشهد طابعاً نضراً أخّاذاً ، ويكاد الناظر إلى المكان من علٍ يظن للوهلة الأولى أنه ما زال مأهولاً .

ما من شك أن جهوداً مُضنيةً قد بُذلت في الماضي للسيطرة على فيضانات السّيول ، التي كانت إثر انهمار المطر الغزير تمرّ بأسفل الوادي بعمق عدّة أقدام مخترقة قلب البلدة من أقصاها إلى أقصاها . وما زالت تُرى بعض الجدران

(1) كذا في الأصل ، وهو غلط ، فبلدة العُيَيْنَة أنشأها في منتصف القرن التاسع للهجرة كما هو معروف حسن بن طوق ، جدّ آل مُعَمَّر (وليس بني عامر) الذين ينتسبون إلى العناقر من بني تميم . ثم توسّعت العُيَيْنَة فيما بعد حتى أصبحت أكبر بلدة في نجد ببداية القرن الثاني عشر للهجرة ، وأصبح رئيسها عبد الله بن مُعَمَّر أبرز شيوخ بلدان نجد . راجع : عنوان المجد في تاريخ نَجد لابن بشر ، 2 : 189 ، 236 ؛ تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نَجد لابن عيسى ، 35 ، 69 ، 98 .

(2) ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العُيَيْنَة عام 1115 هـ = 1668 م . وكان أبوه عبد الوهاب (توفي 1153 هـ) وقبله جدّه الشيخ سليمان بن علي بن مشرف (توفي 1079 هـ) قد شغلا قضاء البلدة . راجع : عنوان المجد في تاريخ نَجد لابن بشر ، 2 : 210 ، 226 ؛ علماء نجد خلال ستة قرون لعبد الرّحمن البسّام ، 26-27 .

(3) كذا في الأصل ، والتسمية غريبة لعلّها مصحّفة أو صدرت عن غلط من المؤلف .

الدّاعمة لمجرى السّيل ، وهي مشيّدة بالحجر الكلسي المنحوت لكن دون استخدام الملاط ، وحالها اليوم لا بأس بها . وتلاحظ هذه الجدران في بعض المواضع المتقطعة على مدى ما يقارب الميلين . وذُرى هذه الجدران الدّاعمة مشطوفة على شكل أرصفة ، وعلى طول هذه الأرصفة كانت تقوم دُور البلدة القديمة .

أما القلعة القديمة أو الحصن حيث يقيم الشيخ ، فتقوم على أحد الأحواز الشرقية للوادي ، مُحتجزة ما بين هضاب العارض ومجرى السّيل . لم نجد بين هذه الأطلال سوى فلاّحين أو ثلاثة ، وقد اتّخذوا مساكن لهم بالجزء الأدنى من البلدة ، حيث كانوا يزرعون مسكبة أو اثنتين من المزارع القديمة بمحصول واعد من الذرة ، وكانوا يسقونه بزوج من الدّواليب الفارسية (النّواعير أو السّواني) .

كان هؤلاء الفلاحون لطفاء ، أنخنا رواحلنا ضمن سياجهم وتقيّلنا لديهم ساعة أو ينوف لنرتاح من وَعثاء السفر ، وأطفأنا ظمأنا بشيء من حليب النُّوق . سألنا هؤلاء الفلاحون من أين أتينا وإلى أين نمضي ، فلمّا أخبرناهم أننا من الإنكليز وأننا في طريقنا لمقابلة الأمير فيصل بدوا عاجزين عن إدراك الجدوى فيما نفعله .

– 64 –

إن مجرى وادي حنيفة من الجُرُف العالي الموجود عند مدخلة باتجاه النقطة التي نفذنا منها إليه هو مجرى دائري ، من الغرب إلى الشرق . وبقي طريقنا منطبقاً على طول مجرى السيل طوال البقية الباقية من مسيرتنا لهذا اليوم ، ومتعرّجاً إلى جهة الشرق بجنوب ، ثم إلى الجنوب ، ثم مجدداً إلى الشرق . . وإلى الشرق بجنوب ، وإلى الجنوب الشرقي بشرق ، إلى أن غابت الشمس ، فوصلنا نقطة يتشعّب عندها الوادي ، وتستمرّ الشعبة الكبرى منها جنوباً ، بينما تنحرف الشّعبة الصغرى ، وهي مجرد رافد ، شرقاً بحدّة .

وفي الوادي الأصغر مسجد ومساحة مزروعة صغيرة وجدول ماء تضفي على المكان شيئاً من الحيوية ، وفي هذا المكان بالذات توقفنا للمبيت الليلة .

إن وادي حنيفة ، بقدر ما استطعتُ تتبّعه ، يحافظ كما يبدو على قسمات منتظمة ، فيبلغ عرضه بضعة مئات من الياردات ، وتحفّ به من جانبيه كليهما بطانتا المنحدر ولهما قمّة مسطّحة ، متناوبتين مع منحدرات واطئة . ولا تتجاوز الذُّرى المحاذية للوادي ارتفاع 100–200 قدم . وثمّة العديد من الرّوافد التي تنضمّ إلى هذا الوادي وأكبرها هي تلك الممتدة من جبل طُويق إلى جهة الغرب ، وجميعها تبدو عليها وفرة المياه . ويقال في الحقيقة إنه ما بعد هطول أمطار غزيرة على الهضاب تفيض السّيول بقوة وبعمق قد يصل إلى سبعة أو ثمانية أقدام .

– 65 –

ما بين العُيَيْنَة والنقطة التي نزلنا بها مررنا بالعديد من القرى الصغيرة ، تتوضّع بتناسق جميل ما بين مجموعات الأشجار ، وتملأ رقعة الوادي بأسرها . وجميع هذه القرايا المتوسطة مأهولة ، وفيها جميعاً يتم حصر مجرى السيل ببراعة ضمن جدران داعمة ، كتلك التي في العُيَيْنَة . قابلنا كذلك بعض أقارب الأمير المسافرين شمالاً ، وكذلك كان معهم أحد أبناء سُدَير قافلاً إلى موطنه الأصلي على ناقته ومعه امرأته ، وكانوا جميعاً لطفاء دمثين .

– 66 –

أما بخصوص هضاب جبل طُويق فربما وقع بعض الالتباس[1] ، فيبدو أنها بعينها هي تلك السلاسل العالية البعيدة التي شاهدناها هذا الصباح ، ممتدّة من الخَرج جنوباً وتلتوي عند الحوطة باتجاه الجنوب ، ومن ثمّ شمالاً إلى الزُّلفي ، ويبلغ طولها مسيرة عشرة أيام . وضمن هذا التحديد تقتصر هضاب طويق على السّلاسل العليا الغربية ، بينما تشتمل هضاب العارض على جميع السلاسل المنخفضة والرُّعون الناتئة باتجاه وادي حنيفة والرّياض .

---

(1) كنت ذكرت في الفقرة 56 حول هضاب جبل طُويق أنها سلسلة جبلية تمتدّ في وسط نجد من الشمال إلى الجنوب على شكل قوس ظهره إلى الشرق ، وتبدأ من نفود الثويرات شرقي القصيم شمالاً حتى تندفن في رمال الرّبع الخالي جنوباً . وذكرتُ أن طُويقاً والعَارض واليَمامة ما هي إلا أسماء لمسمّى واحد .

- 67 -

في بعض الأحيان ، من جهة أخرى ، تندرج تحت مفهوم جبل طُويق جميع مناطق الهضاب الواقعة إلى الغرب والجنوب من وادي حنيفة ، وبذلك تشمل جميع السلاسل العليا المعرّفة سابقاً ، وكذلك السلاسل الدّنيا نزولاً حتى لحف المنحدر والتي تشرف مباشرة على وادي حنيفة ، وبهذا المفهوم بالذات تصبح التخوم الشرقية لهضاب جبل طويق محدّدة بوادي حنيفة على كامل طوله ، ثم شمال هذا الوادي ووادي المحمل الذي يشبه تجويفاً ، ثم من جهة الشمال يمتد الحدّ من المحمل على طول ناحية سُدَير وصولاً إلى الزُّلفي .

- 68 -

وختاماً ، فجميع منطقة الهضاب في نجد اعتباراً من الحوطة ومروراً ما حول الخرج والرّياض والشّعيب ثم صعوداً إلى الزُّلفي والقصيم والوشم تُعرف باسم طُويق[1] ، فعلى هذا الاعتبار تقتصر هضاب العارض على كونها مجرد جزء منه ، ويصبح اسم طُويق مرادفاً لاسم نجد أو لمرتفعات أواسط الجزيرة العربية[2] .

- 69 -

في صبيحة 5 آذار (مارس) غادرنا مخيّمنا في الوادي المتفرّع من وادي حنيفة ، وسرعان ما صعدنا ارتفاع 200 أو 300 قدم من هضبة العارض ، ثم انعطفنا جنوباً وتقدمنا خلال حُزون مكشوفة متموّجة مباشرة باتجاه الرّياض .

---

(1) ليست القصيم ولا الوَشم أجزاء من طُويق ، فالقَصيم منطقة منبسطة تشكّل حوض وادي الرُّمّة ، وتقع إلى الشمال الغربي من طرف طُويق الشمالي . أما الوشم فيقع إلى الغرب من طُويق الشمالي ، يفصل بينهما رمل الرَّغَام أو عُريق البلدان .

(2) هذا غلط ، فمدلول نجد أوسع بكثير من طُويق ، فنجد تشمل ديرتي «عالية نجد» ، وهي المنطقة المرتفعة والمستوية الواقعة ما بين سفوح جبال الحجاز في الغرب وجبل طُويق في الشرق . و«سافلة نجد» ، وهي جبل طُويق أو اليَمامة وما يحفّ به من أودية وسهول ورمال من الجهتين الشرقية والغربية . أما جبل طُويق فيُطلق فقط على السّلسلة الجبلية الطويلة التي تمثّل أعظم وأطول مرتفعات سافلة نجد . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس ، 1 : 17-24 ؛ عالية نجد لابن جنيدل ، 1 : 3-16 .

تقع هذه الحزون والتلال إلى ميسرتنا ، أي إلى الشرق ، ثم من الشرق انعطافاً حول مقدمتنا إلى الجنوب الغربي والغرب ، تمتدّ بعيداً نحو المدى البعيد ، بينما يضيع الأفق بين تحدّبات هضاب العارض وطُويق . والانحدار العام لهذه الدّيرة يميل بيسر نحو الجنوب . بقينا مسايرين لوادي حنيفة مباشرة على ميمنتنا على بعد وسطي يبلغ ميلاً أو اثنين . كان يبدو كوهدة أكثر منه وادياً ، وكنا نرى بطانة الوهدة وبعض روافدها التي تبدو كصُدوع داكنة على متن ظهر الهضبة .

بعد هنيهات من خروجنا من فرع الوادي مررنا بقرية صغيرة على الجهة اليمنى ، ثم بعد ساعة أو أكثر بلغنا أطلال وأسوار العاصمة القديمة الدّرعيّة[1] . مرّ طريقنا عبر التحصينات الخارجية المهجورة ، لكن المدينة نفسها تقع على مسافة قريبة إلى جهة الميمنة . وهي تقبع بشكل أخّاذ في غور من الأرض يفضي نزولاً إلى وادي حنيفة .

تبدو على المكان علائم الوحشة والخراب ، وتتضمّن أطلاله الممتدّة على نطاق واسع العديد من الدّور ذات الطوابق العليا . ويبدو أنه عندما استولت الحكومة السّعودية على الرّياض من عشيرة بني دوّاس وأسّست فيها العاصمة الجديدة ، قامت بتدمير البلدات القديمة بوادي حنيفة ومن بينها الدّرعية ، وبالتالي أرغمت سكان هذه البلدات إلى الهجرة إلى العاصمة الجديدة . ثم عندما هاجم الأتراك السّعوديين ، قام القادة السّعوديون بإخلاء الرّياض إلى الدرعيّة ، لإن الأرض والتحصينات حول قصر هذه الأخيرة قابلة للدّفاع بشكل أفضل[2] .

---

(1) المعروف أن الدّرعيّة هي الموطن الأصلي لآل سعود ، فلمّا عاضدوا دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الإصلاحيّة ، وأسّسوا دولتهم الأولى ، اتّخذوا الدّرعيّة عاصمة لتلك الدّولة ، فأضحت أكبر مدن نجد حتى سقوط الدّولة السّعودية الأولى وخراب عاصمتها الدّرعية على يد القوّات المصرية العثمانية عام 1233 هـ = 1818 م .

(2) حازت الدّولة السّعودية الأولى علي الرّياض من دَهّام بن دَوّاس عام 1187 هـ = 1773 م ، لكنها لم تتّخذها عاصمة ولم تدمّر بلدان وادي حنيفة ، بل بقيت العاصمة الدّرعيّة حتى سقوطها وخرابها على يد إبراهيم باشا عام 1818 م . لكن أول من اتّخذ الرّياض عاصمة له هو الإمام تركي بن عبد الله مؤسّس الدّولة السّعودية الثانية عام 1240 هـ =1824 م .

- 71 -

قبل أن نبلغ مشارف الرّياض بحوالـي ساعة ، مررنـا بـدارة ريفيـة وحديقـة يملكها الأمير ، وبعدها مباشـرة أثنـاء نزولنـا منحـدراً يسـيراً أطلّـت علينـا البلـدة[1] أمامنا إلى اليمين قليلاً . وهي مشيّدة على نجـوة مـن الأرض غـير بعيـد عـن وادي حنيفة ، ولاحت لنا عن بعد مكاناً واسعاً وأنيق المظهر ، لكن تبيّن أنها ليست بذاك الحد من البهاء ، فهي مبنية بالآجر المجفف بالشمس ، وأرباضها مفعمة بالحيوية بمـا فيها من رياض النّخيـل . يقـال إن اسـم «الرّيـاض» نفسه يعنـي الحدائـق والجنـان الخضـراء ، بصيغـة الجمـع . وثمّـة عـدة مـزارع مسيّجة في الجـوار ، حيـث تُـزرع الحبوب وتُروى اصطناعياً من آبار يبلغ عمقها 47 قدماً . بشـكل عـام تبـدو البلـدة وأرباضها بحالة عمرانية لائقة ، مما يدلّ على وجود عناية وجهود دائمة .

- 72 -

تلقّاني على مشارف البلدة مبعوث من قبـل الأمـير بكلمـات ترحيـب كـانت مقتضبة ولكن كافية ، واقتادني إلى دارة ريفيـة ذات حديقـة منعزلـة عمـا سـواها ، معدّة لاسـتقبال الأتـراك وغير المسـلمين . وبعـد برهـة قصـيرة زارنـا محبـوب[2] ، حاجب الأمير الخاص ، وبيّن لنـا أنـه كـان مـن الأفضـل إبقاؤنـا بمعـزل عـن البلـدة وذلك لأننا ندخّن المنكرات ، وربما لاقينا من جرّاء ذلك المتاعب .

بعد ذلك قمتُ بتقديم الوفـد المرافـق لي إلـى الحـاجب ، ثـم انسـحب لتوّه وسأل فيما لو كان الشخص الذي يعتمر القبّعة البحرية واحداً مـن أولئك القباطنـة الذين اعتادوا احتجاز المراكب في الخليـج العربـي ! ثـم عـبّر عـن مواقـف حكومتـه المستاءة كثيراً من سلفي في منصب المُقيـم (المندوب) البريطاني في بوشهر ، وأعـرب عن أنهم عازمون في حال بقائه في منطقة الخليج على الاقتصاص منه للأضرار التي تسبّب بها ضباطنا البحريون .

---

(1) أضفتُ إلى كتابنا هذا عدّة صور فوتوغرافية تمثّل الرياض قبل حوالي قرن . ولقد درجتُ في سلسلتنا هذه «روّاد المشرق العربي» على العناية بالصور والخرائط النّادرة .

(2) تقدّم القول عليه في الفقرة 50 أعلاه ، وسيرد ذكره في الفقرة 111 أدناه .

في المساء عاود الحاجب زيارته لنا مجدداً ، وأكّد على الموضوع نفسه بحضور الموظفين المرافقين لي . وفي غضون ذلك كنا قد نزعنا القبعة البحرية البغيضة ، وكان الحاجب قد قام بعرض الموقف على الأمير متوسطاً ما بيننا وبينه . بيّنت للحاجب أن الضابط الشاب المرافق لي ليس واحداً من أولئك الضباط البحريين الذي يغتصبون المراكب ويحتجزون العبيد ، إنما كان ببساطة ضابطاً معيناً ضمن طاقم مرؤسيّ ، وأنه لا بد فعلاً من وجود ملاّح متمرّس عند القيام باجتياز هذه المحيطات الصحراوية ، تماماً كما هو الحال عند اجتياز محيطات الماء[1] .

- 73 -

بعد ذلك أطلعنا الحاجب على الهدايا التي أنوي تقديمها للأمير ولابنه ، وكذلك هدية أو اثنتين أقل شأناً كنت أنوي تقديمهما له شخصياً ، بيد أنه كغيره من الناس بدا في غاية المهابة من شخصية الأمير ، وتمنّع عن قبول نصيبه من الهدايا ، وحتى عن الظهور بأنه قد شاهد هذه الهدايا أصلاً . على حين غرّة قفز الحاجب قائماً وتعجل بالذهاب ، قائلاً بأن هناك عيوناً تراقبه . وعندما سألتُه عن الموعد المناسب للأمير كيما أقوم بزيارته ألفيتُه عاجزاً عن الإجابة ، لكنه قال إن الإمام بما يُعرف عنه من شدّة التّقى نذر لله تعالى صوم يومين إضافيين بعد انتهاء شهر رمضان ، وأنه في الغد سيصوم أحد هذين اليومين ، لذلك فمن المحتمل أن تُرجأ الزيارة إلى موعد لاحق .

- 74 -

صبيحة يوم 6 آذار (مارس) كنت متأهّباً لاستقبال رسول من سموّ الأمير ، لكن أحداً لم يظهر ، وبدا التابعون المحيطون بالمنزل حذرين ومتحفظين ، ولذلك بدا لي أن اللقاء سيكون بارداً . لكن قرابة العصر أرسل إلي الإمام يقول بأنه يسرّه استقبالي في مصلاّه الخاص في القصر . ولذا انطلقتُ إليه على الفور ، وبرفقتي الموظفون التابعون لي .

---

(1) هذا الأمر يصحّ ، بالاستعانة آنذاك بالقياسات الفلكية ، انظر الفقرة 23 أعلاه .

لم يكن القصر بعيداً جداً ، وهو يقع في مركز البلدة[1] ، وكانت هناك رحبة مفتوحة فسيحة في مقدّمته ، وتقوم على البوابة الخارجية بضعة مدافع عتيقة تسدّ المعبر . ليس في هذا البناء أية مظاهر معمارية باذخة ، وأما قاعة الاستقبال فكانت غرفة طويلة واطئة ، محمولة على عمدان خشبية منجورة بشكل خشن ، ويُفضى إليها بواسطة درج عتيق متآكل .

رأيتُ الإمام جالساً في صدر المجلس على سجادة صغيرة بديعة ، متكئاً بظهره إلى وسادة سميكة . كان أصغر أبنائه يجلس بالقرب منه[2] ، وعلى مسافة أبعد وإلى الأسفل جلس حاجبة الخاص محبوب . عندما تقدّمت إليه نهض الإمام ولكن بصعوبة ، وصافحني وربّت على كامل كفّي بتُؤدة ، ثم طلب إليّ الجلوس بقربة على السجادة . كان كفيف البصر تماماً ، غير أن محيّاه كان أخّاذاً تام التقاطيع وينمّ عن الهدوء ورباطة الجأش والصّرامة والحلم والوقار .

كان يبدو فوق السبعين من عمره ، ويرتدي ثياباً فخمة تنمّ عن ذوق رفيع ، ويعتمر ما فوق الكفيّة العربية بعمامة مكوّرة من قماش الكشمير الأخضر . صوته رخيم وكلماته رزينة ومتّزنة . إنه بالإجمال رجل وقور ودمث ، لكنك تلمح في قسماته طيف شدّة وبأس بالغين عندما يلزم الأمر .

---

(1) هذا القصر الذي أقام فيه الإمام فيصل آنذاك لا وجود له اليوم ، ويُفهم من كلام الشيخ حَمَد الجاسر أن أصله قصر لدهام بن دَوّاس . راجع : مدينة الرّياض عبر أطوار التاريخ للجاسر ، ص 108 . وكان الرحالة البريطاني وليَم غيفورد پالغريف في عام 1279 هـ = 1862 م قد وصف القصر والسّاحة التي أمامه وصفاً مفصّلاً . راجع :

Palgrave, W.G.: *The Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia.* Vol. I, pp. 392-393.

ويظهر من وصف پالغريف أن قصر الإمام فيصل كان يشغل المكان ذاته الذي يشغله قصر الحكم الآن . ومن الهام الإشارة إلى أن قصر الإمام فيصل هو غير قصر المَصْمَك الشهير الذي بناه الأمير عبد الله ابن الإمام فيصل قريباً من تلك الفترة .

(2) كان للإمام فيصل بن تركي أربعة أبناء : عبد الله وسعود ومحمد وعبد الرّحمن ، والمقصود حتماً هو أصغرهم الأمير عبد الرّحمن (والد الملك عبد العزيز) ، الذي كان في حوالي الرابعة عشرة من عمره آنذاك . وكان پالغريف (قبل 3 سنوات من زيارة پيلي) قدّر عمره بين 10–12 سنة . راجع :

Palgrave, W.G.: *The Personal Narrative...*, Vol. II, p. 75.

بعد تبادل بعض عبارات المجاملة قمتُ بتقديم معاونيّ إلى الأمير ، كما وأعربتُ له عن عميق سروري للتعرف عليه شخصياً . فأجاب على الأثر (ولكن ليس بتلك الكلمات المباشرة التي استخدمها حاجبه في الأمسية الفائتة) بأنني ربما كنت على علم أن الرّياض مكان غير ملائم لمجيء الأوربيين إليه ، وأن أحداً غيري لم يُسمح له البتّة بدخولها في السابق[1] ، ولكنه مع ذلك كان على ثقة أن كل شيء سينتهي إلى الخير .

فأكّدتُ له أنني كنت قمتُ بعدّة زيارات مماثلة لزعماء ورؤساء عشائريين في أواسط آسيا ، وأن لي انطباعات حسنة عنهم جميعاً ، لذا فلم يكن لدي أدنى شك في أن لقائي به سيكون أيضاً مدعاة لكل الرّضا ، وبأن كل العثرات التي قد تكدّر صفوه بخصوص ما جرى بيننا في الماضي سيتم تجاوزها . ذلك بأن الحكومة البريطانية ليست تبتغي بخصوص عشائر الجزيرة العربية سوى أن تراها تنعم بالأمن والازدهار في وطنها الأم ، تحت رعاية حكامها من أبناء البلاد .

ردّ الأمير بأنه قد أقام بعض العلاقات الرسمية مع عدّة دول أجنبية ، ولكن مع ذلك كان له وكلاء في جميع الأصقاع ، وكانوا يزوّدونه بآخر الأنباء حول كل ما يهم من أمور . وكذلك فقد كان الأمير يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع ، ويعتبر الجزيرة العربية بأسرها مملكة له . فقد ذكر : «هذه البلاد العربية التي وهبنا الله شِيختها ، من الكويت مروراً بالقَطيف ورأس الخيمة وعُمان ورأس الحدّ وما والاها . . .» . وأشار إلى أنه في بعض السنوات السابقة استولى التُّرك على بعض أراضيه ، لكنه لا يخشى بأسهم .

---

(1) كنا ذكرنا في حاشيتنا على الفقرة 3 أعلاه أن پيلي لم يكن أول أوروبي يزور الرّياض ، فقد سبقه الرّحالة البريطاني وليَم غيفورد پالغريف ، الذي زار الجزيرة العربية وسواحلها الشرقية (منطقة الخليج كقطر والبحرين والشارقة وعُمان) بمهمّة سريّة لإمبراطور فرنسا نابوليون الثالث ، بين عامي 1862–1863 م . لكنه جال متخفّياً بصفة تاجر سوري يتعاطى الطبّ (ميشيل السُّهيل) . ووصفُ مدينة الرّياض بالجزء الأول من كتابه (الطبعة الأولى بلندن 1865) ، ص 389–466 ، مع فصل آخر عن أوضاعها بمطلع الجزء الثاني ، ص 1–37 ، وفصل ثالث عن بلاط الحكم ص 88–126 . وعنوان كتابه :
The Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia.

في إحدى المرات سألني فيما إذا كان لدينا ميل لمساعدته في محاربة الأتراك أو العشائر الأخرى . فشرحتُ له أن السياسة الإنكليزية في الشرق تلتزم حدود المحافظة ، وفيما كنا دائماً سعداء بأن نرى جيراننا كأصدقاء وتجار في أراضينا لا نجد من اللائق بنا أن نتدخل للمشاركة في أي حرب .

قال إنه سمع من صديق قديم هو أحد باشوات مصر[1] ، أن حكومة الإنكليز حكومة جيّدة ومبدئية من حيث علاقاتها السياسية ، وأنها أقل مراوغة من حكومة فرنسا . لكنه أعلن بحدّة : «إننا نرفض ديانتكم !» . ثم تلا دعاءً صغيراً ليبرّئ ذمّته أمام الله بأنه أدّى واجبه في تحذيرنا من الإيغال في ضلالالتنا . غير أنه أردف : «هناك دوماً فارق ما بين حروب الدّين والسياسة . فيوم يتعلق الأمر بالدّين ليس لدينا لأعدائنا إلا السيف ، أما في قضايا السياسة فلكل حال لبوسها» .

بعد ذلك عاود الإمام ذكر الفرنسيين ، فقال إنّ سفينة حربية عائدة لهم توجهت إلى مَسْقَط وقدّمت الدّعم العسكري لسلطانها في حربه ضد السُّعوديين . فأكّدتُ للإمام أنه ليس لي أدنى علم بهذه القضية وأن رأيي الشخصي في الموضوع أن الإخبارية قد تكون خاطئة . فما كان من الإمام إلا أن شنّ بكلامه هجوماً لاذعاً بحدّة وسخط على سلطان مَسْقَط ، وسمّاه بالرجل الضعيف المحاط بضعاف الرّجال ، وبأنه كالغريق المتمسّك بقشّة . وأضاف : «مَسْقَط تابعة لنا ، أخذناها بحد السّيف ، والإمام السابق سيّد سعيد كان عاقلاً ، يتفهّم الأمور بالحسنى . أما سيّد ثويني فهو يختلف ، وينبغي إخضاعه بحد السّيف»[2] .

---

(1) لعلّه الخديوي عبّاس باشا ، الذي يُنسب إليه أمر تسهيل هروب الإمام فيصل ورفاقه من مصر عام 1259 هـ = 1843 م . وصلات الخديوي عبّاس بالإمام فيصل طويلة وكان له ولع تام بكرائم الخيل العربية التي كان أجودها بمرابط الإمام في الرياض . راجع كتاب : «رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية» (1878-1879 م) لليدي آن بلّنت . وراجع :
Winder, R. Bayley: *Saudi Arabia in the 19th. Century*, p. 142.

(2) السيّد سعيد بن سلطان البوسعيدي سلطان عُمان بين 1221-1272 هـ = 1806-1856 م ، وابنه السيّد ثويني نائبه في مَسْقَط ثم خليفته 1272-1283 هـ = 1856-1866 م . وفي عام 1261 هـ = 1845 جرّد فيصل إلى عُمان حملة بقيادة سعد بن مُطلق فوطّد النّفوذ السّعودي ، وعام 1270 هـ = 1853 م أرسل ابنه عبد الله إلى البُرَيمي ، فألزم حاكمي مسقط وصُحار بدفع الجزية . راجع : الدولة السعودية الثانية لعبد الفتّاح أبو عليّة ، 133 ، 144 .

عاد الإمام مراراً إلى ذكر الفرنسيين ، فقال إنه منذ بضعة أعوام تلقّى رسالة من سفينة فرنسية تعرض عليه المؤازرة في البرّ أو البحر إن لزمه ذلك ، فلم يجب على تلك الرسالة . لكن منذ عامين مضيا أتاه اتصال ثان من النوع ذاته مع طلب ردّ الجواب إلى القنصلية الفرنسية بدمشق . فقام بردّ الجواب على النحو المطلوب مع الشكر ، مبدياً أنه في الوقت الحاضر ليس بحاجة إلى أية معونة .

– 75 –

سألني الأمير فيما لو كانت لدي شؤون خاصة أرغب من أجلها برؤيته على انفراد . فأجبتُه بالنّفي وبأن غايتي الوحيدة التي أتوخّاها من خلال زيارتي له هي أن أتعرّف به شخصياً كزعيم ذائع الصيت ، وأنه بما أن كلينا يسعى للهدف ذاته وهو تدعيم أسس السلام في مناطق الخليج العربي ، فيتوجب علينا إذذاك توثيق صلاتنا الشخصية المبنية على أسس الصداقة المتبادلة . فالمعرفة الشخصية بين الرجال الصادقين هي لعمري مصدر ثقة ، وهي العائق في وجه أي طرف ثالث يضمر الشرّ والأذيّة ، ولم يكن لدي أدنى شك أن زيارتي الوديّة هذه ستؤدّي إلى توطيد أواصر الصداقة ما بيننا ، وتعود بالنتائج الطيبة على تقدّم وازدهار جميع الشعوب الواقعة في عهدة حكومتينا .

فعند ذلك أبدى الإمام ارتياحه ، واختتم اللقاء بقوله إن هذه اللقاء ما هو إلا مجرّد لقاء ترحيبي ، وأنه يرغب بأن أحضر إليه وحدي للاجتماع به على انفراد .

– 76 –

في صبيحة اليوم التالي بكّرتُ بزيارة الإمام بناءً على موعد مُسبق ، ولم أصطحب معي سوى ترجماني . كان الإمام لم ينته بعد من ارتداء ملابسه عندما وصلت ، وتلقّاني في بادئ الأمر الحاجب ، الذي كان يغلب على سيمائه في غياب سيّده مزيد التقلّب والفضول ، لكنه عند دخول سيّده يلتزم الصمت برسم التملّق ، أو تراه يتكلم بما يتوافق مع عبارات الإمام الدّينية . كان في غرفتي يدخّن

الشيروت[1] ، وطلب من الترجمان بعض البراندي . أما بحضـرة الإمـام فيتجنّب ذلك كله على وجه التزلّف ، ويُعلن أمام الملأ أنه مـن المُحال دوام الحكـم السَّلَفي إذا تعاطى النّاس الدّخان على هواهم .

بعد هنيهات فُتح باب بالقرب من السّجادة ، وظهر الإمام تسانده عبدتان . وعندما تخطى العتبة تلقّاه عبدان من الفتاتين ، وبقي كل منهما إلـى جانبـه إلـى أن أوصلاه إلى مجلسه . كان ترحيبه بي اليوم حاراً لأبعد الحـدود ، ومـن خـلال مـا رأيت ، لا يسعني إلا الافتراض أنه رجل بنّاء حرّ .

تجاذبنا أطراف الحديث في مختلف القضايا والشـؤون ، ومـن بينهـا منجزاتنـا التلغرافية الأخيرة[2] . فقال إنه يخشى أن نلاقي المشـقّات مـع الأعـراب . وأردف أنه في السابق سعى عباس باشا خديـوي مصـر لإقامـة اتصـالات بريديـة مـع نجد ، لكنه وجد أن الإزعاجات والأضـرار المتأتّيـة مـن العشـائر الرحّـل كثـيرة جـداً ، مما أجبره على التخلّي عن هذه المحاولة ، هذا رغماً عن أنه في البدايـة كـان يوقـع أشـد العقوبات بالأعراب المتعرّضين للبريد .

ثم تحدّث الإمام عن حكمنا للهند ، وعـن قُـرب عهـده بالقيـاس إلـى حكـم المسلمين لها . فأخبرته بأنه بالفعل لم يمض على وجودنا بالهند أكثر من مـدّة 300 عام ، لكن بفضل الله لاقينا بها نجاحاً وازدهاراً عظيمين . ثـم عـاد فسـأل إن كـان من الممكن أن نساعده في قتال أعدائه ، وتوسيع نطاق مملكته ، وفيما لـو كنـا علـى سبيل المثال ميّالين لعقد تحالف معه ضد تركيا ، أو لغزو بعض البلاد نحو الشرق ، أظنّه يعني بذلك إيران . ابتسمتُ وكرّرتُ قولي له إننا سنكون سعداء برؤية شـعبه يتّجرون في أراضينا ، ولكن ليس في نيّتنا مهاجمة الآخرين .

---

(1) الشيروت cheroot ضرب من السيجار .

(2) كانت حكومة الهند البريطانية أوفدت بعثة لمسح السّاحل العربـي للخليـج ، بغيـة مدّ خـط تلغرافي يصل بين الهند ولندن . وتوصلت البعثة إلى عقد اتفاقيـات مـع شـيوخ المنطقـة في شهر أيار (مايو) 1862 م = 1279 هـ بشأن حماية هذه الخطوط وصيانتها . راجع : علاقة سـاحل عُمـان ببريطانيـا لعبـد العزيـز إبراهيـم ، ص 264-265 . ويلـوح مـن مجريـات الحديث أن بيلي ربما كان ينحو إلى إثارة اهتمام الإمام فيصـل بالمشـروع ، بغيـة ضمّـه إلـى تلك الاتفاقيات .

ثم تحدّث الإمام بعد ذلك بشكل جدّ بليغ ومؤثّر عن الموقع الجغرافي والسياسي للجزيرة العربية ، مبيّناً حاجتها الماسّة للأمطار . فلو كان المطر متوفّراً لتيسّرت الزراعة حتماً ، ولتحوّلت العشائر إلى الاستقرار . وعلى الأثر أعلمني عن طريق حاجبه أنه سيكون من دواعي سروره إن أمكن تزويد عاصمته وما والاها ببعض الآليات لاستنباط المياه تكون ذات نمط أفضل وأقوى من الدّواليب الفارسية التقليدية[1] .

فأكدتُ له أنني لن أتوانى عن بذل كل جهد ممكن في هذا الخصوص ، وطلبتُ فيما بعد معرفة العمق الذي تصل إليه المياه في الآبار كيما أستحصل له على زوج من المضخات المحسّنة أو غيرها من المحركات من إنكلترا ، وبالفعل حينما وصلت إلى إنكلترا قمتُ بتقديم طلب بهذا الشأن ، فنلت الموافقة الكريمة من المستر لايارد Layard [2] برصد مبلغ 150 جنيهاً على نفقة وزارة الخارجية لشراء مضخّات تُقدّم كهدية للإمام .

لكن الظروف حالت دون إرسال هذه المضخّات فوراً . غير أن الحاجة تبقى ماسّة لإدخال التحسينات على الموارد المائية في نجد ، ولذا تم ترتيب الأمر بوجه السّرعة وصارت هذه المضخة المحسّنة التي تديرها الحيوانات لترمي مئتي غالون ماء في الدقيقة من عمق حوالي عشرين قدماً في طريقها الآن إلى بُوشهر .

---

(1) تُعرف الآلة الشائعة في نجد لاستنباط الماء من الآبار باسم «المَحَالة» ، وهي البَكَرة التي تُبنى فوق فم البئر ليجري عليها «الرِّشَا» أو الحبل لإخراج الماء . كما قد تُسمّى هذه الآلة بالسّواني نسبة للدواب التي تجرّ الحبل على المَحَالة جيئة وذهاباً . انظر تفصيلات تركيبها وعملها في كتاب نجد في الأمس القريب لعبد الرحمن السّويداء ، 34-36 . وبآخر كتابنا هذا أضفتُ صورة فوتوغرافية نادرة لمَحَالة بئر الشّميسي بظاهر الرّياض ، قام بتصويرها الضابط البريطاني الكاپتن وليَم شكسپير عام 1914 م .

(2) سبق لنا التعريف بالمستر أوستن هنري لايارد A.H. Layard (1817-1894) على أنه عالم آثار بريطاني ، نقّب عن خرائب نينوى عام 1845-1847 واكتشف بها قصر النّمرود مع ألواح ونقوش كثيرة ، وله أبحاث عنها وعن آثار بابل . ونضيف هنا أنه عمل أيضاً في السلك الديبلوماسي والسياسي ، كان عضواً عن الحزب الليبرالي في البرلمان (1852) ، عيّن وزيراً مفوّضاً في مدريد (1869-1877) وفي إستانبول (1877-1880) . له من المؤلفات الأثرية : نينوى وأطلالها *Nineveh and its Remains* نُشر 1848-1849 ، وكتاب نينوى وبابل *Nineveh and Babylon* نُشر 1853 (نعدّ حالياً لنشره بالعربية) .

– 77 –

تضمّ نجد بين هضابها بقايا شبكة أقنية قديمة مُحكمة[1] ، وكان في نيّة الإمام ترميم بعضها ، وبالأخص التي تصل بين الأعالي وبين سُدَير . لكن الموالي وقفوا إزاء هذا الأمر موقف المعارضة ، لأن إنجاز عمل مفيد كهذا سيعود عليه بالحسد والشرّ من عيون العداة ، وبأنه يُخشى عليه من جرّاء ذلك أن يُصاب بالأذى .

– 78 –

نعود الآن إلى مباحثتنا . خلص الإمام إلى قوله : كائنة ما كانت هذه الجزيرة العربية فهي لنا . ونظن أنكم تتعجّبون لنا كيف نمكث هاهنا معزولين عن بقية العالم ، لكننا سعداء راضون . ونحن هاهنا أمراء بحسب معاييرنا السائدة ، «ونشعر بأننا أهل للمُلك بكل ما للكلمة من معنى» . وقال إنه قادر على سياسة رعيّته من العرب ، وأن نهجه يقضي بإنزال أشد العقوبات بمشايخ العشائر عندما يقوم أتباعهم بالخروج عن القانون وقطع الطرقات أو ارتكاب الجنايات الأخرى . فإن زرتَ السجن لوجدتَ فيه الآن أكثر من 70 شيخاً . ثم تابع حديثه مستغرقاً في التفكير : «نعم ، نحن قُساة أشداء ، لكننا عادلون قائمون بالحق» .

سألتُ الإمام أن يسمح لي برؤية كرائم خيله ، فأجاب أنها الآن جميعها تقريباً ترعى في السِّيح من أعمال الخَرج ، ولكن إن رغبت بالذهاب إلى هناك فلي مطلق الحرية في أن أختار أي زوج من الخيل يعجبني وأتقبّله هدية خالصة منه ، وبأنني إن أحببت شراء ما أريد فوق ذلك فلي الخيار . فبيّنت للإمام أنه لم يكن في نيّتي عندما طلبت مشاهدة خيله أن ألتمس الهدية ، وإنما بما أنني ممن يعجبون بالجياد العربية الأصيلة فلقد كنت أمنّي النفس بهذه الفرصة لمشاهدة أعظم مربط

---

(1) كانت في نجد قنوات ري قديمة أنشئت لإجراء مياه العيون والسّيوح التي تنبع من لحوف جبل طويق على طول امتداده ، خاصة في مناطق الأفلاج والخَرج ووادي حنيفة . ذكر بعضها قدامى الجغرافيين العرب ، كالحسن بن عبد الله الأصفهاني في كتابه بلاد العرب (ص 225) ، ووالحسن بن أحمد الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب (ص 283 ، 304–306) . ثم فصّل في بحث ما تبقّى من آثارها عبد الله بن خميس في معجم اليَمامة تحت مواد : الأفلاج ، السِّيح ، عيون اليَمامة .

لها في العالم . وأضفتُ أنه من أصول اللياقة المتّبعة لدينا عندما يطلب جنتلمان إنكليزي مشاهدة مربط جنتلمان آخر أن يمسك عن إبداء الملاحظات .

ثم أخبرته أن السّير هنري رُولِنْسُن[1] بعدما أخذ فحلاً نجدياً كُميتاً معه إلى إنكلترا سمّي نسله على أساس لونه ، والتمستُ رأيه الفصل بخصوص علاقة اللون بالسلالة . فأجاب بأن أنقى الأرسان بل بالأحرى جميع أرسان الخيل النّجدية يمكن أن يكون لها ألوان شتى . لكن يغلب على الجيل الأول اللون الأزرق (أي الرّمادي) باختلاف درجاته . وكقاعدة - أضاف الإمام - يكتسب المهر لون أبيه (الفحل) . وللّون بعض الاعتبار ، أما الارتفاع فلا اعتبار له البتّة ، بيد أن المهمّ أولاً وأخيراً هو أصالة الدّم والنَّسَب .

- 79 -

كان الإمام يتوقّع مني حتماً أن أتطرّق إلى النّزاع مع مَسْقَط[2] ، وإلى اقتراح سلطانها بأن أتولّى فضّ النّزاع بالتحكيم بين الطرفين . لكنني أعتبر عدم اطّلاعي الكافي على ملابسات القضية حائلاً دون الإدلاء بآراء اعتباطية ، وأصلاً لا يمكنني إبداء أي رأي دون التّصريح المباشر من حكومتي . وفي وقت لاحق من المقابلة أسرّ الإمام لحاشيته أنني أبدو رجلاً قديراً ، مُبدياً أسفه لأني غير مسلم .

---

(1) سير هنري كريسويك رولِنسُن Sir Henry Creswicke Rawlinson (1810–1895 م) عالم بريطاني في الآثار الآشورية ، تعلّم الفارسية والهندية وعمل كموفد سياسي في قندهار (1840–1842) وفي بغداد (1844) ، استكمل ترجمة النقوش المسمارية العائدة للملك داريوس الأول ، التي كان قام بنسخها وفك رموزها للمرة الأولى (عام 1846) . نال منحة من المتحف البريطاني لمتابعة حفريات الآثار الآشورية والبابلية التي كان شرع بها المستر هنري لايارد (انظر ما تقدّم أعلاه في الفقرتين 4 و 76) . شغل منصب مدير شركة الهند الشرقية (1856) ، ونائب في مجلس العموم البريطاني (1858) ، ووزير مفوّض في إيران (1859–1860) ، وعضو مجلس الحكم في الهند (1858 ، 1868–1895) .

(2) سبب هذا النّزاع هو الثورة التي قام بها عزان بن قيس حاكم الرُّستاق ضد السّلطان ثويني ابن سعيد ، فلمّا جرّد الأخير حملة عليه استنجد عزان بتركي السّديري النائب السّعودي في عُمان ، مما أجبر ثويني على الانسحاب إلى مسقط . استغلّ الإمام فيصل هذه الحادثة لزيادة أموال الزكاة المفروضة على مسقط ، فرفض ثويني هذا وطلب من المقيم البريطاني پيلي التوسّط بين الطرفين . راجع : Winder: *Saudi Arabia*, pp. 230-31.

- 80 -

عاد الإمام فالتفت إليّ قائلاً إنّ بوسعي قصد أي مكان في بلاده ، وأعرب عن رغبته في أن نبدأ عهداً جديداً من العلاقات الطيبة . ووعد أن يكتب لي دائماً ويطلعني على الأحوال المتعلقة برعاياه المتاخمين للخليج العربي . وبعد رحيلي عبّر الإمام عن ارتياحه البالغ لزيارتي ، فأرسلتُ له بندقية وساعة ذهبية وشقّة قماش حمراء عريضة ومسدّساً مذهباً وسيفاً قد صنع خصيصاً وفق تقاليد الذّوق العربية . وتبين أن السّيف قد حاز الإعجاب أكثر من باقي الأشياء .

- 81 -

عندما عدتُ إلى المنزل قام حاجب الإمام بزيارتي ، فتبادلت معه الحديث بخصوص زيارتي المقترحة إلى منطقة المراعي ذات المياه في الخَرج المعروفة باسم السِّيح . لكن أمراً استجدّ هذا اليوم ، ربما لا زلتُ إلى الآن غير متفهّم له تماماً ، أدّى إلى تسبيب انقلاب مفاجئ وغير سار بالنسبة لموقفي في الرّياض .

فلقد وُضعت العراقيل من قِبَل الحاجب بيني وبين التوجّه إلى الخرج ، وعندما زارني للمرة الثانية في المساء اقترح علي في النهاية ألا أبارح الرّياض إلى أن تُجلب إلي بعض الخيول كيما أسومها . فأجبته على الفور بأن هذا التأخير ليس موضع بحث إطلاقاً ، وبأني معتزم على أن أعرّج لبضعة ساعات عن طريقي المباشر بغية مشاهدة خيل الأمير ، وبما أن هناك مركباً بخارياً ينتظرني على الشاطئ فلست أستطيع إضاعة عدّة أيام إضافية على هواي .

لكنني أيضاً كنت في الكويت قد تلقّيت تنبيهاً بليغاً أنني وإن كنت مصراً على زيارة الرّياض فعليّ ألا أمكث فيها بأي حال من الأحوال أكثر من يومين على أبعد تقدير مخافة وقوع ما لا تُحمد عُقباه ، وذلك لأن العرب كما هو شائع متقلّبو الأهواء كثيراً وميّالون لتغيير مواقفهم سريعاً[1] .

---

(1) ما أشدّ ميل الرّحالين الغربيين إلى انتقاد عادات أبناء بلادنا العربية وتصويرهم على أنهم غُلاة بعيدون عن الكياسة والحضارة . لكننا لو قارنّا أعمال جيوش الغرب التي احتلّت بلادنا طويلاً ، لوجدنا الفارق جلياً والآية معكوسة إلى أبعد حدّ .

فمن خلال بعض الملاحظات التي رأيتُها وسمعتها خلال هذا اليوم توجّستُ من حصول انقلاب مفاجئ . وخلصتُ إلى نتيجة أن الإمام الذي أشهد له بأنه رجل على مستوى رفيع من الوعي والحكمة ، حوله أشخاص من أكثر ما صادفتُ حدّة مزاج وشراسة وتعصّب في حياتي . شعرتُ بوضعي يتفاقم أكثر فأكثر ، لأن الإمام بما أنه مكفوف البصر يعتمد على حاجبه (محبوب) في كل تعامل له مع العالم الخارجي ، ولذا فما يدريني أن يقوم هذا الهجين[1] الأهوج اللئيم بتصوير الأمور أمامه بما يؤدّي إلى مضاعفات أنا بغنى عنها ؟

لذلك كله ، لما أخذت بعين الاعتبار مسؤولياتي تجاه الحكومة وتجاه مرؤوسيّ ، وكذلك بطء وسيلة النّقل التي بحوزتي فقد قرّرت ألا أغامر بنفسي وبمن معي أكثر من ذلك . وبناء عليه قمتُ بإخطار حاجب الإمام بأنني لا بد لي من الانطلاق في صبيحة الغد ، وطلبت استلام جمالي في الصباح . فأجاب أنه سيُخبر الإمام بالأمر ، لكن سيكون من الضروري حتماً بادئ ذي بدء أن أودّعه . ثم مضى الحاجب إلى الإمام ، لكنه عاد مرتين خلال المساء .

أضحت تصرفاته الآن مغايرة تماماً لما سبق ، فقد اتّسم بالحدّة وحتى بالعدوانية . وعاد فألمح إلى أعمال سَلَفي في منصب المقيميّة بخصوص احتجاز المراكب السُّعودية ، ثم حَمَل مجدداً على أعمالنا المعادية للاسترقاق فنعتنا بصفة القراصنة الناجحين ساخراً من ميولنا الإنسانية . لكنني مع ذلك آثرت تجنب الخوض في هذا الموضوع ، ليس لمجرد أنه قد يثير حساسيات كبيرة في مكان كالرّياض ، إنما أيضاً - كما تعلم حكومتنا - أدّى احتكاكي المباشر بأعمالنا المعادية للاسترقاق ، الممتدة من قنال الموزمبيق إلى رأس الخليج العربي ، إلى حملي على تغيير رأيي الأساسي بخصوص قمعنا لتجارة الرقيق ، وعلى أن أتوقع أنه ربما سيأتي اليوم الذي ستطرأ فيه تغييرات كبيرة على الرأي العام في إنكلترا نفسها بصدد هذا الموضوع .

---

(1) رغم محاربة الإنكليز للرقّ والعبودية بأواسط القرن التاسع عشر ، تراهم لا يستنكفون عن نعت السّود بأشنع الألفاظ وأشدّها تعصّباً ، فأين هي دعواهم إذاً ؟ مثل ذلك رأيناه في كتاب آن بلنت «رحلة إلى نجد» في احتقارها لجوهر ، نائب آل رشيد في سكاكة .

ثم بدا الحاجب متحرّقاً لإقناعي بأنه ينبغي لي عقد معاهدة يُستثنى بموجبها عرب عُمان وصور والخليج العربي من قرصنتنا ضد الرّق ، وأن يتلقّوا من طرفنا الامتياز نفسه الذي تلقّاه سلطان زنجبار ، وذلك بإبرام معاهدة مع سموّ الإمام تُعطى بموجبها حريّة الاتجار بالرقيق . وأضاف الحاجب أنه كان يحمل تفويضاً من الإمام لعقد معاهدة تُلزمه بردع عرب عُمان والخليج عن القيام بأعمال السّلب والنّهب أو تخريب منشآتنا التلغرافية .

أضحت تصرفات الحاجب وعباراته أكثر كياسة ، وقال إنه بما أنني الآن في عاصمتهم فهذا وقت مناسب لكي نكتب مسوّدة الاتفاق . لكنني أنبّهته على هذا المسلك ، رافضاً طلبه بشكل قاطع وطلبت إليه الانصراف . لكني شعرتُ تماماً كم يضمر في قلبه لي من المقت ، حتى أنه عندما انصرف لم يكترث بتحديد وقت لي لزيارة الوداع .

– 82 –

انقضى صباح اليوم 8 دون أي أثر للحاجب أو لجمالنا . وفي هذه الأثناء أمرتُ بتجهيز عدد إضافي من قرب الماء ، هذا لأن قسماً من الطريق علينا أن نجتازه دون قطرة ماء فيه ، ولأن القِرَب التي بحوزتنا كانت ترشح بشكل مزعج . ثم قُبيل الظهيرة ظهر الحاجب وسألني إن كنتُ عازماً حقاً على الرحيل ، طالباً إلي الانتظار مجدداً . فأخبرتُه بشكل قاطع أنني أنوي المسير هذه الليلة ، وأعدتُ عليه الطلب بتحديد موعد لي لأزور الإمام . فقفل الحاجب راجعاً .

كانت جمالي لم تُرسل بعد إلي ، ولذا أرسلت في طلب رئيس العكامين ، الذي اعتذر عن المجيء بدعوى المرض . فما كان مني إلا أن قمتُ إليه وحذّرتُه إن كان يحاول إيقاعي في مأزق فسيدفع حياته ثمناً لذلك . شرع حينئذ في الاحتجاج ببراءته على النحو الذي يبرع فيه الأعراب[1] . وفي أثناء ذلك علمتُ أيضاً من فتى صغير كان معنا في القافلة أن جمالنا لم تكن بعيدة ، وقد تمّ التحفّظ عليها بناء على أوامر السّلطات . فعدتُ إلى رئيس العكّامين لأخبره أنني أيقنتُ بخداعه .

---

(1) لا ينفكّ المؤلف يُصدر الإساءات بحق العرب وأخلاقياتهم .

في الساعة الرابعة عصراً بَدَت الأمور لي مُقلقة مما جعلني مُصمّماً رغم كل معارضة على مقابلة الأمير في قصره ، وطلب تسليمي جمالي والإذن لي بالرحيل . لكن قبل أن أغادر المنزل رأيت من المناسب أن أقوم بإجراءات لتجنّب بعض المضاعفات غير المرغوب بها ، وذلك لدى احتمال تفتيش أمتعتنا ، أو في حال وقع لي أي مكروه ، ومن بين ذلك قمتُ بإتلاف صورة شخصيّة للإمام ومخطّطاً لمدينة الرّياض ، كان أتحفني بهما المستر دوز ، وذلك بإحراقهما في المطبخ[1] . وكم كانت تعابير الدّهشة المرتسمة على وجه طبّاخي اليرتغالي مضحكة عند حضوري غير المُعتاد في المطبخ ، حيث كان يدقّ اللّحم بكل رزانة كما لو أنه كان في دار المندوبيّة (المُقيميّة) في بُوشهر .

بعدما أتممتُ اتّخاذ هذه الاحتياطات خففتُ وترجماني إلى القصر . حاول أحد الحرّاس أو العيون عند البوّابة إيقافي ، لكنني لم أكن متحمّلاً لأيّة إهانة . ولم أكن تجاوزت منتصف الطريق إلى القصر عندما بلغني مجيء الجمال العائدة لنا ، ولذا قفلتُ راجعاً ورأيت الجمال ضمن سياجنا فأمرتُ بتحميل أمتعتي عليها وأوكلت بها إلى حاجبيّ وأقفلتُ الباب . وبعدها تابعت طريقي إلى الإمام .

كان الإمام ودوداً ، وأنا على أتمّ الثّقة من حُسن نواياه للعمل معي في صالح السّلام العام ، لولا أنني أرى العقليّة العربية عموماً تستعصي على الفهم وتتقلّبها الأهواء فلا يمكن الركون إليها ، إنها عقليّة متشدّدة لدرجة أنه يصعب إبرام اتّفاق مع أصحابها ولو لمدّة ساعة واحدة[2] .

---

(1) هذا أمر يؤسف له ، وعلى أي حال يبقى أول مخطط لمدينة الرّياض هو الذي وضعه بالغريف في عام 1862 م ، ونشره في كتابه المذكور أعلاه *The Personal Narrative* في عام 1865 ، وضمّه دافيد جورج هوغَرث إلى كتابه : *The Penetration of Arabia* في طبعته الأولى الصادرة بلندن عام 1904 . هذا ولقد أضفنا بآخر نشرتنا هذه لرحلة بيلي ثالث مخطط للرّياض بحسب الأقدميّة ، هو الذي رسمه عام 1917 هاري سنت جون فيلبي Harry St. John Philby في كتابه : *Report on Najd Mission, 1917-18* ، الذي نشرته مطبعة حكومة الانتداب البريطاني في بغداد عام 1918 . أما مخطط بالغريف فأتعهّد بنشره في ترجمة كاملة وصحيحة لكتابه الكبير ، أقوم حالياً بإتمامها .

(2) يتمادى بيلي بتعميم الأحكام الناجمة عن سوء فهم لعقلية العرب وعدم ثقتهم المبرّرة به . وكأنه يتجاهل أنه يقوم بزيارة رسمية للمرّة الأولى لدولة تعدّ آنذاك خصماً لدولته .

رغب إليّ الإمام أن أطيل مدّة زيارتي ، لكنني أجبت بهدوء إنما بحزم أنني قد حزمتُ وعزمت ، وأنوي المسير هذه الليلة . بعد ذلك أطنب الإمام بالتعبير عن سروره لهذه الزيارة ، وأردف أنه وإن كان في الوقت الحالي مقيماً في وسط البراري كما أرى ، فإنه لم يفته أبداً التعرف بالحياة الحضرية المتمدّنة ، فخلال وجوده أسيراً في مصر شاهد سفراء الدول الأوربية عندما كانوا يقومون بالزيارات الرسمية للپاشا ، وكان يقدّر معاني الكياسة التي تتّسم بها تصرفاتهم[1] .

وأعرب عن رغبته في أن أخبره عن حصول أية أعمال قرصنة أو تخريب بخصوص القطيف والعُقَير ، وبأنه سوف يُنزل أشدّ العقوبات بالمُعتدين . وكذلك ألحف علي بأن أعمل على حماية مصالحه في الخليج العربي ، وكرّر أمله في أن آخذ نواياه الوديّة مأخذ الثّقة والاطمئنان . ثم اختتم بالتعبير عن رغبته في أن أواظب على الكتابة إليه . وأشرت إلى أنني قد فعلت ذلك فعلاً في السابق ، لكن أجوبته لم تكن مشجعة لي بشكل كاف . فقال إن السبب في إحجامه يعود إلى علاقاته السابقة مع المُقيميّة (المندوبيّة) ، لكنه الآن سيفتح صحيفة جديدة ، وقد قام بتوجيه التعليمات بهذا الصّدد إلى عمّاله على السّواحل .

ثم رجاني أن أقبل منه على سبيل العطيّة جوادين من الخيل النّجدية كان ينوي تقديمهما هدية لپاشا بغداد ، وهما الآن في القطيف على أهبة الإبحار . وختاماً ، قال الإمام أنه قد وضع تحت تصرفي خادماً ليصحبني إلى السّاحل . ثم عند مغادرتي للقصر قدّم لي الحاجب هذا الخادم .

قام هذا الأخير بمرافقتي إلى منزلي ، ثم طلب الإذن بالعودة لأن لديه ذلولاً سريعة وبوسعه إدراكي بسهولة قبل أن أبلغ الأحساء . كان في ذلك خلاص لي ، فما كان مني إلا أن تركته يمضي لطيّته .

---

(1) أقام الإمام فيصل بن تركي أسيراً في مصر حوالي أربع سنوات ، بعد أن استسلم للقائد المصري خورشيد پاشا في شوّال 1254 هـ = 1939 م ، وكان معه ابناه عبد الله ومحمد وأخوه جلوي وابن عمّه عبد الله بن إبراهيم . ثم تمكّن الإمام ورفاقه من العودة إلى نجد بمساعدة الخديوي عبّاس كما يرى بعض المؤرخين ، في أوائل سنة 1259 هـ = 1843 م . راجع : عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر ، 2 : 107 ، 129 .

أمرتُ بإسراج الجمال على الفور ، لكن العكّامين أبدوا تمنّعاً ، وبدا من المشكوك فيه أن نتمكن من التحرك فعلاً . وفي النهاية كان النجاح حليفي عندما قلت لخدّام الإمام ، المبثوثين حول منزلي ، إنني مصمّم على التحرك ، فإن أفلحوا في تجهيز الجمال لي عند الساعة التاسعة لهم مني هدية ، وإلا فلن ينالوا شروى نقير . بالفعل ، في تمام الساعة التاسعة كنا ممتطين متن ركائبنا ، ولكن فيما بدأنا المسير ظهر رجل يحمل ساعة الإمام الذهبية (وهي من الشكل الذي يشبه المقلاة) قائلاً إن الساعة قد تعطلت ، وسيكون الإمام ممتناً إن قمت بإصلاحها له . أجبت بالموافقة على ذلك ، ومنذ ذلك الحين تم إصلاح الساعة في إنكلترا وإعادتها إلى الرّياض .

- 83 -

لم نكن بالكاد تجاوزنا أسوار البلدة عندما عاد رئيس العكّامين فأصرّ على التوقف للتوّ . فشرحتُ له أنني الآن قد انطلقتُ ، وفي حال أثار أمامي المتاعب فسوف أجبره على المسير 24 ساعة دون توقف . لكنه مضى في عجرفته إلى أن أحسّ أنه بات من الممكن إعفاؤه من صلاحيته ووضعه رهن الاحتجاز ، فارتاع ولزم جانب الصمت .

- 84 -

كانت الليلة الأولى لوصولنا إلى الرّياض غائمة ، وكذلك كانت الرقابة الدائمة المفروضة علينا حائلاً بيننا وبين أخذ أية أرصاد نجمية . ثم في صباح أحد الأيام تمكنا من تحديد خط الطول بواسطة خمس رصدات شمسية قمنا بأخذها من على سطح المنزل . لكننا اضطررنا لإيقاف هذا العمل قبل الظهر ، فلم نتمكن بالتالي من تحديد خط العرض[1] . ولذلك ففي ليلة مغادرتنا للرّياض كان علينا تحديد خط العرض بأسرع ما يمكن ، فتوقفنا لهذا الغرض بُعيد خروجنا من أرباض البلدة مباشرة ، وبما أننا كنا نتجه شمالاً فقد نصبنا خيمتنا بهذا الاتجاه .

---

(1) على أي حال فإحداثيات الرياض هي : خط عرض 24°38َ ، وخط طول 46°43َ .

– 85 –

تابعنا مسيرنا بكرة صباح اليوم 9 ، وبدأنا باجتياز العارض فمررنا برتل الهضاب (المتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي) الذي كنا مررنا به سابقاً في طريقنا إلى الرّياض والمعروف بالثُّمامة[1] . والنقطة التي اجتزناها منها تسمى العَوْن[2] ، وتؤلف ، كما هو حالها إلى جهة الشمال ، التخوم الغربية للعَرَمة ، التي يمكن وصف ناحيتها بالجُرد الذي يبلغ اتساعه مسيرة يوم ونصف ، والذي يتكسر إلى رواب منخفضة مسطّحة أو مخروطية ، مع أغوار مسطّحة تستعرض ما بينها ، ولكل وادٍ خُرّ أو مجرى سيل جاف بأدناه على طوله الكامل .

يقال إن العَرَمة تمتدّ شمالاً إلى نقطة تبعد 4 أو 5 ساعات ما بعد الزُّلفي ، وتتناهى جنوباً ضمن الأرجاء الشرقية لليمامة . وينبغي ألا يغرب عن البال أن الثّغرة التي أفضينا منها من العَرَمة في طريقنا إلى الرّياض لها مشارف مؤلفة من الهضاب الرّملية . لكن تلك السلسلة لا تبلغ إلى الجنوب ما تبلغه النقطة التي دخلنا منها العَرَمة اليوم .

– 86 –

لمّا كان عكّامونا قد انطلقوا اليوم متثاقلين وكانوا متمنّعين أيضاً ، فقد قرّرت الضغط عليهم لحثّهم على إعطائي ضماناً بخصوص موعد وصولنا إلى الماء على مشارف الدَّهناء . وبذلك بقينا نسير إلى ما بعد حلول الظلام ، ولكن عندما ترجّلنا ارتدّ رئيس العكامين ، وأبدى رجاله تهديداً بالتخلّي عنا .

---

(1) انظر ما تقدّم حول الثُّمامة في الفقرة 54 .

(2) إن هذا الرّتل من الهضاب ليس جزءاً مما كان أطلق عليه الثّامة أو الحدود الغربية للعَرَمة ، وإنما هو جبل خنزير المعروف اليوم باسم «الجبيل» ، وهو سلسلة من الهضاب تمتدّ من الشمال إلى الجنوب ، تبدأ بالقرب من روضة الجنادريّة حتى تصل قريباً من الخَرج بطول 80 كيلومتراً . وهذه السلسلة توازي سلسلة مرتفعات العَرَمة إلى الغرب منها ، بينها وبين الرّياض . ويبدو أن ما سمّاه المؤلف «العَوْن» هو ما يُعرف اليوم باسم «العان» أو «خشم العَان» ، وهو رَعن من رُعون سلسلة مرتفعات الجبيل . معجم اليَمامة لابن خميس (العان ، الجبيل) .

- 87 -

إلى هذا الحين لم يكن خادم الإمام قد ظهر لنا بعد . وكان رئيس العكّامين لكي يوفر ريالاً أو اثنين قد أحجم عن اصطحاب الدليل اللازم ، فلذا وجدنا أنفسنا على أعتاب رحلة طويلة تبلغ 250 ميلاً عبر هذه المفاوز العديمة المعالم ، وليس معنا كما هو جليّ أي رجل في المعسكر له سابق معرفة بهذا المكان من قبل ، ماخلا دليلنا الصلّبي العجوز الذي يبلغ من العمر قرابة السبعين عاماً ، والذي يقول إنه يذكر مروره مرّة بهذه المسالك عندما كان لم يشتمل بعد بدرّاعته المتخذة من جلد الأيّل . فيبدو بالنسبة إلى عشيرة الصلَيْب أن ارتداء جلد الأيل للمرة الأولى هو علامة بُلوغ الفتى .

لكن أشدّ ما يدعو إلى الإثارة في الموضوع أن الماء ليس يوجد بسوى موقع واحد خلال رحلة السبعة أيام القادمة ، وأقرب تقدير استطاع دليلنا الصلّبي إعطاءه لهذا الموقع أنه يقع على بعد يومين من موقعنا الحالي ، وهو على مشارف صحراء النّفود . ولكن كائناً ما كان الأمر ، لم يعد بوسعنا ما نفعله سوى أن نتقبّل الموضوع بصدر رحب ، ولذا قدّمتُ للركب بأكمله شربة قهوة كاملة ، ووعدتهم بخروف متى وجدنا الماء .

- 88 -

في صبيحة يوم 10 انطلقنا من موقعنا في العَرَمة ، واليوم كان رئيس العكامين طلق المحيّا ، وقَسَمات الأرض على ما ذكرتُ سابقاً ، مع بعض التكسير أكثر من ذي قبل . جعلنا نتلوّى لمدة ست ساعات على طول حافة وهدة واضحة المعالم ، ثم صعدنا فجأة 70 أو 80 قدماً ، وأربينا على جُرد ثان يدعى أُثيلان[1] ، ومن هذا المكان استطعنا أن نلمح عن بعد شناخيب النّفود ، إلى مقدّمتنا اليسرى .

---

(1) أثيلان واد من أودية العَرَمة ينحدر من ظهرها مشرّقاً حتى يفيض في حُصن الدّهناء ، يوازي وادي المسعودي من الشمال . راجع : معجم اليَمامة لابن خميس ، 1 : 60 . وربما كان أعلى الوادي هو الجُرد المذكور هنا ؟ وواضح أن هذا الجُرد الثاني الذي أربوا عليه عند أثيلان هو العَرَمة بذاتها .

والبراري هاهنا رحبة مكشوفة ، وجعلنا نتعرّج بين أنساق من الأغوار والوطاءات الضّحلة إلى حلول المساء ، حتى نفذنا من رأس آخر الأغوار فانجلت لناظرينا النّفود بوضوح إلى الأمام تماماً .

أكّد لنا الدليل أن الماء لم يعد بعيداً عنا الآن ، وإذا قال مرافقونا بأن هناك بعض بيوت الشعر السُّود في الأفق فقد وافقتُ على التوقف . وبعد أن توقفنا قمنا بتفحّص البيوت المفترضة بالمِقراب (التلسكوب) فاتضح أنها ليست سوى رُجوم من الحجارة . وقعنا حينئذ فريسةً لقلق عظيم بشأن العثور على الماء ، فمن جرّاء اختلاس الماء وتبخّره من القِرَب تناقص مخزون الماء لدينا من مقدار سبع قِرَب عشيّة الأمس إلى أقل من أربع قِرَب اليوم .

يبدو مظهر النّفود في الأفق مختلفاً عن مظهر الدَّهناء أثناء مرورنا بها في طريقنا إلى الرّياض . ففي الأخيرة كانت الهضاب تتألف من أنساق أو سلاسل غير متقطّعة ، أما هنا فهي تتكسّر إلى مخاريط وقباب سامقة شعثاء ومتعدّدة الأشكال . ولذا فهي هناك تُدعى بالدَّهناء ، أما هنا فبالنّفود . والأراضي التي عبرناها اليوم تتألف بشكل رئيسي من صخر رملي مكسو برواسب رملية .

شاهدنا اليوم بعض الظّباء ، ومررنا كذلك ببعض الأشجار القزمية على أشفار الوهاد . وكذلك رأينا بعض بيوض الحُبارى ، والعشّ الذي يضمّها ليس سوى نُقرة مدوّرة صغيرة على أديم الأرض . كما لاحظتُ اليوم كذلك بعض الطيور التي تنتمي حتماً إلى فصيلة الزُّقيقيّات أو الحَساسين ، وكذلك تشكيلة واسعة من الجُعلان ، وعظاءة ضخمة أو اثنتين[1] .

– 89 –

كان طريقنا اليوم يمر في منحدر متدرّج باتجاه المِهَاد الذي يقع مباشرة على طول قاعدة النّفود . وكان هناك مجرى سيل جاف ينزل مع المنحدر إلى أن يتلاشى في المهاد . وبدا المِهَاد مخضوضراً رطباً عن بعد قريب ، وفي هذا الموضع

---

(1) من الواضح أنه يريد الضبّ ولا شك .

بالذات وجدنا الآبار[1] ، وهي آبار عميقة وعتيقة وصغيرة الفوهة ، وجدرانها من الحجر الكلسي . كان من الواضح أن دليلنا الصلّبي يعرف هذه الآبار فرداً فرداً ، فقد هرول بجمله إليها دون تردّد . وفور توقفنا تدلّى أحد مرافقينا إلى قعر أحد الآبار الذي يبدو وافراً بالماء أكثر من غيره ، وأدلى الآخرون له القِرَب من الأعلى فقام بملئها وسُحبت من جديد إلى فوق .

وعلى هذا النحو أمّنا حوالي 15 قربة مليئة من بئرين أو ثلاثة ، ثم جفّت هذه الآبار بالتالي . وللحصول على المزيد من الماء على المرء أن يضحّي بالوقت ويتحمّل المشقات . إن الآبار هاهنا كما في الدّهناء تشتهر بإيغالها في القدم ، وفوهاتها الحجرية محزّزة بعمق من جرّاء احتكاك الحبال . بعد أن سقينا جمالنا انطلقنا بنشاط ، وفي غضون ساعة واحدة كنا قد ولجنا صحراء النّفود . كانت هناك قبّة رملية سامقة وبارزة تؤلف نقطة العلاّم الرئيسية في المكان ، وعلى الرّمال يختفي كل أثر لأي درب أو مسلك .

إن لهذه الرّمال لوناً أحمر قانياً أو برتقالياً ، وهي هشّة كالثلج المجروف ، وتتراكم بجميع الأشكال الممكن تصوّرها بارتفاعات متباينة ، تتراوح بين المئة والمئتي قدم فوق مستوى السّهل الذي وجدنا فيه الآبار ، ولمرتين أو ثلاث ضلّ رجالنا الطريق ، وكانوا يستعيدون المسار الصحيح عن طريق البحث والتقصّي وتتبع آثار بعر الجمال المارّة سابقاً . والواقع أنني ذُهلتُ تماماً كيف أن هذه الفيافي الشاسعة المترامية التي تقدّم وصفها يتأتّى لنا شق طريقنا فيها دون أي خطأ[2] . فمدى النظر كان أمامنا مغلقاً ضمن نطاق 100 يارد حولنا ، وبدا الدليل الصلّبي معتمداً بالكلّية على الاهتداء بالشمس .

---

(1) هذه الآبار هي منهل «رملان» المشهور الذي يقع في حضن الدّهناء بينها وبين العرمة ، تلقاء مَفيض وادي أثيلان . ويتألف هذا المنهل من حوالي عشرين بئراً ، وهو المنهل الذي يرده من أراد سلوك طريق «مخِيّط» إلى الأحساء . راجع معجم اليمامة لابن خميس (أثيلان ، رملان ، الدّهناء) . ولقد بيّن ييلي أنه سلك طريق مخَيّط من الرّياض إلى الأحساء ، كما ذكر آبار الرّميلان (أي رملان) بين محطاته (ملحق رقم 4) .

(2) أهل مكّة أدرى بشعابها ، والعربي ابن البادية قادر على معرفة طريقه بالشمس أو النّجوم أو علائم الأرض أو حتى من مادة التربة ورائحتها ورطوبتها .

بوسعي الآن أن أدرك مدى صحّة الأخبار التي رُويت لنا عن الحوادث القاتلة التي تقع مراراً في هذه المفاوز المهلكة ، فالعواصف الرّملية مثلاً ، أو الجو الضبابي الكثيف من شأنها حتماً أن تُضل القوافل عن طريقها أو أن تجبرها على التوقف . ومثل هذا المأزق أو ذاك سوف لن يؤدّي إلا إلى خطر الموت عطشاً[1] . وكذلك فإن الوهج المنعكس عن الرّمال مُرهق للغاية ، وفي فصل الصيف يكاد يعمي الأبصار . ومن خلال ما رأيتُه بأم عيني من هذه المناطق فأنا أجزم باستحالة اجتياز مجموعة من الأوربيين لها دون نتائج مفجعة . والواقع أن أحد الأسباب الرئيسية في رفضي القاطع للمكوث في الرّياض كان خشيتي من أن نُحتجز لسبب أو لآخر إلى حلول الفصل الحار ، وعندها سيكون التّرحال صعباً للغاية .

أخبرني البدو أنهم عادةً حينما يضلّون طريقهم أو يتوارون عن الأعين في الصّحراء ثم ينفد لديهم الماء لا يجدون أمامهم إلا ذبح أحد الجمال وشرب القليل من دمه ، أو اعتصار غدّة مائية من أمعائه على لسانهم ، ويقال إن من أشد المضارّ الناتجة عن الغزو هو الأذى الذي يلحق بالخيل والكُراع وبالحيوانات الأخرى ، وذلك عندما يقتادها الغُزاة بالقسر والإكراه عبر المفاوز المقفرة والخاوية من الماء . فعلى سبيل المثال إن غزت عشيرة ما إحدى العشائر الأخرى واستلبت منها فرساً كريمة ، يقوم بامتطاء هذه الفرس فارس بدوي جسور ، ويُسرع بها إلى الصّحراء متّجهاً إلى مضارب ربعه . وهو عادةً ما يتجنّب الآبار لئلا يتمّ التعرف على الفرس ، مما يعرّض الحيوان المسكين إلى أقصى المصاعب ، أو لربما أدّى ذلك إلى إعطابها مدى الحياة .

نعود إلى ما كنا فيه : لحظة أن دخلنا صحراء النّفود أخذت جمالنا تقاسي مشاق المسير بشدّة ، فالرّمال كانت رخوة والحُزون كانت تعلو شيئاً فشيئاً ، والمنحدرات ما وراءها كانت في بعض الأحيان شبه رأسية ، فكان على الجمال أن توازن نفسها على الذُّرى ثم تتدحرج إلى الأسفل دفعة واحدة . ولكن تدريجياً أصبحت الرّمال أخشن وبدأت تكتنفها الأجمات .

---

(1) انظر ما روته الرحّالة البريطانية الليدي آن بلنت عما سمعته من قصص الهلاك عطشاً في صحراء النّفود ، في كتابها : *A Pilgrimage to Nejd* ، الفصل الثامن .

بعد أربع ساعات من المسير على هذا النحو توقفنا ، وكانت دوابنا قد أضناها التعب . وعندها فتحنا قِرَب الماء التي استحصلنا عليها في الرّياض وجدنا الماء فيها غير صالح للشرب ، هذا بالرّغم أنني قد أعرتُ اهتماماً كبيراً بالتأكيد على تنظيف القِرَب جيداً قبل المسير . لستُ أدري على وجه اليقين إن كان السبب في ذلك ناجم عن نيّة مقصودة من أهل الرّياض أم أن السبب مجرّد الإهمال في إعداد القِرَب . وعلى أي حال وجدنا أنفسنا أمام مسيرة أربعة أيام أو خمسة دون ماء ، ولم يبق بحوزتنا سوى أربع قِرَب من الماء الصالح للشرب . فقمت بالإيعاز بختم هذه القِرَب ، وكلّفت بعض رجالي بمسؤوليتها .

ثم استدعيتُ دليلنا الصلّبي وأنذرتُه إن أنا وجدتُ المعسكر دون ماء قبل أن نصل إلى الآبار القادمة فسوف أطلق عليه النار وأرديه قتيلاً . تمّ هذا الأمر تحت طيّ الكتمان في الليل ، وأفشى لي العجوز عن سرّه عندئذ بأنه يعرف كل مفحص قطاة في هذه البلاد كما يعرف راحة كفّه ، وأنني إن استهلكتُ قربة واحدة كل يوم فسوف يوصلنا إلى الماء في غضون أربعة أيام . ولكنه كان مضطراً لإخفاء خبرته بدروب الصّحراء مخافة أن يرهقه الأعراب بالتّرحال المستمر .

حتى الآن كان الصلّبي يستخدم الأيمان الإسلامية ، ولكن تحت وطأة فزعه هذه الليلة أقسم بالشّعرى اليمانية[1] ، وعندما سألناه عن سبب هذا التبدّل في القَسَم اعترف بأن ربعه يدينون بالإسلام ظاهراً فقط ، لكنهم تبعاً لديانتهم القديمة يدينون بعبادة النجوم .

– 90 –

بعد أن قمنا بنصب المخيّم لحنا مجموعة من الركبان يدنون منا من جهة المرتفعات ، واتّضح أنهم خادم الإمام وأتباعه . وتبين لنا أنه بعد أن استأذننا بالتخلّف عن الانطلاق معنا عاد إلى منزله دون أن يسألنا عن الطريق الذي ننوي سلكه ، وأنه عندما لحق بنا اختار طريقاً جنوبياً قصيراً ، لكن دليلنا الصلّبي تجنّبه

(1) كتب المؤلف : انظر الملحق رقم 13 . قلت : يغلب هذا على كلام كل من درس أحوال الصلّيب وديانتهم ، فقد كانوا يدينون بدين صابئة حرّان الذي يقدّس النجوم .

لكونه وعراً بالنسبة إلى الجمال المحمّلة . ولمّا رأى خادم الإمام نفسه بغير الطريق الصحيح فقد قام بعبور مسافات كبيرة منعطفاً بزوايا قائمة حتى عثر على آثار قافلتنا [1] .

بعد ذلك غيّر الرّجل ثوبه الكامد البسيط بآخر ذي ألوان زاهية ، وصار الآن يبدو شخصاً ذا مكانة مرموقة . وخيّم على مسافة قريبة منا ، لكنه أتى في المساء لتناول القهوة وتبادل الأحاديث ، ومن بين الأشياء التي أخبرنا بها أن الشيخ السّبيعي الذي عاملناه برفق وأجزلنا له في العطاء ، ما كاد يبلغ الرّياض حتى شرع في ذمّنا واختلاق الروايات المنفّرة عنا ، مما يؤدّي حتماً لتعريض جماعتنا كلها لأكبر الشّبهات .

– 91 –

يبدو أن الأرض التي نسير بها الآن مرتفعة بعض الشيء ، ذلك لأن الطقس كان أبرد وأنعش من كل ما شعرنا به في طرقات البرّ الداخلي ، وهذا على الرّغم أننا كنا ما نزال أبعد إلى الجنوب وأن الرّبيع كان يتقدم . في عصر هذا اليوم مررنا ببعض الدّواسر الذين كانوا ينزلون بالنّفود ، وجاء أحدهم يخبّ على فرس كُميت أصيلة ، لكنه لم يرضَ ببيعها لنا .

– 92 –

كان مسيرنا اليوم كلّه ضمن هضاب وسلاسل رملية ، وبين الفينة والأخرى تظهر بفواصل متباعدة رقاع تنشز فيها التّربة وتكتسي بحجارة صغيرة دكناء ، وكانت الهضاب الرّملية أحياناً تتراوح بين الرّوابي والوطاءات ، وفي أواخر النهار كانت على شكل أمواج طويلة ، وأخيراً أخذت شكل الدّرجات .

---

(1) يبدو أن خادم الإمام سلك طريق «مزاليج» ، وهو طريق يربط بين العارض والأحساء ، ويوازي طريق «مِخيَط» الذي سلكه يلي من ناحية الجنوب مباشرة ، حيث يمرّ هذا الطريق بمنهل «أبي جِفان» غربي العَرَمة ، ثم يخترق كثبان «مزعلات» الوعرة في الدّهناء حتى يبلغ الأحساء . راجع : معجم اليمامة لابن خميس ، 1 : 437 ؛ معجم المنطقة الشرقية لحَمَد الجاسر ، ص 692 .

عند ساعات المساء انكشف المنظر إلى مقدّمتنا اليسرى وأطلّ على امتداد فسيح لسهل رملي . لم تكن الأرض في أي جزء من الأجزاء عسيرة جداً ، وكانت في جميع أجزائها مكسوّة بالخضرة الشائعة في هذه المنطقة . لم يكن ثمّة أي طريق أمامنا ، ولم أتمكن ضمن حدود طاقتي من تمييز إلا معالم نادرة جداً فيما حولنا ، ومع ذلك كان دليلنا يشقّ طريقه بثقة لا يلوي على شيء . كنت بين الحين والآخر أختبر صحّة اتجاهه فأجده دائماً على صواب ، ومراراً ما كنا نجتاز بعض الوطاءات ويحول ذلك دون النظر إلى المدى ، ومع ذلك لم أره يلتفت قطّ إلى الوراء أو يمنة ويسرة طلباً للاهتداء ، فلو كان لديه بوصلة في سرجه لما استطاع المسير بأتم من هذه الدقّة .

مررنا اليوم بثلّة من البدو وحصلنا منهم على بعض اللبن الخاثر ، ورغبتُ إلى رجالنا بشراء خروفين منهم ، لكنهم رفضوا البيع متذرّعين بأن رجال الإمام سيمنعونهم من قبض الثمن .

بقي الطقس عذباً ندياً والهواء منعشاً عليلاً بشكل فريد . أما خادم الإمام فلم يبدر عنه أي شيء ، لكننا آثرنا البقاء منفصلين عنه وعن ربعه . وكان نزولنا اليوم هذا المساء عند نقطة بالقرب من التّخوم الشرقية للنّفود .

– 93 –

في اليوم 13 اجتزنا البقية الباقية من صحراء النّفود ثم بلغنا شريطاً سهلياً ، أشبه ما يكون بالحزام أو الوادي الفاصل ما بين النّفود وجُروف الصَّمّان[1] ، التي تنصب أمامنا كخط منكسر من الأحادير بارتفاع 50 إلى 100 قدم ، وتمتدّ من سمت شمالي غربي إلى سمت جنوبي شرقي . وهذا الشريط السّهلي الفاصل يبدو وكأنه يؤلف نوعاً من مسهكة تهبّ بها الرّياح ، وقاعه مجرد من الرّمال بفعل الرّيح السّائدة من الشمال الغربي والجنوب الشرقي .

---

(1) كان المؤلّف دخل الصَّمّان شمالاً (الفقرة 38) من منطقة الوريعة جنوبي تلّة الكبريت الواقعة بناحية الشقّ إلى الجنوب من الوفرة . أما الآن فهو لن يتابع طريقه شمالاً إلى الكويت كما أتى ، بل سينحرف شرقي الدّهناء إلى الأحساء وميناء العُقير .

بعد أن يرتقي المرء جُروف الصَّمّان المكونة من مواد رخوة سهلة التفتت ومتكسرة إلى أحواز ، يصل إلى جُرد منكسر مغطى برجوم الحجارة ، ثم بعد مسافة قصيرة يتعرّج بين رتل من الآكام الرّملية التي ترتفع وكأنها نفود صغرى . ولعل هذه الرقعة الرّملية هي مستودع الرّمل الذي يهب منها وإليها عبر القمع الريحي المذكور آنفاً . وبعد الإفضاء من هذه الآكام تختلف قسمات الجُرد كلياً وتنفتح على تلاع جرداء غير متكسّرة تمتد على مدّ البصر ، ويكسوها الحصى والحجارة الصغيرة المتشظّية .

هذه هي الصَّمّان بحدّ ذاتها ، ولقد نزلنا بها عند الغروب . إن الأراضي المحيطة بنا لم يكن بها ما تعتلف به جمالنا أو ما نوقد به نارنا ، وكانت درجة الحرارة هذا الصباح تقريباً أبرد من كل ما مرّ بنا سابقاً حتى الآن . وبفضل وسيلة ختم القِرَب بقي الماء معنا بشكل جيد ، واكتشفت من خلال التجربة أن تبخّر الماء من قربة مختومة يقلّ عمّا هو عليه من غير المختومة ، وكان أتباعي متلهفين للشرب خلال النهار .

خلال العصر مررنا عن بعد بقافلة من الحجّاج العَجَم المتّجهين إلى مكّة ، كانوا قد نزلوا بالقطيف وهم الآن في طريقهم إلى الرّياض[1] .

– 94 –

أتممنا اليوم اجتياز الصَّمّان ، ومرّة أخرى مررنا بمنطقة ذات هضاب مسطّحة الذُّرى وآكام أصغر منها ، وتركيبها أخفض من تركيب النّفود . والعرب يسمّونها النّفود الصّغرى . وخلال الساعات الأربع الأولى كانت السّهول أيضاً جرداء من الخضرة ، ثم ظهرت الأجمات الهزيلة المألوفة ، لكنها ذاوية وجافّة .

(1) كان الحجّاج الإيرانيون يعبرون الخليج إلى القَطيف فينضمّون إلى قوافل حج الأحساء عبر وسط نجد إلى الحجاز . وكان من أنظمة الدّولة السّعودية الأولى أن تمرّ قوافل الحج بالدّرعيّة العاصمة بعد أن أمّنت دروبها في الأحساء ونجد ، وتستضيف الحجّاج عدّة أيام بغية إطلاعهم على مبادئ الدّعوة السّلفية ، كما يذكر مؤلف كتاب لمع الشّهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب (ص 52–53) . وهذا ما حرص عليه الإمام فيصل ، موقعاً أشدّ العقوبات بمن يعتدي على الحجّاج . عنوان المجد لابن بشر ، 2 : 140 .

في النهار مررنا بأكبر قافلة جمال نراها حتى الآن ، وهي تنتمي إلى فخذ من قبيلة الدّواسر التي تغرّب الآن لاقتراب فصل الصيف . أراني أحد أبناء القبيلة فرساً أصيلة فارهة ، وعرضها علي للبيع مقابل 400 ريال ! أصبح الطقس اليوم أدفأ بنحو ملحوظ ، والهواء أشبه ما يكون بهواء البحر . توقفنا مع حلول الظّلام على بعد ميلين من سلسلة هضاب سود يُقال إن الآبار التالية تقع تحتها .

خلال عصر اليوم تبادلتُ الحديث مع أحد رجال الإمام ، من عشيرة مُرّة التي تقع مضاربها جنوب المنطقة التي نجتازها الآن[1] ، فإذا به يُسمّي الصّحراء الكبرى في الجنوب بالثُّمامة ، وتحدّث عن جبل يَبرين الذي هناك بأنه كان في زمن مضى منطقة خصبية وافرة المياه ، كانت تقوم بها في الماضي الغابر مدينة كبيرة[2] ، وهذه المدينة الآن خربة ، وأقنية المياه بها دُرست وانطمست تحت الرّمال ، وأقفرت تلك الناحية نسبياً . ولكنه ذكر أن قبيلته تذهب هناك في فصل معيّن من العام لجني الرُّطب ولالتماس المرعى . ولقبيلته رسن مشهور من الخيول يُعرف باسم المُرَّة ، وأخبرني أنه يمتلك منها ثلاثة رؤوس مُطهمة ترعى الآن ما بين الكويت والبحرين ، وأنه يسرّه أن يتقاسمها معي . وأخبرني فضلاً عن ذلك أنه كان سافر إلى نجران وحَضْرَمَوت ، وتحدّث بغاية الإعجاب عن تلك النّواحي .

بَدَت على جمالنا اليوم بوضوح معالم الإعياء ، فلقد أثّرت فيها الحرارة وانعدام المرعى خلال اليومين الفائتين أيما تأثير ، وأرى أنها بالكاد تستطيع إيصالنا إلى ساحل البحر . لكن هذا مع ذلك يُعدّ منها إنجازاً ، فعند ذلك تكون قطعت 900 ميل في 30 يوماً ، بما فيه فترة مكوثنا في الرّياض ، وحتى خلال هذه الفترة أيضاً كان عليها أن تسير إضافياً ما بين العاصمة والمراعي القريبة منها .

---

(1) تمتدّ ديار آل مُرّة من نواحي نجران جنوب غرب الرّبع الخالي ، لتشمل غربي الرّبع وشماله وتقارب نواحي الأحساء شمالاً . أما الجزء الشمالي من ديارهم فيبلغ الدهناء غرباً .

(2) تذكر كتب الجغرافيين العرب القدامى يَبرين كواحة عامرة ومأهولة خلال صدر الإسلام ، لكنها خربت بغزوات القرامطة . أما الصّحراء الكبرى في الجنوب فهي الرّبع الخالي ، والاسم حديث ، إلا أنه لم يكن «الثّمامة» كما يروي (انظر الفقرة 54) . وجزءها الواقع جنوبي الأحساء مباشرة يسمى رمل يَبرين . راجع : معجم المنطقة الشرقية للجاسر ، ص 1869–1877 ؛ دليل الخليج ج. لوريمر ، القسم الجغرافي ، 3 : 381–382 .

كان مخيّمنا ليلة الأمس على السلسلة الشرقية القصوى من الهضاب الرّملية ، والتي تنحدر الأرض من بعدها فجأة إلى تدرّجات من السّدود الرّملية ، ثم ترتفع تدريجياً إلى سفح سلسلة من الهضاب السّود . وهاهنا وجدنا الكثير من المياه الصالحة للشرب على عمق حوالي سبعة أقدام من سطح الأرض[1] .

بعد أن غادرنا الآبار عاودنا الصعود وأفضينا إلى التّلاع أو السهول المتموّجة التي تؤلّف بداية مناطق الأحساء[2] . وهذه التلال مغطاة أحياناً بالرّمال ، وأحياناً أخرى تراها رخوة عطنة ذات أديم متفسّخ . وأغلب أجزاء هذه المناطق مليئة بالحجارة ، وتشبه في شكلها العام سهول الصَّمّان المكشوفة .

كان انحدارنا اليوم أكثر نزولاً وشدّة من كل ما مرّ بنا ، وأصبح الطقس حاراً ورطباً نسبياً ، يذكّر بطقس الخليج العربي . أما جمالنا فقد بلغت حد الإعياء التام وانهار اثنان منها إلى الأرض خائري القوى ، فقد مضى لنا حتى الآن 12 ساعة في مسيرة مستمرة ، وكنتُ أنوي المتابعة ساعة أو اثنتين ما بعد حلول الظلام ، وذلك لضمان وصولنا الأحساء عشية الغد ، ولكن بدا بوضوح أن الجمال كانت عاجزة عن ذلك ، فاضطررنا إلى التوقف مرّة واحدة ، تاركين المجال لدوابنا ترعى كما يحلو لها .

بشكل عام كان طريق عودتنا شرقي الدَّهناء قاحلاً جداً ، بالمقارنة مع الطريق الذي سافرنا عليه عند مجيئنا بالبرّ الداخلي ، ولسنا نرى على الطرف المحاذي للخليج من الصَّمّان على طريق الأحساء ، أياً من تلك السّهول النضرة الممتدّة بين الكويت والصَّمّان ، والتي أتاحت لجمالنا مرعى وافراً .

---

(1) وهكذا نجا الدّليل الصّلّبي العجوز من تهديد ييلي له بالقتل في 10 مارس (فقرة 89) .

(2) يذكر المؤلف (الملحق رقم 4) آبار El Jowd على اعتبارها أول منهل يرده بعد منهل رملان وأول محطّة يتوقف بها بعد خروجه من الصَّمّان . فيبدو بوضوح أن الآبار التي وردها هنا هي منهل «جودة» المعروف ، والواقع إلى الغرب من وادي المياه ومرتفعات الطُّف ، كما يبدو أن القافلة قد تركت طريق مخَيّط الذي يمرّ بمنهل العثمانيّة ، لتتجّه شمالاً وترد منهل جودة ، وهذا ما يتبيّن في خريطة المؤلف . أما التّلاع المذكورة فهي الطُّفّ .

لم نر اليوم أيّ أعرابي ، لكننا اجتمعنا عند الآبار برجال الإمام ، وكالعادة كانت القهوة مشروبنا ، تم طحنها في نفس المكان في مهباج معدني ثقيل . ومما يلفت الانتباه أن العربي الذي لا يكلّف نفسه عناء حمل ثياب إضافية معه لتبديل ما يتّسخ منها ، لا ينسى أبداً أن يحمّل راحلته دلّة القهوة والمهباج وباقي عدّة القهوة[1] . وإلى هذه العدّة أضاف أصحابنا اليوم مبخرة صغيرة أداروها بيننا بعد تناول القهوة ، فكان كل واحد يسدّ منخريه جاعلاً المبخرة تحت فمه مباشرة لكي يتنشّق البخور ، ثم يمرّ بالمبخرة على صدره عدّة مرات كأنما ليعطي الرائحة لثيابه . وكان بقهوتنا اليوم قدر كاف من الزّعفران ، وفي بعض الأحيان يُضاف إلى الدّلة قطعة عنبر لإضفاء النّكهة على القهوة .

– 96 –

لمّا قدّمنا خروفاً لعكّامتنا اليوم رغب الطاهي أن نحتفظ لأنفسنا بالكليتين ، لكن ذلك أسخطهم كثيراً فرفضوا قبول الخروف . غير أني لم أعرهم اهتماماً ، وسرعان ما وجدتهم منهمكين في إعداد الطعام ويتحلّقون حوله ليأكلوا ببالغ الشهية والاستمتاع .

في اليوم 16 تابعنا طريقنا باتجاه بلدة الأحساء ، وقرابة العصر اجتزنا رتلين من الهضاب[2] . وكان من المتعذّر علينا بلوغ البلدة اليوم ، فتوقفنا عند مغيب الشمس ، قبل ارتقاء الرّتل الأخير الذي يشرف على سهل الأحساء .

---

(1) لا يستقيم لمستشرق فهم مكانة القهوة لدى العربي ومعناها الكبير في تراثه وعاداته الفكرية والاجتماعية ، فالقهوة ليست مجرّد مشروب منبّه مكيّف لذيذ الطعم ، إنما هي جزء مهم من السّلوك العام لحياة البداوة العربية ، انتقلت أيضاً إلى حياة العرب في حضرهم . وفي كتاب «عوائد عرب الرّولّة وشمائلهم في بوادي الشام والجزيرة» ، للمستشرق التشيكي ألويز موزيل (سلسلة روّاد المشرق العربي) ذكر كبير لها وللأشعار المروية عنها .

(2) لعلّ هذين الرّتلين من الهضاب هما المرتفعات التي تحفّ بوادي الفروق من جهتي الشرق والغرب ، والتي تجتازها الطرق المؤدّية إلى الأحساء للقادم من نجد . ويبعد وادي الفروق عن الأحساء حوالي 50 كيلومتراً إلى جهة الغرب ، وكان المؤلف أثبت اسمه بالإنكليزية : Ferooy كأهم مراحل طريقه إلى الأحساء (انظر الملحق رقم 4) . راجع : معجم المنطقة الشرقية لحَمَد الجاسر ، ص 1306–1307 .

– 97 –

في صباح اليوم 17 تقدّمتُ ومعي رجال الإمام وترجماني ، لكي أصل البلدة قبل قافلتنا ، وأتحقق كيف تبدو الأمور . فقادنا الطريق إلى معبر متعرّج في سهل الأحساء ، وتمكنّا من تمييز ذُرى بساتين النّخيل البعيدة . ولما ولجنا السّهل انطلقنا شرقاً نحو هضبة منفردة تقع تحتها مباشرة بلدة الهفوف[1] ، وما وراء بساتين النخيل تقوم في الأفق هضاب تقع إلى الشمال والشمال الشرقي ، وأبعد إلى الشرق جملة منفردة من الهضاب تدعى القارة ، أو هضاب الكهوف ، التي يلجأ إليها أهالي الأحساء طلباً للظلّ والابتراد من قيظ الصيف اللاهب[2] .

– 98 –

عندما شارفنا أعتاب الهفوف التي تستتر مع أرباضها ضمن رياض النّخيل والبساتين عبرنا بلدة المُبَرَّز[3] القديمة الخربة وحصنها (قصرها) اللذين يقعان إلى ميسرتنا مباشرة ، ثم التففنا حول المزارع وخيّمنا في روضة تقع إلى الجانب الجنوبي من الهفوف مباشرة .

---

(1) تقع بلدة الهفوف في جنوب غرب واحة الأحساء ، يعود بناء أقدم معالمها (كقصر الكُوت ومسجد الدّبس) إلى العثمانيين عندما استولوا على الأحساء عام 960 هـ = 1553 م ، ليبعدوا بحاميتهم وموظفيهم عن حمّى الملاريا وسط الواحة . ومنذ ذلك التاريخ أضحت الهفوف القاعدة الإدارية للمنطقة . راجع : تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد للأحسائي ، ص 310 ؛ معجم المنطقة الشرقية للجاسر ، ص 1850 .

(2) جبل القارة تل يقع إلى الشمال الشرقي من بلدة الهفوف ، على بعد 20 كيلومتراً منها . يبلغ طوله حوالي كيلومترين وعرضه كيلومتراً واحداً ، ويخلّله بعض الكهوف والغيران العميقة ، التي تتسم بالبرودة في الصيف والدّفء في الشتاء بسبب عزل الصخر السميك للحرارة في خارجها ، ولذا يلجأ إليها أهالي المناطق المجاورة للابتراد من حرّ الصيف . راجع : معجم المنطقة الشرقية لحَمَد الجاسر (القارة) .

(3) تبعد بلدة المُبَرَّز 3 كيلومتر إلى الشمال من الهفوف ، وكان موقعها موضع تبرز إليه قافلة حج الأحساء قبل مسيرها إلى الحجاز . أضحت في أيام الدّولة السّعودية الأولى من أهم بلدان الأحساء ، حيث كان سكّانها موالين للدّولة ، فأقامت فيها حامية بقصر صاهود إلى جانب حامية قصر الكُوت في بلدة الهفوف المجاورة . أما الدّولة السّعودية الثانية فيبدو أنها لم يكن لها حامية في المُبَرَّز ، بل اكتفت بحامية الهفوف مقرّ الإمارة . راجع : تحفة المستفيد للأحسائي ، ص 133 ؛ معجم المنطقة الشرقية للجاسر (المُبَرَّز) .

تبدو هذه البلدة أكبر وأوسع من الرّياض ، والأحساء بمينائيها القطيف والعُقَير هي حتماً أكبر قاعدة تجارية في الأراضي السُّعودية ، وفيها تُصنع العباءات وبعض الأسلحة ، وتجلب باقي الأسلحة من دمشق ونجران أو البصرة . وثمّة كما أظن سبعة حصون في نواحي الأحساء[1] ، وفي كل منها حامية صغيرة من «السّديس» seedees [2] أو العساكر السُّعودية الأخرى .

وناحية الأحساء تتمتّع بوفرة غنية في المياه من غدران عذبة تفور بغزارة وتجري مياهها في عدّة جداول بجميع الاتجاهات بين البساتين ومروج العشب وأراضي الحدائق . والناحية المرويّة على هذا النحو لها شكل بيضوي غير منتظم بطول ربما 50 ميلاً وعرض يبلغ حده الأقصى 15 ميلاً . رأينا العديد من الفلاحين يحملون منتوجاتهم إلى البلدات ، على حمير حسنة سريعة الهرولة ، وهي محمّلة بما يشبه القفاف الإسبانية ، وعموماً كانت في المكان مسحة من المرح والنشاط لم يسبق أن رأينا مثلها في هذه البلاد من قبل .

– 99 –

كان حاكم الهفوف كريماً [3] ، فأرسل لنا المؤن اللازمة لنا ، ولكن لم يقم أحد بزيارتنا كما جرى الحال فعلاً في الرّياض ، والسبب في ذلك حذره الشديد من الحكومة السُّعودية .

---

(1) من أهم الحصون (القصور) الموجودة في الأحساء أيام الدّولة السّعودية الثانية : قصر الكُوت ، قصر صاهود ، قصر ماجد ، قصر إبراهيم ، قصر خزام . راجع : عنوان المجد لابن بشر ، 2 : 109 ، 124 ؛ معجم المنطقة الشرقية للجاسر ، 1429–1433 .

(2) كذا وردت التّسمية في الأصل الإنكليزي ، ومن خلال اعتيادي على لغة المؤلّف أظنّه كتب العبارة بصورة مغلوطة ، وكأنها صيغة الجمع لكلمة «سيدي» العربية .

(3) أمير الأحساء بأواخر أيام الإمام فيصل بن تركي كان محمد بن أحمد السّديري ، المقيم في الهفوف . خَلَف أباه في الإمارة عام 1277 هـ = 1867 م ، ومكث بها حتى عزله الإمام عبد الله بن فيصل عام 1284 هـ = 1867 م . كان من أبرز الأمراء الذين خدموا الدّولة السّعودية الثانية في الأحساء . قُتل عام 1290 هـ = 1873 م في موقعة «طلال» التي هُزم فيها الأمير سعود بن فيصل من قِبَل الرّوقة من عتيبة . راجع : عقد الدّرر لابن عيسى ، ص 41 ، 44 ، 53 ، 76 ؛ تحفة المستفيد للأحسائي ، 163–167 .

- 100 -

بما أن الأحساء منطقة حديثة الدخول تحت نطاق الدولة السُّعودية ، ومازالت غير معرّضة كثيراً لتشدّد الشّرع السَّلفي ، فإن الحكومة تضع تحركاتها دائماً موضع الشك والمراقبة . وأظن أنه ما من شك في حال وجد إقليما الأحساء والقطيف الفرصة المواتية لهما لانفصلا عن الحكومة[1] .

يبدو الناس هنا فعلاً مرحين بطبعهم ، وهم يتعانون التجارة والزراعة ، ويرتدون الحرير ، والتبغ لديهم يباع علناً في الأسواق . لكنني سمعتُ مؤخراً أن موفدين وشيوخاً من العاصمة كانوا يُبعثون إلى الأحساء لنهي الناس عن المباذل ، ولتطويعهم على النظم الدينية السَّلَفيّة . لكن يبدو أن هؤلاء فوجئوا بالإخباريات التي وصلتهم من الأمير حول مهاجمتنا لسواحله ، ويبدا من الملائم الآن إرجاء أعمال التنظيمات الدينية إلى حين الانتهاء من تسوية الأزمات السياسية .

- 101 -

بخصوص ما تبقّى كانت زيارتي للأحساء قصيرة للغاية ، فلذا لم أتمكن من إعطاء أية تفاصيل حول أحيائها وأرياضها .

- 102 -

خلال اليوم 17 وصباح 18 من الشهر كنا منهمكين باجتياز الفيافي الرّملية الموحشة ما بين الأحساء وميناء العُقَير ، فالأحساء واحة في الواقع ، وحالما يجتاز المرء آخر رياض النخيل فيها فهو يلج قفراً من الكثبان الرّملية ، إلى أن يلوح

---

(1) في واقع الأمر يحمل هذا الكلام مغالطة واضحة ، فالأحساء والقطيف كانتا أكثر ولاء للدّولة السّعودية الثانية من بعض نواحي نجد ذاتها . ولقد دانت لحكم هذه الدّولة منذ وقعة السَّبِيَّة عام 1245 هـ = 1829 م التي كسر فيها الإمام فيصل شوكة بني خالد ، إلى أن استولى العثمانيون على المنطقة عام 1288 هـ = 1871 م . وطوال هذه الفترة بقيت الأحساء والقَطيف على ولائها للدّولة ، دون ميول انفصالية ، إلا ما كان يبدر من قبيلة العُجمان التي كانت تطمح في وراثة مكانة بني خالد في المنطقة . راجع : عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر ، 2 : 49 ، 61 ؛ تحفة المستفيد للأحسائي ، ص 148 ، 150 .

لناظريه مباشرة من السلسلة الأخيرة حصن وجون العُقَير[1] .

وبالفعل ، كما رتبنا سابقاً وجدنا المركب البخاري راسياً على مقربة من الشاطئ ، وزورقاً صغيراً ينتظرنا عند المرفأ . واتضح أن طاقم الزورق قد نزلوا الشاطئ كما هو مفترض ونصبوا خيمة صغيرة مهيأة بالزاد لاستقبالنا ، لكن الحاكم الذي تلقّى أنباء مغلوطة بأنني لم أكن موضع ترحيب في العاصمة أمر بتقويض الخيمة وأن يركب رجالنا متن الزورق . ثم عندما وجد نفسه مخطئاً أصبح الآن مهذباً بشكل مكفهرّ . ولقد أرسلتُ بطلب طاقم إنكليزي واقترحتُ على الحاكم أن يقدّم اعتذاراً ، ففعل ذلك واعتذر .

- 103 -

بعدما صعدنا متن المركب البخاري أبحرنا على طول القنال ما بين جزيرة البحرين والبرّ الرئيسي ، ومن هناك عرّجنا على بلدة المنامة الواقعة على أكبر جزر البحرين ، وأجرينا بعض الإجراءات الضرورية مع الشيخ[2] ، وبعد ذلك عدنا أدراجنا عبر الخليج العربي إلى بوشهر[3] .

- 104 -

في مذكرتي السابقة قمتُ بتقديم بعض الملاحظات المتسرعة حول فيض المياه في أواسط وشرق الجزيرة العربية ، وكل الملاحظات التي قمتُ بها منذ ذلك الحين لم تؤدِّ بي إلى تغيير جذري في رأيي الذي عبّرت عنه آنذاك . ولدي اعتقاد كافٍ أن الانحدار العام للأراضي من مرتفعات نجد يتّجه جنوباً وشرقاً .

---

(1) العُقَير ميناء على ساحل الخليج العربي ، منفذ بحري لواحة الأحساء والمناطق الواقعة غربها جنوبي نجد ، كانت ترد عبره تجارة الهند وإيران وغيرها ، وتخرج منه القوافل التجارية إلى الأحساء ونجد . يبعد عن الأحساء حوالي 80 كيلومتراً ، وكان به قصر وقيصريّة (خان للقوافل) . فقد في القرن العشرين أهميته بظهور الموانئ الحديثة كالدّمّام ورأس تنّورة . راجع : معجم المنطقة الشرقية للجاسر ، ص 1178-1182 .

(2) شيخ البحرين آنذاك كان محمد بن خليفة ، حكم 1258-1284 هـ = 1841-1867 م .

(3) وبذلك تنتهي رحلة الكولونيل لويس پيلي التي دامت من يناير إلى 18 مارس 1865 م .

ثانياً : تحمل مناطق الهضاب آثاراً واضحة للفيض السريع للعديد من السّيول ، صحيح أن هطول المطر ضئيل دون شك ، ولكن هناك مع ذلك فيضاً كبيراً في المياه .

ثالثاً : حول اللّحوف الشرقية والجنوبية للهضاب[1] ، هناك ينابيع مياه عذبة تفور على مدار العام في نواحي الخَرج واليمامة وبنواحي سُدَير .

رابعاً : وجدنا أن السّيول الرئيسية ، على سبيل المثال تلك التي تنزل وادي حنيفة وناحية العَرَمة قادمةً من هضاب اليمامة ، تغذّي الآبار بالمياه على عمق غير كبير ، ثم تتلاشى مياهها في رمال الدّهناء واليمامة .

خامساً : هناك في الجُرد الأدنى بالقرب من الشريط السّاحلي سلسلة ثانية من الينابيع العذبة الأكثر غزارة ، في نواحي يبرين والأحساء والقَطيف .

سادساً : نجد أيضاً بعض المياه العذبة تنبع في المناسيب الواطئة من جزائر البحرين .

سابعاً : توجد بالقرب من البحرين وإلى الشمال من رأس تنوّرة غدران عذبة على عمق 3-6 قامات في الخليج العربي .

كل هذه الحقائق تدلّ على أن الماء الذي يفيض من هضاب نجد كمركز رئيسي يرتشح باتجاه شرقي وجنوبي ، ويزداد عند جميع المجموعات المنخفضة من الينابيع بفعل الأمطار القليلة في القفار الفاصلة ، ثم بالمحصّلة النهائية يصبّ في الحُيود البحرية المرجانية للخليج العربي .

- 105 -

ليس هناك حسبما رأيت أو سمعت أي نهر دائم الجريان ، أو ترعة كبيرة تجري على سطح الأرض باتجاه الشريط الساحلي الممتد بين الكويت في رأس الخليج العربي نزولاً إلى رأس المُسَندم على المدخل الجنوبي للخليج .

---

(1) المقصود بها هضاب جبل طُويق .

على طول ساحل عُمان ما بين دَبًّا ورأس الحـدّ تهطـل الأمطار بغـزارة أكـبر دونما شك ، ومناطق الهضاب فيها أكثر ارتفاعاً وأقرب إلى الشريط السـاحلي ، وتربة السّهل الفاصل بينهما أقل نفوذية . يمكن تشبيه المنطقة العُمانيـة مـا بـين دَبًّا ومَسْقَط بسهل ضيّق يتراوح اتّساعه بين 20–30 ميل ، تسنده خلفاً سلاسـل جبـال ترتفع من 3 إلى 6 آلاف قدم ، وتنحدر هذه الجبال نحـو البرّ الداخلي إلـى ظهـور وجُرود عالية ، حتى تتلاشى في صحراء الجزيـرة العربيـة الكـبرى[1] . وإذا قارنّاهـا بمنطقة غرب الهند ، فيمكن تمثيل السّهل السّاحلي بالكونكان Concan ، ومنطقـة الهضاب بالغات Ghats ، والجرود الداخلية بهضبة الدّكّن Deccan .

لكن حتى في هذا القطاع من عُمان الوافر بالمياه نسبياً لا يوجد كمـا شـاهدت أو سمعت أي ماء جارٍ دائم يبلغ الشريط الساحلي . ولا شك أن مجاري السّيول عريضة ، وفي بعض الأحيـان يتعـذّر اجتيازهـا . فـوراء السِّيب علـى سبيل المثال على الطريق إلى الجبل الأخضر وادٍ تمتدّ فيه شَـرْجات مائيـة منبسـطة علـى فواصـل خلال فترة طويلة من العام ، ولكن حتى هنا ما مـن نهر دائـم يبلـغ البحـر ، وبعـد هطول المطر يشبه السّهل بحيرة شاسعة من الماء لا يمكن عبورها في الصباح ، ثـم في المساء يصبح وادياً موحلاً ، به برك ماء على طول مجاري السّيل فيه .

– 106 –

إلى الجنوب من مَسْقَط بالقرب من رأس الحد تتحدّر منطقة الهضاب بشـكل شبه عمودي باتجاه البحـر ، وعنـد منتصـف المسـافة إلـى صُـور علـى هـذا الشـريط السّاحلي تبرز من بعض الهضاب ذات القمم العالية رُعون تبلغ الشـريط السـاحلي تقريباً ، وتضاهي بخُضرتهـا وبمناخهـا أراضـي الجبـل الأخضـر المشـهورة بنُضرتهـا وثمارها . وأشير بالمناسبة إلى أنه عند سفوح هذه السلسلة العالية قد أقيمت أولى حصون البرتغاليين . لكن لا يوجد هناك أي نهر .

---

(1) يُعرف السّهل السّاحلي الضيّق بسهل الباطنة ، والجبـال التي تسنده غربـاً بـالحَجَر الشرقي والغربي . ويتوسّط سلسلتي الحَجَر الجبل الأخضر الأكثر ارتفاعـاً . أمـا الجُـرود الواقعـة خلف الجبال إلى الغرب فهي إقليم الظاهرة ، تنحدر تدريجياً إلى رمال الرّبع الخالي .

أما حول الأوضاع السياسية للحكومة السُّعودية فهي ، كما أشرتُ آنفاً ، تتألف من حلف من القبائل المنضمّة أساساً بالقوّة والمتلاحمة ببعضها تحت شعار الدين ، ولا شك أن هذا الحلف السُّعودي يشكّل خطراً على جيرانه ، لكن هذا لا يمنع من أنه يحمل في طيّاته بذور التّفكك . وهو يسيطر على السّاحل الغربي للخليج العربي وعلى ساحل عُمان . والحلف يتلقى الزّكاة[1] سواء بأموال نقدية أو سلع عينية من مشايخ البحرين وأبو ظبي ودبيّ وأم القيوين وعَجْمان والشارقة ورأس الخيمة . وله موقع عسكري متقدّم في البُريمي ، يفصل بين هؤلاء المشايخ وسلطنة مَسْقَط ، التي تخضع بدورها للحلف أيضاً .

أما في الشمال فللسُّعوديين مع شمَّر[2] علاقات وديّة تتراوح بين مَدّ وجَزر ، فهم يتلقّون الزّكاة منهم عندما يكونون في موضع القوة ، وإلا يكتفون بالاحتفاظ بما لديهم . وعلاقاتهم سيئة عادةً بعشيرة عِنْزَة الضخمة ، التي تنتشر مضاربها في الصّحارى الشمالية . وأما العلاقات بالحجاز والديار المكرّمة فتقتصر على تسهيل مرور قوافل الحج . أما مع نجران على حدود اليمن فالاتصال محدود وهو ذات طابع تجاري بحت . والعلاقة السائدة بينهم وبين عشيرة الظفير القريبة من نهر الفُرات تتّسم بالتعايش السلمي ، وقد يدبّ النّزاع بينهم أحياناً .

أما باقي القبائل فترعى على حدود أراضي نجد تحت شروط متفاوتة ، فبعض القبائل مثلاً قد تُعطى حق استعمال المراعي ، لكن دون أن يحق لها التماس حماية الحكومة المركزية . والقبائل الرحّل الداخلة فعلاً في الحلف يتم التعامل معها كما مرّ ذكره سابقاً في هذا التقرير .

---

(1) يستخدم المؤلف كلمة : tribute أي الجزية ، لكننا آثرنا ترجمتها بالزّكاة ليستقيم المعنى .

(2) أي جبل شمّر وأمراؤه آل رشيد من فخذ العَبْدة من عشيرة شمّر . كانت عاصمته حائل بيد آل علي ، فلمّا ساد عليهم عبد الله بن رشيد وأخوه عُبيد بمعونة الإمام فيصل بات آل رشيد أسياد المنطقة ، وتمكّن أمرهم إثر عودة فيصل من أسره بمصر 1843 م وطوال حكم دولته السّعودية الثانية (1843-1865 م) . لكنهم بوفاته 1865 م ، قلبوا لآل سعود ظهر المجنّ ، وانفردوا بحائل التي غدت أقوى إمارة بنجد تحت حكم أبناء عبد الله : طلال ومتعب ، ثم بالأخص محمّد (1872-1897 م) . راجع الفقرة 45 أعلاه .

لكن لا يُفهمنّ من ذلك أن النواحي المتمدنة والنواحي الرّعوية تضم بالمثل قبيلة راحلة وأخرى متوطّنة ، بل على النقيض قد تجد القبيلة نفسها مارّة بكل مراحل التطور هذه . فقد يكون أحد أقسام هذه القبيلة مُنتجعاً بالمواشي والقطعان من نجد إلى نواحي الكويت والبَصرة ، بينما يستقرّ جزء آخر في المدن ويشتغل بالحرف الصناعية ، في حين يكون الشيخ وأتباعه في العاصمة أو حولها يحمل مسؤوليات القبيلة ، أو ليقدّم الحصّة المفروضة عليه من العسكر للأمير[1] .

الواقع أن المرء يرى بأم عينيه هنا مجتمعاً في طور التكوين . والأوصاف التي نقرأها في سفر أيّوب تصوّر بشكل تمثيلي ما يجري الآن في الجزيرة العربية ، وطالما بقيت هذه المناطق تعاني من وطأة تكوينها الجغرافي السّائد فلربما يبقى العرب على وضعهم الحالي وكما كانوا منذ فجر التاريخ .

- 108 -

هناك مناطق أخرى ضُمّت بالقوّة ، تختلف تماماً عن نجد موئل السَّلَفية من حيث طبائعها وعاداتها التي تتباين كثيراً مع طبيعة الحكم السَّلفي ، ومن هذه المناطق مثلاً إقليما الأحساء والقطيف[2] ، ومنها أيضاً دون شك مشيخات مَسْقَط وسلطنتها البحرية ، في حال تم إكراهها على الدخول في التّنظيم السَّلفي .

وسبب ذلك أن هذه المستوطنات القائمة على البحر لها علاقات مباشرة بالحضارة الخارجية ، مما يجعلها بالتالي غير متقبّلة للحكم الديني ذي الأصول الثابتة المتعصّبة والمتشدّدة ، والمرتبطة بالعقائد الأصولية المطروحة في القرن السّابع الميلادي ، بل سترى فيها تعاليم مُضجرة ورجعية لا تُطاق[3] .

---

(1) في أمثلة القبائل النجدية المنقسمة إلى جناحين : بدوي وحضري ، نرى أن العلاقة بين الجناحين لا تكون وثيقة دوماً ، لا بل حتى يكون لكل بطن أو فخذ شيخه الخاص ، بغير شيخ عام (على نقيض عشائر الشّمال مثلاً ، كالروَلَة والعمارات والسّبَعة والفدعان وشمّر) . وتتراوح علاقات هذه الأفخاذ والبطون ببعضها وبالدّولة حسب الحال .

(2) لكن الواقع أن المناطق الشرقية للجزيرة كانت من أكثر الأطراف ولاءً للدّولة السعودية الثانية . راجع ما تقدّم في الفقرة 100 والحاشية عليها .

(3) هذه تخريصات فارغة من المؤلف يحاول فيها التجريح بالدّين .

والأمل الوحيد لهم في الخلاص - في حال توسّع التسلّط السّلفي - هو في الحقيقة القائلة أن أهل السّاحل ، بما يمتازون به من ذكاء وغنى أكثر من السّلفيين المقيمين بالدّاخل ، بإمكانهم التأثير في حكّامهم تدريجياً ، أكثر مما يستطيع هؤلاء الحكّام احتواءهم وتسييرهم .

- 109 -

يلاحظ القارئ أنني قد سمّيت الحاكم السُّعودي على حدّ سواء باسم الإمام أو الأمير . وفي واقع الأمر يُعدّ لقب الحاكم السياسي هو «الشيخ» ، وحتى الآن ليس من النادر أن تسمع البدو يذكرون الأمير فيصلاً باسم «ابن سعود» أو اسم «الشيخ» على وجه التفضيل . ولمّا تزايدت السّلطة السياسية للسّعوديين أصبح يسمّى بالأمير ، وهو اللقب الذي ما برح يُعرف به بين الأجانب . بيد أن اللقب الشائع بين أتباعه المباشرين في العاصمة هو الإمام ، الذي يدلّ على الزّعامة الرُّوحية ، وبذلك يتمتّع الأمير فيصل في قرننا التاسع عشر هذا بامتيازات الأيام الغابرة التي كان يجتمع بها منصبا الإمام والملك في شخص واحد ، وتكون لهذا الشخص الكلمة الفصل في جميع القضايا السياسية والدينية .

- 110 -

لمّا كانت مهمّتي منذ عودتي من الرّياض قد أبقتني مشغولاً بالقضايا المتعلّقة بأواسط وشرقي الجزيرة العربية ، فربما يكون من المفيد هنا إيراد لمحة عن حياة الشيوخ المشار إليهم في هذا التقرير ، حتى تاريخ يومنا هذا .

- 111 -

كان الأمير فيصل الذي يعاني أساساً من وهن الشيخوخة وكفّ البصر[1] حينما قابلته قد أصيب بعد ذلك بفترة وجيزة بحالة شلل ، فقام كما يبدو بالتنازل عن سلطاته لابنه عبد الله في شهر حزيران (يونيو) الفائت .

---

(1) كان الإمام أصيب في أسره بمصر (1839-1843 م) بالرَّمَد وربما بالتّراخوما .

لم تُتح لي الفرصة لمقابلة عبد الله في الرّياض ، هذا رغم أن كلينا كما أعتقد كان توّاقاً إلى هذا اللقاء . ولكن يبدو أن عبد الله خشي إن أنا قابلته وخبرت عن كثب ميوله وطباعه ونقاط ضعفه ، فقد أستطيع في المستقبل أن أمارس نوعاً من التأثير السلبي على مسلكه العملي .

في شهر آب (أغسطس) أذيع نبأ وفاة الأمير بالخطأ من مصر إلى لندن . والواقع أنه توفي مؤخراً بسبب الهَيْضَة (الكوليرا) في 13 رجب 1282 هـ[1] ، الموافق لـ 2 كانون الأول (ديسمبر) 1865 م ، وخلفه في الحكم ابنه عبد الله .

أدّى استلام عبد الله لهذا المنصب إلى الإضرار كثيراً بأوضاع حاجب الأمير السابق محبوب ، الذي جُرّد على الفور من بعض ممتلكاته الشخصية[2] . والواقع أن محبوباً هذا لم يكن أبداً على وفاق مع عبد الله ، وقد سمعتُ أنه الآن في العاصمة يتحيّن الفرصة المناسبة للمغادرة . وكنت قد أخبرته في الربيع الفائت أن الخط الذي يسير عليه قد يؤدّي به إلى المُقيميّة (المندوبيّة) في بوشهر ، ويبدو أنه الآن سيقبل بهذا راضياً ، أو أنه قد يتوجّه إلى مكة .

– 112 –

في الوقت نفسه لا يُعدّ وضع عبد الله نفسه مستقراً هو الآخر . فإقليما القَطيف والأحساء البحرين ، كما ذكرتُ آنفاً ، ليسا مواليين له معنوياً ، وهما ينتظران الفرصة المواتية للانفصال عنه . وكذلك كان شقيقه سعود لسنوات

---

(1) يذكر إبراهيم بن صالح بن عيسى أن وفاة الإمام فيصل كانت لتسع بقين من رجب سنة 1282 هـ ، وتولّى بعده ابنه عبد الله . راجع : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد لابن عيسى ، ص 177 ؛ عقد الدّرر له أيضاً ، ص 49 .

(2) من المعلوم أن محبوباً بن جوهر لم يكن على وفاق مع الأمير عبد الله ، فعندما خلف هذا الأخير أباه في الإمامة انحاز محبوب إلى الأمير سعود بن فيصل ، وبقي معه في الأحساء عام 1288 هـ = 1871 م عندما استولى عليها . ثم بعد أن استولى سعود على الرّياض في العام ذاته أرسل محبوباً على رأس حامية صغيرة إلى البُرَيمي ، فمكث فيها عاملاً لآل سعود حتى عام 1290 هـ = 1873 م ، وتركها حينما تراجع وضع الأمير سعود إثر وقعة طلال . راجع : الدّولة السّعودية الثانية لعبد الفتّاح أبو علية ، ص 210 ؛ وراجع :
Winder, R. Bayley: *Saudi Arabia in the 19th. Century*, p. 251, 258.

عديدة خَلَت خصماً له ، وقد يطمح إلى السّلطة إن هو واتته الظروف . وسعود أقل تسلّطاً من عبد الله ، ويؤثره السكان الحضريون على شقيقه ، فيما ترتكز قوة عبد الله على شخصيّته كمحارب ، وبالتالي تقدير البدو الرحّل له .

ولعبد الله كذلك اثنان من أبناء عمه ، هما محمّد بن ثنيان وثنيان بن ثنيان ، قد لا يتورّعان عن التعاون للانفراد بالإمامة إن لاحت لهما الفرصة المواتية[1] . وبعض عشائر نجد نفسها يقال إنها قد تكون ميّالة إلى العصيان ، ولقد سمعتُ من بعض العارفين بأننا لو أحببنا إضرام نار الفتنة في الأزمة الواقعة حالياً بين مَسْقَط والسُّعوديين ، فربما يؤدي ذلك إلى انفراط عقد السُّعوديين مؤقتاً ، أو على الأقل كسر شوكتهم لفترة طويلة من الزمن[2] .

- 113 -

طالما بقيت الأمور على ما هي عليه الآن ، فلعلّ الحكومة السُّعودية تبقى مقيّدة لبعض الوقت . ثم لن يلبثوا أن يتابعوا توسيع نفوذهم ، وإن تمكن عبد الله من إحكام قبضته في الداخل وأمِنَ في نفس الوقت من تدخّلنا الخارجي ، فربما تكون النتيجة أن يحكم الحلف السُّعودي سيطرته للتوّ على مشايخ الخليج العربي (Pirate Coast)[3] ، وتقع المنطقة الشرقية من جزيرة العرب (من الكويت إلى رأس الحدّ) في قبضة السُّعوديين في النهاية ، أكان ذلك برضاها أم بدونه .

---

(1) هما ابنا الإمام عبد الله بن ثنيان ، حكم بين عامي 1257-1259 هـ = 1841-1843 م إبّان أسر الإمام فيصل بن تركي في مصر . والذي كان من أمرهما فيما بعد أن محمد بن عبد الله بن ثنيان انضمّ إلى الأمير سعود بن فيصل في البحرين عام 1287 هـ = 1870 م . أما محمد بن ثنيان فقد قُتل في قطر في السنة ذاتها ، في وقعة حدثت بين قوات الأمير سعود وسريّة لأخيه الإمام عبد الله بن فيصل . راجع : عقد الدّرر لإبراهيم بن صالح ابن عيسى ، ص 64-65 ؛ تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء للأحسائي ، ص 168 .

(2) هذا بالفعل ما لجأ إليه الإنكليز فتدخّلوا في النّزاع إلى جانب مسقط ، وقامت سفنهم الحربية بقصف عَجمان ، وفي شباط (فبراير) 1866 قصفوا قلعة القَطيف وكذلك قصفوا الدَّمّام وصُور . وبالإجمال لعب الإنكليز دوراً كبيراً في تقليص الدّولة السّعودية الثانية بعد وفاة الإمام فيصل ، إلى ختام القرن التاسع عشر .

(3) كذا بالأصل ، كما كان الإنكليز يسمّون ساحل الخليج العربي . انظر الفقرة 10 .

- 114 -

نعود الآن إلى ذكر النزاع بين السُّعوديين وبين مَسْقَط . فكما أشرت آنفاً ، لم أكد أعود من الرّياض إلى بُوشهر بما أقمته من علاقات طيّبة حتى أخطرتني الحكومة بوجوب إرجاء متابعة نتائج مهمتي هذه ، وذلك لحساب الصّالح العام ، وأن عليّ أن أبذل كل ما بوسعي لتسوية النزاع ما بين حليفينا المعتدي والمعتدى عليه ، أي الأمير السُّعودي وسلطان مَسْقَط . وبالفعل ، أبحرتُ إلى مَسْقَط حيث طلب مني السلطان أن أتوسّط لإنهاء الحرب بما أراه يحفظ حق الطرفين . وسلّمني سموّه بياناً خطياً بهذا الفحوى ، وثم عرض هذا الاتفاق على الحكومة السُّعودية ، لكن لم يكن ثمّة من رد .

في هذه الأثناء توجهتُ إلى إنكلترا ، فيما كان السُّعوديون يستأنفون غزوهم لأراضي مَسْقَط . وكان من بين الفظائع التي جرت أنهم قتلوا ونهبوا بعض رعايا الهند البريطانية المُقيمين بأمان في ميناء صور بأراضي مَسْقَط[1] . ولدى إيابي إلى الهند اعتبرت الحكومة أن الخطر المحيق بتحالفنا بات كبيراً ، وأن الوقت صار مناسباً لنتدخل في كبح جماح الحملات السُّعودية . لذا أُوفدتُ ثانية إلى مَسْقَط ، وأخيراً جنح الأمير السُّعودي إلى السّلم وأرسل بعض الموفدين يحملون مبادرات سلام ، ووقّع بياناً خطياً يتماشى مع آمال الحكومة البريطانية في الهند[2] .

- 115 -

لكن في غضون ذلك ، عندما كان سلطان مَسْقَط على وشك شن هجوم فاصل قُتل غيلةً على فراشه بيد ابنه[3] الذي أعلن نفسه على الأثر حاكماً بعد أبيه ، وأودع عمه السيّد تركي غياهب السجن وحاصر خادم أبيه الخاص ، وتهدّد أمّه

---

(1) حول هذه الحادثة راجع : الدّولة السعودية الثانية لأبي علية ، ص 199 ؛ وراجع :
Winder, R. B.: *Saudi Arabia*, pp. 230-33.

(2) أبرز الموفدين كان الشيخ محمد بن عبد الله بن مانع ، كتب البيان المذكور نيابة عن الإمام عبد الله بن فيصل . راجع : أبو علية ، 202 ؛ وأيضاً : Winder: *op. cit.*, pp. 234-45

(3) ويُدعى سالم ، اغتال أباه السيّد ثويني عام 1866 م ، فأدّى ذلك إلى الإضرار بمخططات الإنكليز في سياسة المنطقة .

لمعارضتها له ، وتوعّد ببيع أخوته غير الأشقاء كعبيد ، بذريعة أنهم من أبناء الجواري . وكذلك سنّ قوانين سخيفة ومتعصّبة بحق الرّعايا البريطانيين المُقيمين ضمن أراضيه ، وأغرق الدولة برُمّتها في فوضى عارمة .

لذلك توجّهتُ إلى مَسْقَط في هذه الأزمة وتمكّنت من أخذ رعايانا وممتلكاتنا الثمينة على متن السفينة ، وإبعاد رعايانا الهنود البريطانيين بالمراكب ، وكذلك الإبقاد على حياء أخي السّلطان السابق ووزيره . فلمّا وجد قاتل أبيه نفسه في وضع لا يُحسد عليه ويخشى من القتل في كل وقت وساعة ، قام بإرسال موفدين إلى الحكومة البريطانية في الهند ليلتمس منها التأييد . لكن الحكومة لم ترضى بتأييد رجل قتل أباه ، هذا الأب الذي اعتلى العرش تحت الوصاية البريطانية . وما زالت حكومة مَسْقَط الآن بانتظار اجتلاء نتائج هذه المؤامرة .

- 116 -

عندما كنا نقوم بمساعدة السّلطان السابق أصبح من مهمّاتي الاقتصاص من بلدة صُور الساحلية ، التي غزا أتباع السّلفيين فيها رعايانا وأوقعوا حتى فيهم إصابات ، وهذا الميناء كان لسنوات طويلة المركز الرئيسي الذي تبحر منه مراكب الدّاو الشراعية إلى سواحل أفريقيا الشرقية لجلب العبيد .

ولقد تلقّى وكر القراصنة هذا درساً قاسياً من شأنه أن يقنع أهل تلك النّواحي أن الإضرار برعايانا لا يمكن أن يمرّ دون عقاب شديد[1] . وهؤلاء الصُّوريون أنفسهم ، المعروفون ببسالتهم وشدّتهم بين عرب السّاحل ، كانوا هم المحرضين الرئيسيين لمؤامرة تهدف إلى اغتيالي في أراضي زنجبار ، كما كنت ذكرت في رسالتي رقم 113 المؤرخة في 1 شباط (فبراير) 1862 .

* * *

---

(1) لم يقتصر الأمر على معاقبة صُور ، بل أمر پيلي بصفته صاحب القرار البريطاني في المنطقة بقصف موانئ تخضع للحكم السّعودي المباشر كالدّمام والقَطيف ، كما ذكرنا أعلاه . راجع : الدّولة السّعودية الثانية لعبد الفتاح أبو علية ، ص 201-202 .

ختاماً لهذه الرسالة ، يسرّني أن أعبّر عن امتنـاني للمـلازم وورنـر Warner للعناية والدّقة اللذين نفّذ بهما تعليماتي عند انطلاقنـا نحـو الرّيـاض . وإن سـفينة «بيرِنيس» Berenice كما أعتقد هي على الإطلاق أول سـفينة ذات حمولـة كبيرة تجتاز الأقنية غير المستكشفة بعد ما بين جزيرة البحرين وبـرّ الجزيـرة العربيـة . كمـا وأرجو تزكية المستر دوز Mr. Dawes لـدى الحكومـة لما قدّمه من مسـاعدة قيّمة بالقيام بالأرصاد الفلكية على الطريق ، وكذلـك ترجماني المسـتر جـورج لوكـاس Mr. George Lucas ، الذي كـانت معاونتـه لـي أساسية جداً في رحلتـي هـذه وفي رحلات أخرى قمتُ بها حول شواطئ الخليج العربي .

* * *

الإمضاء : المتشرّف بأن يكون

الكولونيل لويس پيلي

Lewis Pelly, Lieut . Colonel

المُقيم (المندوب) السياسي لجلالة

ملكة بريطانيا في الخليج العربي

الملحق الأول

قائمة بالنماذج الجيولوجية
التي تمّ تحليلها في كليّة الجيولوجيا التطبيقية
في شارع جرمين بلندن بإذن السّير مُرتشيسُن[1]

1- حجر جيري سرئي (أوليتي) أبيض سهل التفتّت .

2- كسرات من حجر جيري سيليكوني ، مترابط بحصى المَرو (الكوارتز) .

3- كسرات صوّانيّة حوافّها مشطوفة وسطوحها مصقولة بفعل الاحتكاك .

4- حجر جيري سيليكوني مدمّج بلون بنّي محمرّ فاتح .

5- كسرات مكوّرة من المَرو (كوارتز) وحجر جيري .

6- رمل بنّي مصفرّ ، من حُبيبات المَرو الشفّاف بلون صدأ الحديد الفاتح .

7- حجر جيري متبلور مبيضّ ناعم الحُبيبات .

8- حجر جيري متبلور مبيضّ خشن الحُبيبات .

9- حجر جيري عالي السّيليكا ، يتألف من حُبيبات المَرو مع ملاط كربونات الكالسيوم .

10- كسرات مكوّرة من حجر الحديد البنّي القاسي لعلها عالية السّيليكا .

12 و 13- حجر جيري مدمّج .

* * *

---

(1) هو السير رودريك إيمبي مرتشيسُن Sir Roderick Impey Merchison (1792-1871 م) جيولوجي بريطاني شهير ، ولد في سكوتلندا ، درس الطبقة السفلية المتحجّرة في إنكلترا وويلز ، ووضع التصنيف السّيلوري في الجيولوجيا ، كما وضع التصنيف الديڤوني مع آدم سِدويك . تعاون مع إدوار ڤيرنويّ وكايزرلينك في عمل مسح جيولوجي لروسيا ، كما درس جيولوجيا هضاب سكوتلندا . شغل منصب المدير العام للمسح الجيولوجي ومدير المدرسة الملكية للمناجم .

قائمة النماذج الجيولوجية
كما وردت في الأصل الإنكليزي

LIST of GEOLOGICAL SPECIMENS, *analysed at the School of Practical Geology, jermyn Street, London, by permission of* SIR R. MURCHISON.

1. Friable white Oolitic Limestone.
2. Fragments of Siliceous Limestone, associated with pebble of Quartz.
3. Fragments of Flint, the angles slightly rounded, and the surface polished by attrition.
4. Compact Siliceous light reddish brown Limestone.
5. Rolled fragments of Quartz and Limestone.
6. Yellowish-brown Sand, composed of fine grains of transparent slightly ferruginous Quartz.
7. Fine-grained witish Crystalline Limestone.
8. Coarse-grained ditto ditto.
9. Highly Siliceous Limestone, composed of grains of Quartz cemented by Carbonate of Lime.
10. Rolled fragments of hard brown Ironstone, probably highly siliceous.

12 & 13. Compact Limestone.

الملحق الثاني

قائمة بنباتات أواسط الجزيرة العربية
التي تمَ جمعها وصُنِّفت منذ ذلك بحسب فصائلها الطبيعية[1]

CRUCIFERÆ.
الفصيلة الصليبية

1- حِمْحِم (نوع من المنثور) — *Matthiola* Arabica. Boiss.

يوجد متناثراً على امتداد السّهول من الكويت إلى الرّياض .

2- جُرَيْبَة — *Farsetia* an F. lacers, Dene.

يوجد في المواقع الصخرية في أول آذار .

3- حَزار - خُزَامَة - طَرْبَة — *Malcomia*, aff. M. Aegyptiaca

من التّلال الرّملية يوم 11 آذار .

4- سلّة - شُبْرُم - زِلّة - حِمَّص — *Zilla* Myagroides. Forsk.

شُجيرة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام ومحيطها ستة أقدام ، توجد لكـن بغير كـثرة في اليوم الأول والثاني من آذار .

5- قليجلان (رشاد جبلي) — *Savignya* Aegyptiaca. D.C.

يوجد بشكل هزيل خلال مسيرة 18-19-20 شباط .

---

(1) هذه المجموعة الأولى من القائمة تنتمي إلى طائفـة ثنائيـات الفلقـة مـن مسـتورات البـذور .
وفي نقل أسماء النباتات إلى العربية اعتمدنا المراجع التالية : معجم أسـماء النبـات لأحمـد عيسى ، القاهرة 1926 ؛ علم تشخيص العقاقير لمحمد زهير البابا ، دمشق 1971 ؛ معجـم مصطلحات العلوم الزراعية لمصطفى الشهابي ، بـيروت 1982 ؛ البـدو والباديـة لجبرائيل جبّور ، بيروت 1988 ؛ Post, George: *Flora of Palestine, Syria and Sinai* .
وينبغي أيضاً الرجوع إلى بحث هام لبيتي ڤينسـنت : الأزهـار البرّيـة للمنطقـة الوسـطى في المملكة العربية السعودية ، نُشر مترجماً إلى العربية في ميلانو 1977 .

CAPPARIDEÆ.

الفصيلة الكَبَريَة

6- عُفينة - ضريّط النَّعام - مُنتنة — *Cleome*, aff. Cl. oxypetadae.
أم رميل - ذفرة — Boiss cf. C. glaucus D.C.

من بعض الوطاءات بين الآكام على مشارف الرّياض .

RESEDACEÆ.

الفصيلة الخُزاميَة (البُليحاء)

7- ذَنَبنَب - رُمَيْحَة — *Reseda* Arabia. Boiss.

خلال مسيرة 18-19-20 شباط ، وفي مشارف الكويت .

8- سِمسِم برّي — *Reseda* Alba. L.

وجدنا منه خلال مسيرتنا في الأيام 18-19-20 شباط ، وكذلك في مشارف الكويت .

9- خامَّة - جُرْدَى — Ochradenus beccatus. Delile.

عند الأرض التي خيّمنا بها بأول آذار ، وفي مشارف الرّياض ، لكنها كانت قليلة .

CISTINEÆ.

فصيلة الزّهر الصخري

10- سُوَيْقَة - إرجاً — Helianthemum Lippii. Pers.

توجد بشكل هزيل يومي 24 و 25 شباط .

11- سُوَيْقَة - سَمْهَري — Helianthemum sessiliflorum (?)

في المواقع الصخرية باليوم الأول والثاني من آذار .

CARYOPHILLEÆ.

الفصيلة القرنفليّة

12- أَحَيِّمْ - كَحْلَى　　Silleno villosa (?) Forsk.

في الوطاءات ما بين التلال الرّملية يوم 11 آذار ، بكميّة وافرة .

13- مَكْر　　Polycarpon Loefflingii. Wall.

من السهول شبه الجرداء بين السّلاسل الرّمليّة ، يوم 27 و 28 شباط .

TAMARISCINEÆ.

الفصيلة الأثليّة

14- أثل　　*Tamarix* articulata, Fahl.

شجرة تُزرع بوفرة في البساتين حول الرّياض لاتّخاذ جذوعها روافد للدُّور .

MALVACEÆ.

الفصيلة الخبّازيّة

15- خُبَيِّزة بريّة - خطمي　　Malva borealis? Wallin.

من مشارف الكويت .

ZYGOPHYLLEÆ.

الفصيلة الرّطريطيّة

16- وَرَقَة - حُلاَوى - شُوَيكة　　Fagonia cretica

في المواقع الصخرية بمشارف الرّياض .

GERMANIACEÆ.

الفصيلة الغرنوقيّة (العطرشاهيّة)

17- يَهَق — Monsonia nivea. Gay.

من التلال الرّملية ، في 27 و 28 شباط . وهو يوجد بكمية قليلة نوعاً ما . يزهر في الصباح الباكر ثم تذوي تويجاته عند الظهيرة .

RUTACEÆ.

الفصيلة السّذابيّة

18- فُرَيْطَة - شجرة الرّيح — Haplophyllum tuberculata (?) Forsk.

في يوم 26 شباط . عارية .

LEGUMINOSÆ.

الفصيلة البقوليّة

19- سَنْط - طَلْح — acacia Arabica. L.

شجرة يبلغ ارتفاعها أحياناً خمسة عشر قدماً ، توجد متفرّقة في بعض الوطاءات بعد اجتياز السلاسل الرّمليّة ليوم 28 شباط .

20- حُطَيْبَة — *Ononis* reclinata. L.

من مشارف الكويت .

21- قَفعة - قَتَاد — *Astragalus* angustifolius? Forsk.

توجد بشكل ضئيل في مشارف الكويت ، وبشكل ضئيل جداً في مشارف الرّياض .

22- خُرَيْمَة - قِرْنا — *Hippocrepis* cornigera. Boiss.

من مشارف الكويت .

COMPOSITÆ.

الفصيلة المركَبة

Artemisia Dracunculus (?) — 23- طَرْخُون - حَوْذان

في السلاسل الرّمليّة ليومي 27 و 28 شباط . توجد بوفرة . وهي شجيرة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام .

Phagnalon rrupestre. D.C. — 24- صُوْفَان - قُديح - مُطيع

هذا هو النوع الغالب من الآجام في هذا الجزء من الصحراء . تتفرّع دغلته من الأرض ، ويبلغ ارتفاعها حوالي قدم ونصف ، ومحيطها من اثنين إلى خمسة أقدام ، وعندما تكون وافرة في بعض المواضع يكون بُعد الواحدة عن الأخرى من ثلاثة إلى ستة أقدام . جذرها على شكل هراوة ، ويسهل اقتلاعه من الأرض .

Anthemis melampodina. Del. — 25- أربيان - ربْيان

من مشارف الكويت ، يوم 18 و 19 شباط .

Senecio coronopifolia. Desf. — 26- جِرْجير الجبل - قُرَّيص

من مشارف الكويت ، يوم 18 و 19 شباط .

Anvillea Garcini. D.C. — 27- شجرة الضبّ - نقد

من الوديان الضحلة والوطاءات ، يوم 24 و 25 شباط .

Calendula arvensis. L. — 28- عشبة العقرب - حَنْوَة - كحلة

من مشارف الكويت .

Calendula Ægyptiaca. L. — 29- حِنْوَة - عشبة الغراب - كحلاء - زُبيدة

وجدنا منها خلال مسيرتنا في يومي 18 و 19 شباط ، وكذلك أيضاً في مشارف الكويت .

Echinops sp. — 30- حَرْشَف - خَرْشَف - خَشير

من السّلاسل الرّمليّة ، يوم 27 و 28 شباط .

Circium pratense (?) — 31- ذنب السّبع - لَخلاخ - شوك الحَنَش

يوجد خلال مسيرة يوم 18-19-20 شباط .

DIPSACEÆ.
الفصيلة الدِّبساسيَة

Scabiosa palæstina. L. — 32- أُم رُوَيْس

توجد ولكن بغير وفرة في مسيرة أيام 23–24–25 شباط .

APOCYNEÆ.
الفصيلة الدِّفليَة

Apocynium venetum (?) — 33- خانق الكلب – خَرّوب الكلاب – جُلُبّان الحيّة

ارتفاعه حوالي قدمين ونصف ، يوجد بغير وفرة بالقرب من الأرض التي خيّمنا بها بأول آذار ، وكذلك في المناطق الرطبة في مشارف الرّياض .

ASCLEPIADEÆ.
الفصيلة العشاريَة

Periploca, an P. aphylla — 34- ذَفس – مَرَخ ؟

من الوَهدة التي اجتزناها في 2 من آذار . شجيرة ذات ارتفاع يبلغ عشرة أقدام وسطحها مغطّى بالصّمغ . أزهارها تؤكل بوفرة ويسميها العرب "Muret" .

CONVOLVULACEÆ.
الفصيلة الملتفَة

Convolvulus sp. near lineatus — 35- سِلع – رُحامة

من السهل شبه الأجرد بين السّلاسل الرّملية ، يوم 27 و 28 شباط .

SOLANEÆ.

الفصيلة الباذنجانيّة

36- عنب الدّيب - عقود (نوع من العَوْسَج) *Licium* europæum. L.

شجيرة ذات ارتفاع ستة أقدام ، توجد في الوطاءات خلال مسيرة أيام 1-2-3 آذار .

BORRAGINEÆ.

الفصيلة الحمحميّة

37- رَحَاب - رَمْرَام - زُرَيْقاء - غُبَيْراء *Heliotropium* supinum. L.

في السّهل يوم 2 آذار ، غير وافرة ، ارتفاعها قدمان .

38- أُذن الحمار *Onosma*, sp.

وافرة في التلال الرّمليّة وفي المواضع الرّمليّة . ويبدو أن الجمال تفضّلها على أيّة عشبة أخرى .

39- كُحَيْل - كَحلَى - كَحلاء *Anchusa* ?

من مشارف الكويت .

LABIATÆ.

الفصيلة الشفويّة

40- جُعْدَة[1] ؟ *Teucrium* S. Teucrio aff. T. Oliverianum.

توجد بشكل ضئيل في الوطاءات يوم 2 آذار ، وبوفرة أكبر في المشارف المباشرة للرّياض .

---

(1) حسب ڤينسنت اسمها المحلّي قَصْباء ، طعمها مُرّ ولا ترعاها الحيوانات .

ACANTHACEÆ.
الفصيلة الأقَنْثُوسيَة

41- سِنْف ؟ Acanthodium spicatum. Delile.

منَ الوَهدة يوم 2 آذار ، وهي الوحيدة التي شاهدناها من هذا النوع .

SCROPHULARINEÆ.
الفصيلة الخنازيريَة

42- عَلْقَة Scrophularia sp. aff. Sc. syriaca. Btt.

من السلاسل الرّمليّة يوم 27 و 28 شباط . وافرة . ارتفاعها حوالـي ثلاثـة أو أربعة أقدام ، وهي منتشرة ويتجمّع الرّمل حول سوقها بأشكال هرميّة .

PLANTAGINEÆ.
الفصيلة الدلبيَة

43- رِبْلَه (تشبه آذان الجدي أو لسان الحَمَل) *Plantago* ovata. Forsk.

توجد متناثرة على امتداد السهول من الكويت إلى الرّياض .

CHENOPODIACEÆ.
فصيلة رجل الوز أو الرَمرام

44- أبو ساق - غاسول - خُرَيْسة - حَمْض *Salicornia* fruticosa. L.

وجدنا منها في مسيرة يومي 24 و 25 شـباط ، وهـي تنمـو سـوياً مـع الأجمـات الأخرى .

POLYGONEÆ.

الفصيلة البطباطيّة

45- أرْطى — Calligonum comosum. Zuit.

من السلاسل الرّمليّة يوم 27 و 28 شباط . وافرة ، وارتفاعها حوالي ثلاثة أقدام .

SALICINEÆ.

الفصيلة الصَّفصافيّة

46- مَرْشيش - غَرَب - صَفْصاف — Populus or P. euphratica.

شجرة صغيرة ، يبلغ ارتفاعها عشرة أو اثني عشر قدماً ، توجد على طول جزء من الوادي اجتزنا به يوم 4 آذار .

* * *

MONOCOTYLEDONS.
طائفة أحاديات الفلقة

LILIACEÆ.
الفصيلة الزّنبقيّة

1- يَرْوَق — *Asphodelus* fistulosus. L.

من مشارف الكويت .

2- شَحُّوم - زُعَيْطِمان — *Gagea* reticulata. B. et Sch.

من مشارف الكويت ، وخلال مسيرة 18-19-20 شباط .

3- بُرَّيط ؟ — *Uropetalum* scrotinum. Ker.

يوجد متناثراً على امتداد السّهول من الكويت إلى الرّياض .

IRIDEÆ.
الفصيلة السّوسنيّة

4- سَعِّيد - عُنْصَيْل - بُصَيْل — *Iris* Sisysinchium.

من مشارف الكويت ، ويوجد متفرّقاً في بعض الوطاءات بمشارف الرّياض .

CYPERACEÆ.
الفصيلة السُّعاديّة

5- مِصَيَّع — Cyperus acenarius. Betz.

يوجد بشكل ضئيل ينمو حول الأجمات .

GRAMINEÆ.

الفصيلة النَّجيليّة

6- صَمْع — Stipa an orientalis

ينمو بشكل باقات ، ويؤلف الجزء الرئيسي من كلأ الصحراء .

7- (عشبة ثلاثيّة الأشواك)[1] — *Trisetum* punialum. Kunth.

من التّلال الرّمليّة يوم 27 و 28 شباط . غير وافر .

8- ثُرِي — *Bromus* tectorum. L.

يوجد بشكل ضئيل في أماكن متفرّقة ، وينمو عند جذور الأجمات .

9- الرِّيَّحَة – رِند – مُعَسَّل — *Danthonia* Forskalii. Trin.

من السلاسل الرّمليّة يوم 27 و 28 شباط . ارتفاعه حوالي ثلاثة أقدام .

10- سَفُون – رُكَيْب — *Andropogon* annulatum. Forsk.

من الوادي يوم 3 آذار . يوجد بشكل ضئيل .

11- (نوع من النّجيل مشتبه به) — Gram. dub.

من السلاسل الرّمليّة يوم 27 و 28 شباط . بكميّة وافرة .

* * *

(1) لم يتبيّن اسمها العربي ، انظر وصفها في كتاب *Flora of Palestine*، 2 : 734 ، 750 .
ولها اسم علمي آخر باللاتينية : *Kœleria pumila* .

الملحق الثالث

وصف مراحل الطرق من الكويت إلى الرياض عبر سدوس
والطريق الذي سلكه الكولونيل پيلي هو أولها

مراحل الطريق الأول	اسم الناحية	زمن المسير	ملاحظات
- من الكويت إلى :		بالساعة	
مَلَح	العدان	7½	آبار بمياه مالحة
لقيط	...	4¾	مياه مطر
الوفرة	...	8	مياه مطر
تلّة الكبريت	الشق	10	لا يوجد ماء
الوَريعة............	...	9½	لا يوجد ماء
كنيسات	الصمّان	10¼	آبار قريبة تسمى الوبرة
المهيريّات	الصمّان	10	لا يوجد ماء
الغراّ	الصمّان	10¼	لا يوجد ماء
عريق الدّحول	الدهناء	10¼	قنوات مياه جوفية (دحْل)
أوتاد	الدهناء	8¾	لا يوجد ماء
شوية	الدهناء		لا يوجد ماء
الغيلانة	العَرَمَة		آبار مالحة تدعى الرّماحيّة
عريق بنبان	...		لا يوجد ماء
سدوس	العارض		آبار مياه عذبة
الملقى	العارض		آبار مياه عذبة
الرياض	العارض		آبار مياه عذبة

مراحل الطريق الثاني	اسم الناحية	زمن المسير	ملاحظات
– من الكويت إلى :		بالساعة	
مَلَح	...	7½	آبار بمياه مالحة
لقيط	...	4¾	آبار بمياه مالحة
الوفرة	الصمّان	8	آبار بمياه مالحة
اللّهابة	الدهناء	18	آبار بمياه عذبة
الدجاني	العرمة	24	كذلك
سدوس	سُدَير	10	كذلك
الصُفُرَّات	سنجق[1]	4	كذلك
حرَيْملاء	سنجق	4	كذلك
العُيَيْنة	العارض	8	كذلك
الملقى	العارض	3	كذلك
الرياض	العارض	3	كذلك

* * *

(1) تسمية غريبة ، فلا يُعرف في نجد أي موقع باسم السّنجق Sanjak ، إلا اللهم أن يكون المؤلف كتبه بطريق الغلط ، أو اقتبسه من مصدر ذي صلة بالعثمانيين ، ففي التركية السنجق هو اللواء وكذلك يُطلق على المقاطعة .

الملحق الرابع

وصف الطرق والمسالك من الرياض إلى الأحساء والعُقير
وقد سلك الكولونيل بيلي أولها وهو المسمّى مِخْيَط

مراحل الطريق الأول	اسم الناحية	ملاحظات
– من الرياض إلى :		
الدّغم	العَرَمَة	لا يتوفّر ماء
وثيلان	العَرَمَة	آبار قريبة تدعى رميلان
الحومة	الدهناء	لا يوجد ماء
البريصة	الدهناء	لا يوجد ماء
الربيداء	الصمّان	لا يوجد ماء
جَوْدَة.	الصمّان	آبار تحمل الاسم نفسه
الفُروق.	نفود الحسا	لا يوجد ماء
غريميل	نفود الحسا	لا يوجد ماء
الأحساء	هَجر	ينابيع مياه
الموطى	. . .	لا يوجد ماء
العُقير.	. . .	آبار مالحة

مراحل الطريق الثاني	اسم الناحية	زمن المسير	ملاحظات
– من الرياض إلى :		ساعة	
الدّغم	العَرَمَة	10	لا يوجد ماء
مخَيّط	العَرَمَة	8	كذلك
سعْد	الدهناء	12	كذلك
الدّهناء	الدهناء	10	كذلك
عريج	الصمّان	10	آبار مياه صالحة للشرب
روات البيضا	الصمّان	6	كذلك
رُبيداء	الصمّان	3	كذلك
روضة الحنى	الصمّان	3	كذلك
الفروق	الصمّان	10	كذلك
الأحساء	النُّقرة	10	آبار وينابيع
العُقير	. . .	13	آبار مالحة

* * *

الملحق الخامس

أسماء المراحل على طول الطرق من الكويت إلى القطيف

اسم المرحلة	ملاحظات
- من الكويت إلى :	
أبو حُلَيْفة	هذا هو طريق القوافل نفسه إلى الأحساء ، والماء متوفّر حتى مرحلة «حَبْل» .
السّلوع	
الحزيم	
المَجاتة	
السّودة	
الرّدايف	
الحبل	
الجزيرة	هذا القسم من الطريق لكونه يجتاز آكاماً رمليّة ليس به ماء حتى القَطيف .
الجبيل	
البياض	
الأوجام	
القَطيف	

اسم المرحلة	زمن المسير	ملاحظات
- من الكويت إلى :	بالساعة	
الفنطاس	4	
أبو حُلَيْفة	8	
مراغة	10	معدّل المسير بحدود ثماني ساعات في اليوم على ظهر الجمل .
مجاتة	5	
حَمَض	10	
السُّودة	10	
ديبب أو دبيّة	12	
الصَّباخة	8	
القَطيف	4	

* * *

الملحق السادس

عدد وأسماء المراحل على طول الطرق من الكويت إلى الأحساء

الطريق الأول عبر أطلال ثاج	الطريق الثاني الذي يقطع طريق الرياض
- من الكويت إلى :	- من الكويت إلى :
مَلَح	الشّعيبات
الصّبيحيّة	مراغة
الوفرة	عَرْق
مراغة	السّلوع
عَرْق	نُقَيْر
حَمَض	الحَمّار
نُقَيْر	بتمة
النُّعَيْرِيّة	عشبة
نطاع (قرية)	مُسلَّخ
ثاج	ملاحة
مغار	العيون
الضّبطيّة	الأحساء
جُودة	
الثّليما	
الأحساء	

الطريق الثالث وهو طريق القطيف نفسه	الطريق الرابع وهو المباشر	
- من الكويت إلى :	- من الكويت إلى :	المسافة
أبو حُلَيْفة	الفنطاس	4 ساعات
السّلوع	أبو حُلَيْفة	8 ساعات
الحزيم	مراغة	10 ساعات
المجاتة	مجاتة	5 ساعات
السّودة	حَمَض	10 ساعات
الردايف	السّودة	10 ساعات
الحَبْل	الحَبْل	8 ساعات
اللدام	الجوف	12 ساعة
الجوف	عين دار	12 ساعة
غُريميل	الأحساء	8 ساعات
الأحساء		

* * *

الملحق السابع

بيان بالمسافات بين البلدان والنواحي المذكورة أدناه وبين الرياض عاصمة نجد

اسم المكان	المسافة	ملاحظات
من الرياض إلى الكويت	12 يوماً	
من الرياض إلى القطيف	8 أيام	
من الرياض إلى الأحساء	6 أيام	
من الرياض إلى العُقير	7½ أيام	
من الرياض إلى الزُّلفي	4 أيام	
من الرياض إلى القصيم	5 أيام	معدّل المسير بحدود ثماني ساعات في اليوم على ظهر الجمل .
من الرياض إلى جبل شمّر..........	9 أيام	
من الرياض إلى جوف آل عمرو	12 يوماً	
من الرياض إلى حَزم الرَّاجي	9 أيام	
من الرياض إلى وادي الدواسر	7 أيام	
من الرياض إلى الوَشم..........	4 أيام	
من الرياض إلى الحريق..........	2 يومان	
من الرياض إلى الخَرج (اليمامة)	1½ يوم	
من الرياض إلى مكة	18 يوماً	
من الرياض إلى الحوطة..........	2 يومان	

بيان بالمسافات بين البلدان والنواحي

المذكورة أدناه وبين مرفأ الكويت

اسم المكان	المسافة	ملاحظات
من الكويت إلى القَطيف	6 أيام	
من الكويت إلى الأحساء..........	10 أيام	
من الكويت إلى العُقير	10 أيام	معـدّل المسـير بحـدود
من الكويت إلى الزُلفي..........	10 أيام	ثماني ساعات في اليـوم
من الكويت إلى القَصيم	12 يوماً	على ظهر الجمل .
من الكويت إلى جبل شمّر..........	16يوماً	
من الكويت إلى حَزم الرَّاجي	18 يوماً	
من الكويت إلى مكة	26 يوماً	

* * *

الملحق الثامن

الأوزان والمكاييل المعمول بها في الرياض

2 تومان = 1 ربعة .

4 تومان = 2 ربعة =1 نُصيف .

8 تومان = 4 أرباع = 2 نُصيف = 1 مُدّ .

24 تومان = 12 ربعة = 6 نُصيف = 3 أمداد = 1 صاع .

المكاييل المذكورة هي مكاييل من الخشب أو الصفيح . والوزن الوحيد المعمول من الحجر أو الحديد يسمى «الوزنة» ، والوزنتان تعدلان صاعاً واحداً .

عملات الرياض

2 بيزة[1] بومباي = قمري تركي .

4 بيزة بومباي = 2 قمري تركي = 1 ربيّع تركي .

20 بيزة بومباي = 10 قمري تركي = 5 ربيّع تركي = 1 كران تركي .

26 بيزة بومباي = 13 قمري تركي = 6½ ربيّع تركي = 1 كران إيراني .

---

26 بيزة = 1 كران إيراني .

65 بيزة = 2½ كران إيراني = 1 روبية بومباي .

130 بيزة = 5 كران إيراني = 2 روبية بومباي = 1 ريال .

650 بيزة = 25 كران إيراني = 10 روبية بومباي = 5 ريال = 1 جنيه إنكليزي .

* * *

(1) البيزة Pice : عملة هندية قديمة تساوي 1/ 64 من الروبيّة .

الملحق التاسع

بيان يظهر الأقوام القاطنة بناحية نجد السعودية وأعدادها التقريبية والعائدات السنوية من نواحي نجد وعدد المقاتلين المتوفرين في كل ناحية

اسم الناحية	عدد السكان	العائدات بالريالات	عدد المقاتلين
القَصيم	20,000	70,000	600
الوَشم	8,000	12,000	400
سُدَير	12,000	70,000	400
العَارض	12,000	50,000	1,200
اليمامة (الخَرج والحريق) . . .	6,000	30,000	لا يوجد
الحوطة	8,000	20,000	500
الأفلاج	2,000	7,000	300
السّلَيل	4,000	7,000	500
وادي الدَّواسر	10,000	16,000	1,000
الأحساء	20,000	270,000	1,000
القَطيف	6,000	130,000	لا يوجد
العُقَير	. . .	4,000	لا يوجد
المنطقة بين العارض وحَزم الرَّاجي المعروفة بالقرنية . . .	7,000	6,000	2,000
المجموع	115,000	692,000	7,900

يتضمن دَخل النواحي الرسوم الجمركية وضرائب الأراضي والماشية ، وقيمة الرسم بحدود 10 بالمئة . لكنها تختلف في عدة أماكن ففي بعضها تجبى 10 بالمئة وفي البعض الآخر 5 بالمئة ، وفي بعض الأماكن أقل حتى من ذلك . وضريبة الأراضي 10 بالمئة للمسقية بالسيول (ديمية) و5 بالمئة للمسقية بالآبار (سيحية) أما ضريبة المواشي فهي واحدة للحضر والبدو على حد سواء ، وتبلغ رأساً واحداً لكل 40 جمل ورأساً لكل 100 خروف ورأساً لكل 20 فرس .

الملحق العاشر

عشائر البدو في نجد وأعدادها التقريبية والدخل السنوي الذي تؤدّيه للأمير

اسم العشيرة	التعداد	الدخل السنوي
سُبَيع	800	6,000 ريال
السُّهول	600	8,000 ريال
العجمان (ومَن يلوذ بهم من الرَّخم)	1,200	8,000 ريال
قَحْطان	6,000	16,000 ريال
قَحطان (جَنب)	1,000	4,000 ريال
عتيبة (ثلاثة أفخاذ)	1,400	12,000 ريال
حَرْب	1,000	8,000 ريال
عْنزة (في نجد)	600	4,000 ريال
البريه (من مطير)	800	4,000 ريال
مطير	1,200	16,000 ريال
مطير (مَن يلوذ بهم من الهتيم) ...	400	4,000 ريال
الصُّهَبة	200	2,000 ريال
بنو خالد والعجمان في الأحساء...	2,000	2,000 ريال
بنو هاجر..............	500	3,000 ريال
المناصير (في نجد)	400	2,000 ريال
آل مُرّة	600	3,000 ريال
الدَّواسر................	1,600	12,000 ريال
المجموع................	20,300	114,000 ريال

قلّما تجمع العوائد بالأموال النقدية بل بشكل سلع عينية : جمل عن كل أربعين رأساً ، وخروف عن كل مائة رأس ، وفرس عن كل عشرين ، وهكذا دواليك .

الملحق الحادي عشر

بيان ببعض الأساليب التي يتّبعها البدو لإجارة مرتكب جناية القتل[1]

1- يكون القاتل آمناً إن نال جواباً على سلامه ممن يطلب الثأر منه .

2- إذا استطاع القاتل الإفلات من سجنه بالقيود المكبّل بها ، وتمكّن من الوصول إلى باب أيّ كان ودقّ هذا الباب فسوف يحوز على الحماية (من صاحب ذلك الباب) ، وستصبح القيود التي يحملها ملكاً له عند ذاك ، ولا تُعاد إلى متّهميه .

3- في حال كان القاتل مسجوناً في قبر حُفر لهذا الغرض خصيصاً ووُضع فوقه لوح خشبي ينام عليه حارسه لمنع أي اتصال به ، ثم استطاع القاتل إقناع أي شخص بمدّ حبل من بيته إلى مكان احتجازه وربط هذا الحبل بالقاتل ، فسوف يتعيّن عندئذ على صاحب البيت الذي يمتد منه الحبل أن يمنحه حمايته بدعوى أن الحبل يتّصل ببيته .

4- إذا تمكن القاتل المسجون من الاتصال سراً ببيت أحد الناس ونال منه لقمة طعام ووضعها في فمه فسيمنحه صاحب البيت الحماية لأنه أكل من خبزه .

5- إن تمكن قاتل مقيّد بالأغلال من البصق على أي شخص بالقرب منه يمسح هذا الشخص البصقة ويمنح القاتل حمايته .

---

(1) حول هذا الموضوع راجع كتاب موزيل : «عوائد عرب الروَلَة وشمائلهم في بوادي الشام والجزيرة» ، الفصل 16 النهج القضائي والفصل 17 إجارة المظلوم . وكذلك كتاب : القضاء بين البدو لعارف العارف ، القدس 1933 ؛ وكتاب القضاء البدوي لعودة القسوس ، عمّان 1936 ؛ وكتاب : القضاء عند البدو لروكز بن زائد العزيزي ، عمّان ؛ وكتاب : البدو والبادية لجبرائيل جبّور ، بيروت 1988 .

6- إن توصّل القاتل مع متّهميه إلى الاتفاق بإعطائهم «الدِّيَة» ، أي 100 جمل ، وأُعطي الأمان إلى أن تُجلب الجمال ، ثم أثناء انتظار وصول الجمال ألقى أحد المجتمعين التحيّة على القاتل وأجاب هذا الأخير عليها ، فيتعيّن على من بدأه بالسّلام أن يمنحه حمايته ، ولا تُؤخذ منه الجمال عند ذاك ولا يُطالب بأية ديّة .

7- إن طلب القاتل اللجوء إلى مكان تبيت فيه الجمال بالليل (مُرَاح) ، ونام هناك ليلة واحدة فسينال عندها حماية أصحاب الجمال .

8- إذا كان القاتل يركب بعيراً وربط هذا البعير إلى بيت أي رجل كان فسينال الحماية من صاحب هذا البيت .

9- إذا اتصل القاتل سراً ببيت متّهمه وحصل على الطعام من هناك وأكل هذا الطعام بحضور متّهمه ، وكان صاحب الثأر لا يعلم بأن الطعام من بيته ثم علم ذلك لاحقاً فسوف يُسقط حقّه تجاه المجرم على اعتباره صار ضيفاً له .

10- إذا كان القاتل أثناء الإمساك به ضيفاً على أي رجل ، فسيحميه هذا الرجل ليلة واحدة ونهاراً واحداً ، لأن خبزه مازال في بطن القاتل ، وفي هذه الأثناء يحاول القاتل العثور بوسائل أخرى على الحماية من غيره .

11- إذا استطاع القاتل عند القبض عليه إلقاء غترته على أي رجل ، فسيقوم هذا الرجل بحمايته .

12- إذا قدم القاتل جمعاً يضم الجهة المتّهمة له متخفّياً وحيّاهم بالسلام فأجابوه دون معرفتهم به وردّوا سلامه يُعدّ آمناً وله الحماية .

13- إذا استطاع القاتل إثناء الإمساك به إيجاد الفرصة لربط ثيابه بثياب أصحاب الثأر ينال الأمان .

14- إذا استطاع القاتل أثناء الإمساك به إيجاد الفرصة للتمسّك بأهداب ثوب أخي صاحب الثأر ، أو ألقى نفسه عليه ، ينال الحماية لمدّة عام كامل . وفي هذه الأثناء إما أن يجد لنفسه ملاذاً أو يبحث عن شخص آخر يحميه قبل انقضاء العام .

15- إذا استطاع القاتل أثناء الإمساك به إيجاد الفرصة للمس يد أي شخص أو قدمه يتوجّب على من يلمسه أن يحميه .

16- إذا استطاع القاتل عند الإمساك به إيجاد الفرصة لإلقاء حجر أو عصا على أي شخص ما فيتوجّب على الشخص المرمي حمايته .

17- إن طلب القاتل القيام برحلة وخشي أن يذبحه أصحاب الثأر على الطريق ، وحصل على حماية شخص ينتمي لرهط متّهميه لمرافقته ، يصبح بذلك آمناً ، وإن طلب من حاميه ألا يسلمه لأصحاب الثأر لما فعل ذلك .

* * *

الملحق الثاني عشر

قائمة بالسلائل المختلفة للخيل العربية في نجد

هناك خمسة سلائل (أرسان أو أحواج) أساسية هي[1] :

1- صقلاوية جدران .
2- كُحيلة العجوز .
3- عبيّة شرّاك .
4- دَهمة شويمان .
5- وَدْنَة خرسان .

والرَّسَن الأول غير متوفر في نجد ، ومنه القليل لدى عشيرة العنزة . ومن هذا الرسن الأول سلالة هجينة تتوفر تحت اسم صقلاوي العبد[2] .

ومن الرسن الثاني تتفرع عدة أرسان ثانوية ، وتسمى كما يلي :

- شويمان	- معنقيّة	- حرقا
- حمدانية	- طويسة	- مرادى
- هدبا	- طريفيّة	- زهيّة
- ريدا	- جارية	- جرادة
- شهيب	- جازية	- مصنّة

(1) الودنان والشويمان هما من فروع الكحيلان ، والخمسة هي : كحيلان وصقلاوي وعبيّان وحمداني وهَدبان . ومبحث الخيل واسع ومعقّد تكثر فيه الآراء وتتشابك الأسماء ، ولو أن المصادر العربية القديمة تُعدّ الأساس ، كأنساب الخيل لابن الكلبي وكتاب الخيل لأبي عُبيدة ، فلا بدّ من الرّجوع إلى كتب الأوروبيين ، كالبريطانيين وليَم تويدي وهومر دافنپورت والإيطالي كارلو غوارماني والبريطانية آن بلنت والألماني كارل شميت .

(2) بالأصل : Obair ، وصقلاوي العبد هي سُلالة خيل آل الشعلان شيوخ عشيرة الرّوَلَة .

وهناك أرسان أخرى ثانوية عديدة تُعرف نسبةً لأسماء العشائر أو المشايخ أو البيوت التي تمتلكها[1] . والأرسان الأساسية الثالثة والرابعة والخامسة لا يتغير اسمها عندما تتهجّن مع الأرسان الثانوية المذكورة المشتقّة من كحيلة العجوز .

ملحوظة

لا يأبه العرب كثيراً لشكل الجواد أو حجمه ، ويدفعون أثماناً عالية في الجياد الأصيلة . وهم مولعون للغاية بالأصائل المُطهمة ، وقد يتخلّون عن أبنائهم ولا يتنازلون عن جيادهم . وبعض العرب الذين يملكون خيلاً من السلالات الأصيلة يجنون أموالاً وفيرة من استعمال فحولهم للنّزو (الهدّ) .

* * *

(1) خير من جمع أسماء هذه الأرسان الثانوية كان الضابط البريطاني وليَم تويدي في كتابه : W. Tweedie: *The Arabian Horse* ؛ والرّحّالة البريطانية الليدي آن بلنت في كتابها الأول : *Bedouin Tribes of the Euphrates* «عشائر بدو الفرات» ، وفي كتابها الآخر : *A Pilgrimage to Nejd* «رحلة إلى نجد» (سنصدرهما في سلسلتنا روّاد المشرق العربي) ؛ وكذلك الضابط الألماني كارل شميت (المتكنّي باسم كارل الرّضوان الرّويلي) في كتابه : Carl R. Raswan: *Black Tents of Arabia* . كما ينبغي مراجعة كتاب : البدو والبادية لجبرائيل جبّور ؛ وكتاب *Al-Asil Araber* الصادر عن نادي الأصيل للخيل العربية في ألمانيا ، نشرته دار Georg Olms Verlag في عام 1986 .

الملحق الثالث عشر

نبذة عن عشيرة الصُّلَيْب[1]

كنت كما أذكر قد ضمّنت في مذكرتي المرفقة بتقريري المؤرخ في 14 شباط (فبراير) 1866 نبذة عن الصَّلَبَة . ولتجنّب وقوع الخطأ ها أنا ذا أضمّ إلى هذا التقرير ما يعاود ذاكرتي حول هذا الموضوع .

يقال إن الصّلَيْب أو الصّلَبَة قد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم في المناسبات كالزواج أو الختان يَركُزون صليباً خشبياً مكسواً بقماش أحمر يعلوه ريش على مدخل خيمة الشخص المتزوج أو الذي سيجري ختانه . ويُعدّ هذا الإجراء بمثابة دعوة عامة للجيران للاجتماع والرّقص حول الصَّليب .

ثمّة رواية أخرى ترجع اسم الصّلَيب إلى الصُّلب أي الظّهر ، لأن هذه القبيلة هي أقدم القبائل وهي بمثابة صُلب العرب ، ومن أنقى الأنساب . لكن العرب المسلمين يرفضون هذا الادّعاء ، ويصمون الصّلَبَة بأنهم منبوذون ، ويؤكدون رواية تقول إن النُّمرود عندما أراد إلقاء النبي إبراهيم في النّار أتى بعض الملائكة لحمايته ، فظهر إبليس أو الشيطان وبيّن للناس أنه من يأتي منهم بمعصية شائنة يُلجئ الملائكة للهروب فيبقى إبراهيم دون سند . فما كان من أحد الأعراب إلا أن بادر إلى أمه فراودها عن نفسها وغشيها[2] ، فهربت الملائكة مرتاعين . لكن فجأة ظهر الملك جبريل وحوّل منصّة التضحية إلى روضة خضراء ، ومنذ ذلك الحين صار أحفاد المجرم العاصي منبوذين تحت اسم الصّلَيْب .

---

(1) في كتاب جبرائيل جبّور «البدو والبادية» بحث واف وقيّم عنها (ص 333) . وراجع :
Doughty, Charles: *Arabia Deserta*, London, 1936; Müller, Victor: *En Syrie avec les Bedouins*, Paris, 1931; Dixon, H.R.P.: *The Arab of the Desert*, London, 1949.

(2) هُراء وهَذَر فارغ لا يعدو كونه أسطورة سخيفة على عادة الرّواة قديماً في نسب ما يجهلون إلى الأوهام والخُرافات .

وفروع الصّلَيب التي هاجرت إلى نجد وبعض بلاد الجزيرة العربية تدين ظاهرياً بالعشائر الدينية والشرائع الإسلامية . لكنهم يحتفظون لأنفسهم بشعائر دينية خاصة ، وهم يؤمنون بإله واحد ويحترمون النبي محمّداً كرجل ، لكنهم يُنكرون بعثته كنبي . وهم يؤمنون أيضاً ببعض الشخصيات السماوية المُبهمة ويَسِمونها بأصحاب الله الخُلّص . وهم يؤدّون الصلاة ثلاث مرات يومياً ، أحدها عندما تشرق الشمس ، ولكن على أن تنتهي الصلاة قبل اكتمال قرص الشمس في الأفق ، والثانية قبل أن تزول الشمس في وقت الهاجرة ، والثالثة على أن تنتهي قبل مغيب الشمس .

أما الصّلُبَة الذين لا يزالون يقطنون في العراق فيقال إن عبادتهم أكثر صحّة وأصالة ، وأنهم ما زالوا يحتفظون ببعض نصوصهم المقدّسة باللغة الكلدانية أو الآشورية[1] . ويُظن أن من بين هذه النصوص مزامير داود وبعض الأنبياء اليهود الآخرين . ويصوم الصّلَيب ثلاث مرات في العام ، منها ثلاثون يوماً خلال شهر رمضان ، وكذلك من أربعة إلى سبعة أيام في شعبان ، ومن خمسة إلى تسعة أيام خلال شهور الصيف .

والصّلَيب يقدّسون نجم القطب ، على اعتباره النقطة الثابتة التي تهدي جميع السيّارة في البرّ والبحر . وبغرض التعبير عن تبجيلهم له يقفون ووجوههم مقابلة له ويمدّون أذرعهم ليرسموا شكل الصَّليب .

لا يقبل العرب البتّة بالتزاوج مع الصّلُبَة ، وعادات الزواج لدى هؤلاء بسيطة : تتم مراسم الزواج بحضور الأبوين أو الأقربين لعصب العروسين . والأساس في الأمر هو الموافقة المتبادلة بين الطرفين ، ويتلقى والد الفتاة مهراً معلوماً . ثم يسأل المولى ، وهو شيخ أشيب ، الطرفين كليهما عن إقرارهما بهذه الرابطة ، ثم يتلقّى أجراً لذلك ويسمح للعروسين ببدء حياتهما الزوجية .

وبعد ولادة الطفل بأربعين يوم يُغمس سبعة مرات في الماء .

---

(1) هذا هو الصواب في حقيقة الصّلَيب ، أنهم يرجعون بأصلهم إلى صابئة حرّان المندائيين الذين يدينون بعبادة النّجوم ، ولغتهم القومية والدينية هي الآرامية الكلدانية .

وينبغي ختان الصبيان قبل بلوغهم سنّ السابعة . وعندها يجري نصب الصَّليب كما سلف ذكره ، وتُنحر بعض الخراف ويُدعى الجميع إلى الوليمة .

وفي واقع الأمر يبدو أن صلُبة الصحراء يضطرون إلى الإذعان بشعائر الديانة السائدة[1] ، حتى أنهم مع كرّ الأيام وتعاقب الأجيال نسوا شعائرهم الخاصة بهم . وهم مع ذلك يدّعون بأنهم كانوا من الصابئة بالأصل ، ولكن ذلك يبدو لي غير صحيح .

والصلّبة مسالمون ، والعشائر تأنف من التعدّي عليهم أو غزوهم . ومكانتهم المفيدة كأدلاّء وكادحين لا تجيز لأحد أذيتهم . وهم لا يدفعون جزية لأحد وتستنكف العشائر من الاقتراض منهم . ولهؤلاء الصلّبة حام في جميع العشائر الكبرى يلجؤون إليه في حال لزوم الحماية ، فتتمّ تسوية أمورهم عن طريق الوساطة . والصلّبي نفسه لا يغزو البتة ، لكنه كجميع أبناء الصحراء سخيّ كريم بحق الضيف . ويشتهر الصلّبة بأنهم رُماة مهرة ، وهم أكثر من يُعتمد عليهم كأدلاء في الصحراء . وتركن العشائر نفسها إلى معرفة الصلّبة بالمصادر الخفيّة للمياه الجوفية .

يتألف طعام الصلّبة إجمالاً من التّمور والجراد ، والحليب والزبدة المتوفرة من قطعانهم ومواشيهم العديدة . وهم يبيعون ما يفضل منها عن حاجتهم على الساحل حيث ينزلون لمدة أربعة أشهر تقريباً من كل عام ، ويأخذون بالتجوال في الأشهر الثمانية الباقية . وبيوت شعرهم مصنوعة من وبر المعزى الأسود ، وهي عمليّة جداً بحيث يمكن نقلها بسهولة ويسر . وعند التخييم يضربون خيامهم بمعزل عن باقي العشائر .

ويبدو أنه ليس للصلبة شعائر خاصة بالدّفن ، فهم كالمسلمين يغسلون موتاهم ويلفّون أجسادهم بأكفان بيضاء ويصلّون على روح الميت . وبعد ذلك ينحرون خروفاً ويوزعون لحمه للفقراء . وفي حال عدم توفّر الكفن يُدفن الصلّبي في درّاعته المصنوعة من جلد الأيّل ، تماماً كما يُدفن البدوي في قبائه .

---

(1) هذا ما كان رواه المؤلف عن دليله الصلّبي ، راجع الفقرة 89 من المتن .

والصلّبة يبجّلون مكّة ، لكنهم يعتبرون أن قبلة حجّهم الأولى هي حرّان في العراق (بلاد الرافدين) . وهم يسمّون نجم القطب الشمالي «الجاه» ، ويقدّسون كذلك نجماً آخر في كوكبة الجدي ويدعونه بهذا الاسم : «الجدي» .

ويُجمع الكل على أن نساء الصلّيب هنّ الأكثر جمالاً بين نساء قبائل البدو الرّحّل ، لكنهن غير مكترثات بالنظافة على الإطلاق ، وقد تجدهن يأكلن الجيف على مداخل المدن .

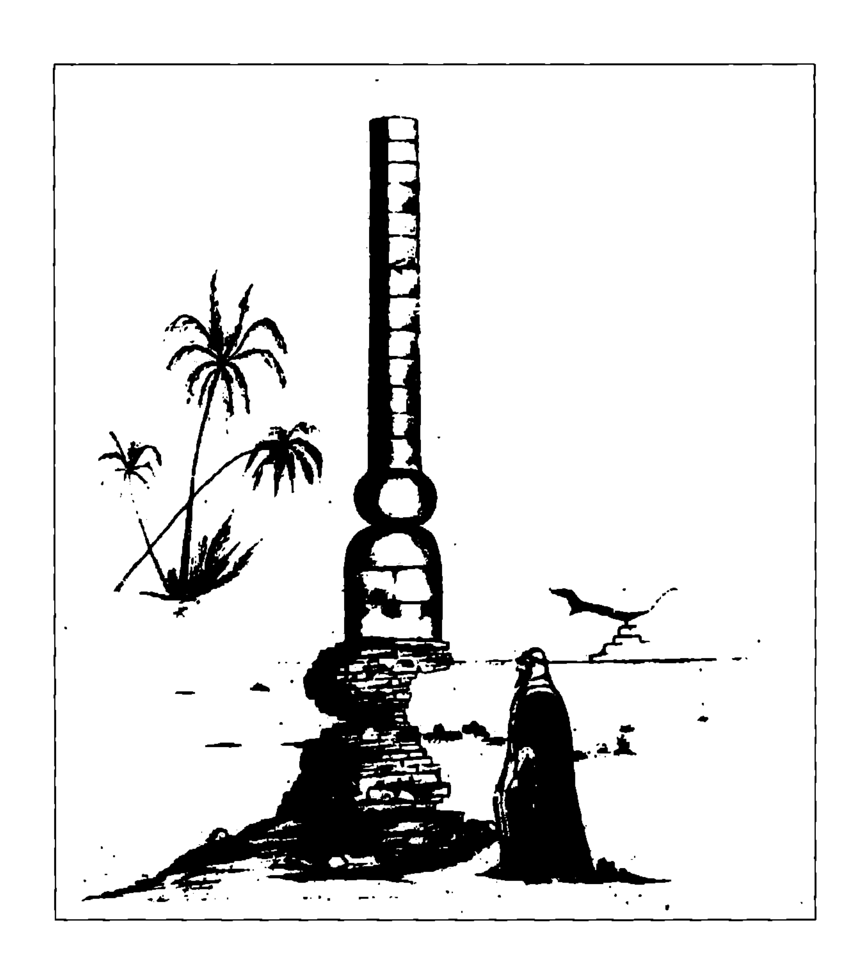
(التوقيع)
لويس پيلي
Lewis Pelly

14 أيار (مايو) 1866

* * *

الملحق الرابع عشر

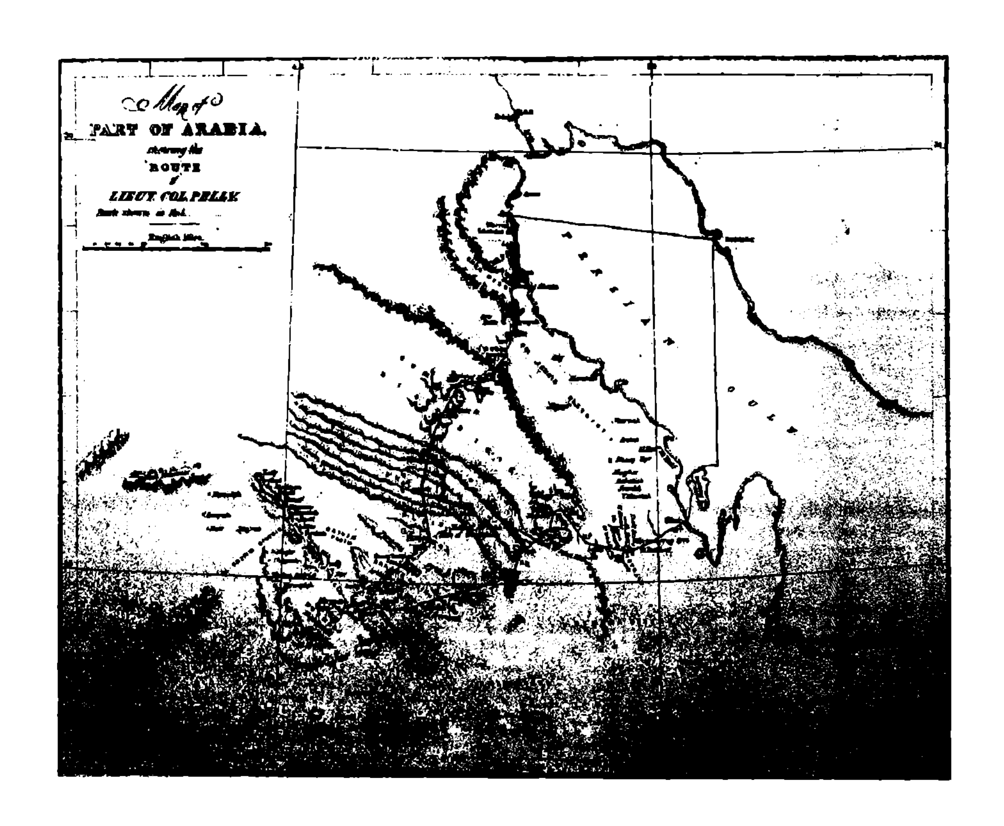
رسم لعمود سدوس



الملحق الخامس عشر

خريطة جزئيّة للجزيرة العربية تبيّن خط مسير

الكولونيل پيلي من الكويت إلى الرياض، ومنها إلى العُقير



الملحق السادس عشر

كتابات منقوشة على أبنية ومدافع في مسقط

APPENDIX XVI.

ON THE CHAPEL { AVE MCRASAPIADSECV

ON THE BRASS GUN:

DON. PHILLIP
III. REYDESPANA

DONIVAN DE. ACVÑA
DESV. CONSEIO. DECVERA
V. SV. CAPITAN GENERAL
DE. LAARTILLERIA ANO
1605

ON THE GATE:

REINAODHOMVAEFOIEPOD
RORO. F. PRIVERODSENCVER e
IE^S^NOSONOHOVRVOANOED ^
SEVREADOM GROADEPORV
GMANDOVPO RDNDAREDM
ENERESSEWRO R? DNDIA?ESEH
?ESE ESRFORRLERAA?AF SGFICHR
G'SVPRMEROCPIROEPNDDRIS 88.

الملحق السابع عشر

تبيان الكتابات المنقوشة

APPENDIX XVII.

AVE M CRASA PL DS TECVM

Hail Mary full of grace the Lord is with thee.

DON PHILLIP
III REY DE SPANA
DON IVAN DE ACVÑA
DE SV CONSEIO DE GVERA
Y SV CAPITAN GENERAL
DE LA ARTILLERIA AÑO
1606.

Don Philip III
King of Spain
Don Juan De Acuna
Of His Council of War
And His Captain General
Of the Artillery in the year
1606



اللفتنانت كولونيل لويس پيلي

Lieut.-Colonel Lewis Pelly

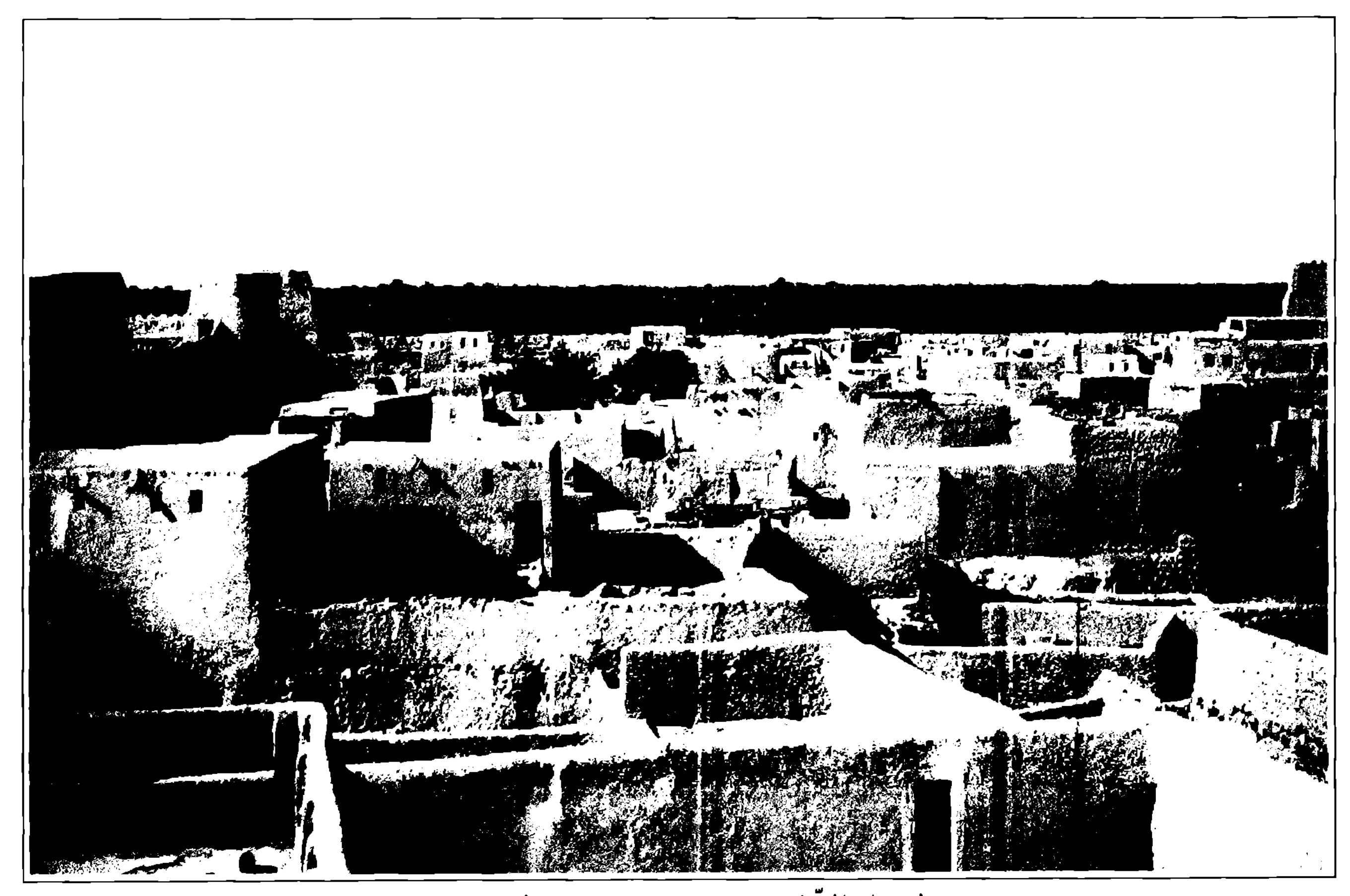
1825–1895 م



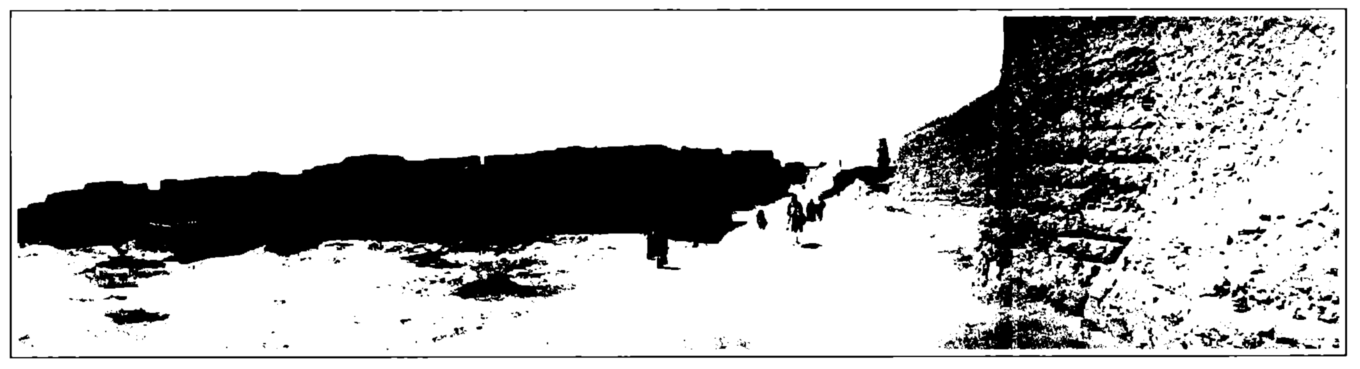
مجلس يعقده شيوخ الكويت في البادية للنظر في شؤون رعاياهم
تصوير الكاپتن وليَم شيكسپير عام 1909



مرافقو الكاپتن وليَم شيكسپير من البدو في برّ الكويت ، عام 1909



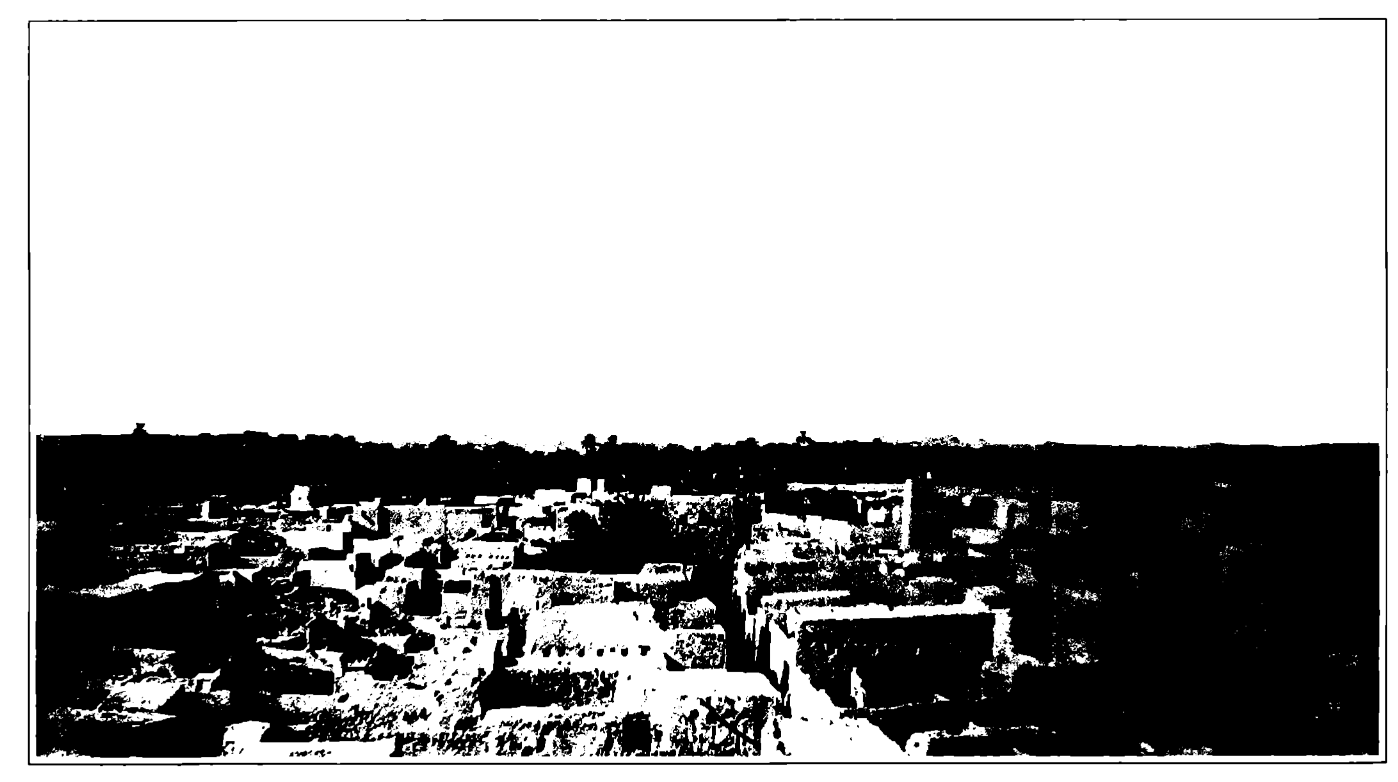
منظر عام للرّياض ، تصوير جورج رندل عام 1937



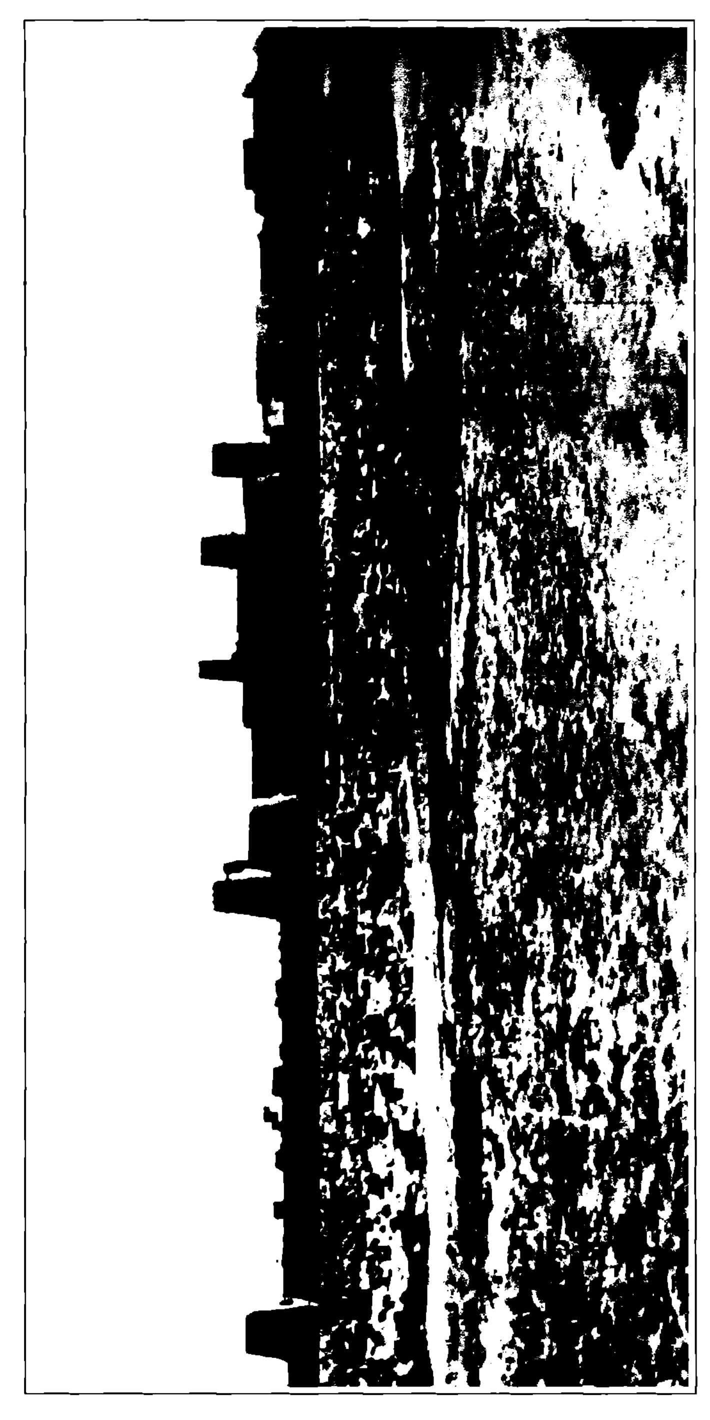
طريق الثميري في الرّياض ، تصوير الكاپتن ولَيم شيكسپير 1914



مشارف الرياض من جهة الشمال الغربي ، تصوير الكاپتن ولَيم شيكسپير عام 1914



الجانب الشمالي الغربي من الرياض ، تصوير هاري سنت جون فيلبي عام 1917



أسوار مدينة الرياض ، تصوير جيرارد ليتشمان ، آذار (مارس) 1912



الجانب الشمالي الشرقي من سور الرياض ، تصوير جورج رندل عام 1937



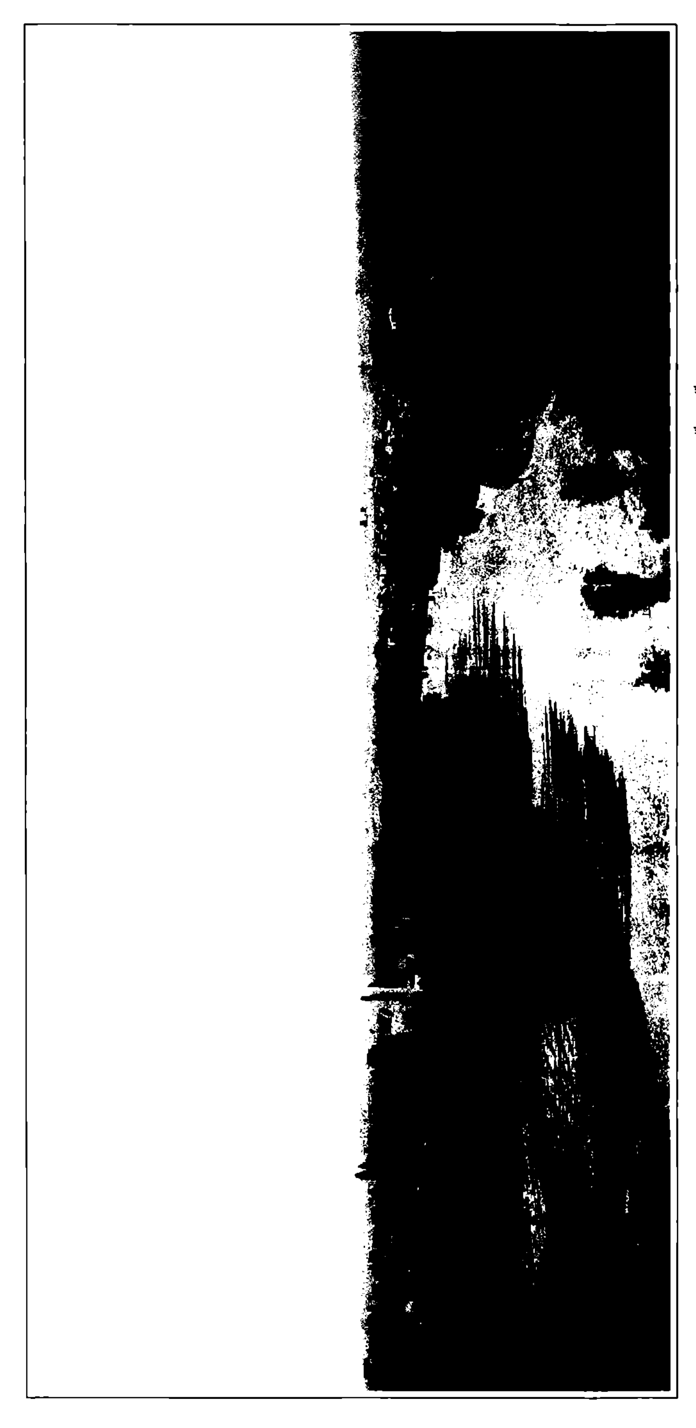
سوق المقيبرة القديم غربي الرياض ، تصوير جورج رندل عام 1937



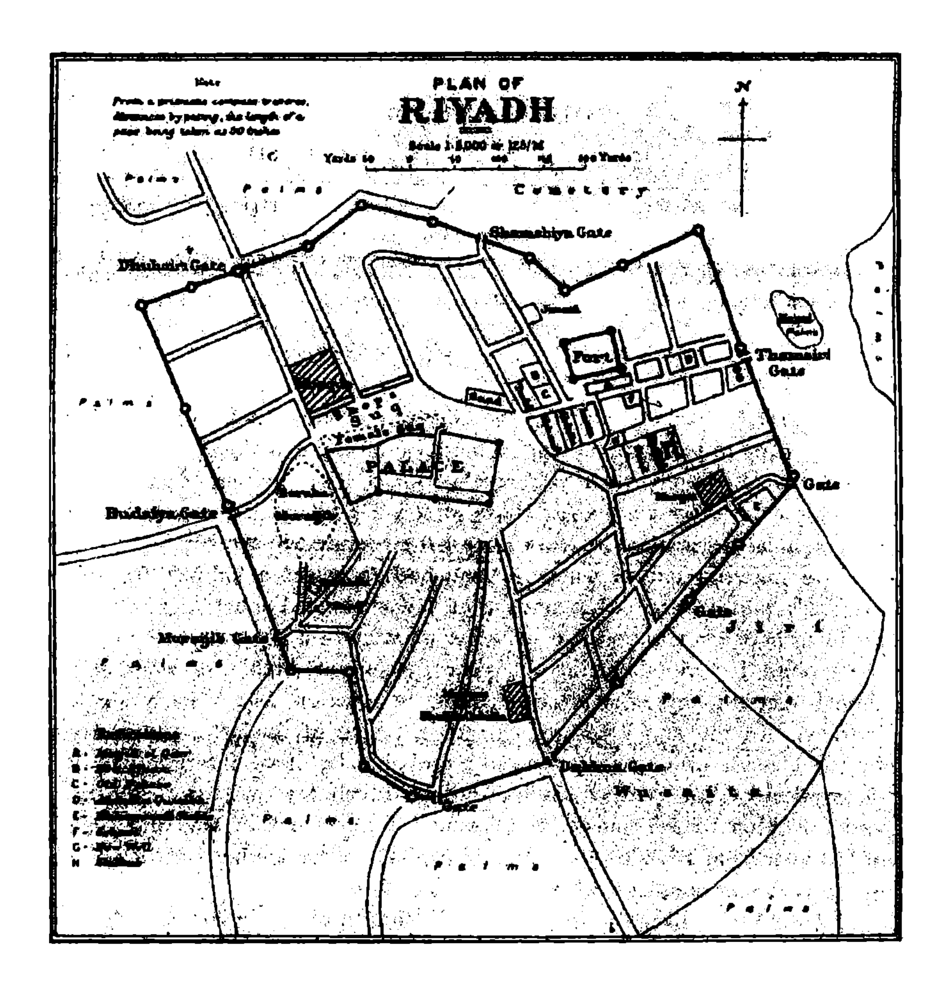
سوق الهدوم القديم في الرّياض ، تصوير جورج رندل عام 1937



مَحَالة بئر الشميسي في وادي حنيفة بظاهر الرياض ، تصوير الكابتن وليَم شيكسبير عام 1914



بلدة الدّرعيّة من جهة الجنوب ، تصوير هاري سنت جون فيلبي عام 1917



خريطة قديمة لمدينة الرياض
رسم هاري سنت جون فيلبي عام 1917

مسرد مراجع
التحقيق والصور

أولاً : المراجع العربية

- الأخبار النجدية (تاريخ الفاخري) : لمحمد بن عمر الفاخري ، تحقيق عبد الله الشبل ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض (دون تاريخ) .
- ارتياد جزيرة العرب (سيرة كشوف رحّالة الغرب في أرض الجزيرة) : دافيد جورج هوغرث ، ترجمة د. أحمد إيبش ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث 2009 .
- الأزهار البريّة للمنطقة الوسطى في المملكة العربية السعودية : بيتي ليسكوب ڤينسنت ، ترجمة جلال محسن السنوي ، ميلانو 1977 .
- أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها : للحسن بن أحمد الأعرابي ، تحقيق محمد علي سلطاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1982 .
- الأطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية : دارة الملك عبد العزيز ، الطبعة الثانية ، الرياض 1412 هـ .
- اكتشاف جزيرة العرب ، خمسة قرون من المغامرة والعلم : لجاكلين پيرين ، ترجمة قدري قلعجي ، دار الكاتب العربي ببيروت ومكتبة النهضة ببغداد 1963 .
- انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية : لمحمد كمال جمعة ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض 1401 هـ = 1981 م .
- أنساب الخيل : لهشام بن محمد ابن الكلبي ، تحقيق أحمد زكي ، القاهرة 1965 .
- البدو والبادية : لجبرائيل جبّور ، دار العلم للملايين ، بيروت 1988 .
- بلاد العرب : للحسن بن عبد الله الأصفهاني ، تحقيق حَمَد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة ، الرياض 1388 هـ = 1968 .

- تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجـد (700–1340 هـ) : لإبراهيم بـن صـالح ابن عيسى ، أشرف على طبعه حَمَد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض 1386 هـ .
- تاريخ الدولة السعودية من محمد بن سعود إلى عبد الرحمن الفيصل : لأمين سعيد ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض (دون تاريخ) .
- تاريخ العربية السعودية : ألكسي ڤاسيليف ، ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطة ، دار التقدّم ، موسكو 1986 .
- تاريخ الكويت : لعبد العزيز الرشيد ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1978 .
- تاريخ المملكة العربية السعودية : لعبد الله صالح العثيمين ، الرياض 1404 هـ = 1983 .
- تاريخ نجد (روضة الأفكار والأفهام لمُرتاد حال الإمام ، وتعداد غزوات ذوي الإسلام) : لحسين بن غنّام ، حققه ناصر الدين الأسد ، الرياض 1403 هـ = 1982 م .
- تاريخ نجد : لمحمود شكري الآلوسي ، نشره محمد بهجت الأثري ، بغداد 1343 هـ .
- تحفة المُستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد : لمحمد بن عبد الله آل عبد القادر الأحسائي ، مكتبة المعارف ، الرياض 1982 .
- الخبر والعيان في تاريخ نجد : لخالد الفَرَج ، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الله الشقير ، الرياض 1421 هـ .
- دراسة في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر : لعبد الفتّاح حسن أبو عليّة ، دار المرّيخ ، الرياض 1399 هـ .
دليل الخليج – القسم الجغرافي : تأليف ج . ج . لوريمر J. G. Lorimer ، ترجمة المكتب الثقافي لحاكم قطر ، بيروت 1970 .
- الدّولة السّعودية الثانية (1256–1309 هـ) : لعبد الفتاح حسن أبو علية ، مؤسسة الأنوار ، الرياض 1977 .
- رحّالة الغرب في ديار العرب : لأسعد الفارس ، مؤسسة صقر الخليج للنشر ، الكويت 1997 .
- الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حياته وفكره : لعبد الله الصالح العثيمين ، دار العلوم ، الرياض 1979 .

- صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار : لمحمد بن عبد الله بن بليهد النجدي ، مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة 1972 .
- صفة جزيرة العرب : للحسن بن أحمد الهمداني ، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي ، دار اليمامة ، الرياض 1399 هـ = 1978 .
- الصلّيب : لأنستاس ماري الكرملي ، مجلة المشرق ، بيروت ، ج 1 عدد 15 (1898) ، ص 673- 681 .
- عقد الدُّرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر : لإبراهيم بن صالح بن يحيى ، طبع بذيل كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر ، وزارة المعارف ، الرياض 1391 هـ = 1971 .
- علاقة ساحل عُمان ببريطانيا ، دراسة وثائقية : لعبد العزيز عبد الغني إبراهيم ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض 1981 .
- علم تشخيص العقاقير : لمحمد زهير البابا ، دمشق 1971 .
- علماء نجد خلال ستة قرون : لعبد الله بن عبد الرحمن البسّام ، مكتبة النهضة الحديثة 1398 هـ .
- عنوان المجد في تاريخ نجد : لعثمان بن بشر النّجدي ، تحقيق عبد الرّحمن آل الشيخ ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض 1402 هـ .
- عوائد عرب الروّلَة وشمائلهم في بوادي الشام والجزيرة : للمستشرق التشيكي ألويس موزيل ، ترجمة د. أحمد إيبش (قيد النشر لسلسلة روّاد المشرق العربي) .
- الفتح المُبين في سيرة السادة البوسعيديين : لحميد بن محمد بن رزيق بخيت ، تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله ، مسقط 1422 هـ .
- في بلاد عسير : لفؤاد حمزة ، مكتبة النصر الحديثة ، الرياض 1388 هـ .
- قافلة الحبر : لسمير عطا الله ، دار السّاقي ، بيروت 1994 .
- قبيلة العوازم ، دراسة عن أصلها ومجتمعها وديارها : لعبد الرحمن العبيد ، بيروت 1391 هـ .
- القضاء البدوي لعودة القسوس ، عمّان 1936 .
- القضاء بين البدو لعارف العارف ، القدس 1933 .
- قلب جزيرة العرب : لفؤاد حمزة ، القاهرة 1933 .

- كتاب الخيل : لأبي عُبيدة معمر بن المثنّى ، حيدر أباد الدّكن 1358 هـ .

- كتاب الخيل : لعبد الملك بن قريب الأصمعي ، تحقيق نوري القيسي ، بغداد 1970 .

- كتاب الخيل (مطلع اليُمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال) : لعبد الله ابن محمد بن جُزَيّ الكلبي الغرناطي ، تحقيق محمد العربي الخطّابي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1986 .

- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب : لمؤلف مجهول ، تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكمة ، بيروت 1967 .

- لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب : لمؤلف مجهول ، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض (دون تاريخ) .

- مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ : لحَمَد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض (دون تاريخ) .

- معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية ، مقاس 1/ 500,000 ، مكتبة المدني ، جدّة 1984 .

- معجم أسماء النبات : لأحمد عيسى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة 1926 .

- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة : للمستشرق زامباور ، القاهرة 1951 .

- معجم البلدان : لياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت 1955-1957 .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (معجم مختصر) : للشيخ حَمَد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض 1977 .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، عالية نجد : لسعد بن عبد الله ابن جنيدل ، دار اليمامة ، الرياض 1978 .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، قسم شمال المملكة : للشيخ حَمَد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض 1977 .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، المنطقة الشرقية (البحرين قديماً) : للشيخ حَمَد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض 1978-1986 .

- معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية : لمصطفى الشهابي ، مكتبة لبنان ، بيروت 1982 .

- معجم قبائل المملكة العربية السّعودية : للشيخ حَمَد الجاسر ، النادي الأدبي بالرياض 1981 .

- معجم اليَمامة : لعبد الله بن محمد ابن خميس ، الرياض 1399 هـ = 1977 م (دون ناشر) .

- مسائل من تاريخ الجزيرة العربية : لأبي عبد الرّحمن ابن عقيل الظاهري ، مؤسسة دار الأصالة ، الرياض 1994 .

- مشاهير علماء نجد وغيرهم : لعبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ، دار اليمامة ، الرياض 1392 هـ .

- ملوك العرب : لأمين الريحاني ، بيروت 1924-1925 . والطبعة الرابعة ، دار الريحاني ، بيروت 1960 .

- مواد لتاريخ الوهابيين : لجان لويس بوركهارت ، ترجمة عبد الله بن صالح العثيمين ، الرياض 1405 هـ .

- المؤلّفات النّادرة عن المملكة العربية السّعودية والجزيرة العربية : فهد السّماري وآخرون ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض 1416 هـ .

- نجد في الأمس القريب : لعبد الرحمن بن زيد السويداء ، دار العلوم ، الرياض 1403 هـ = 1982 م .

- نُخبة عَقْد الأجياد في الصّافنات الجياد : للأمير محمد بن عبد القادر الجزائري ، دار الفكر ، دمشق 1985 .

- نظرة على رحلة لويس پيلي إلى الرياض : لعبد الفتّاح حسن أبو علية ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد السادس 1396 هـ = 1976 م .

* * *

ثانياً : المراجع الإنكليزية

Allan, Mea: *Palgrave of Arabia*, Macmillan, London, 1972.

Badger, G.P.: *History of the Imams and Seyyids of Oman*, by Salil ibn Razik, Hakluyt Society, London, 1871.

Bent, J.T.: *Southern Arabia*, London 1900.

Belgrave, Sir Charles: *The Pirate Coast*, Librairie du Liban, Beirut, 1972.

Bidwell, Robin: *Travellers in Arabia*, London, 1976.

Blunt, Anne: *Bedouin Tribes of the Euphrates*, New York, 1879.

Blunt, Anne: *A Pilgrimage to Nejd, The Cradle of the Arab Race, A Visit to the Court of the Arab Emir, and "Our Persian Campaign"*, Published by John Murray, London, 1881.

Blunt, Anne: *A Pilgrimage to Nejd*, reprinted, Frank Cass, London, 1968.

Blunt, Anne: *A Pilgrimage to Nejd*, introduction by Dervla Murphy, The Century Travellers, London, 1985.

Brent, Peter: *Far Arabia, Explorers of the Myth*, Quartet, London, 1979.

Burckhardt, J.L.: *Notes on the Bedouins and Wahabys, Collected during his Travels in the East*, London, 1831.

Dixon, H.R.P.: *The Arab of the Desert*, London, 1949.

Doughty, Charles: *Travels in Arabia Deserta*, Cambridge, 1888.

Freeth, Zahra & Winstone, Victor: *Explorers of Arabia*, George Allen & Unwin, London, 1978.

Hage, Badr El-: *Saudi Arabia Caught in Time, 1861-1939*, Garnet, London, 1997.

Hogarth, David George: *The Penetration of Arabia*, London, 1904. And 2nd edition, Clarendon Press, London, 1922.

Le Strange, G.: *The Lands of the Eastern Caliphate*, London, 1905.

Low, C.R.: *History of the Indian Navy*, London, 1877.

Maurizi, V.: *History of Seyd Said*, London, 1819.

Musil, Alois: *The Manners and Customs of the Rwala Bedouins*, published by the American Geographical Society, New York, 1928.

Musil, Alois: *The Norhern Negd*, New York, 1928.

Nasir, Sari: *The Arabs and the English*, Longman, London, 1976.
Palgrave, William Gifford: *Personal Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia*, London 1865.
Pelly, Lewis: *Report on the Tribes, Trade and Resources around the Shore of the Persian Gulf*, Transaction of the Bombay Geographical Society, XVII (1863), pp. 65, 69.
Philby, Harry St. John: *Arabia of the Wahabis*, London 1928.
Philby, Harry St. John: *The Heart of Arabia*, London, 1922.
Philby, Harry St. John: *Report on Najd Mission 1917-1918*, Baghdad Government Press, 1918.
Philby, Harry St. John: *Saudi Arabia*, London, 1955.
Philby, Harry St. John: "The Southern Najd", *The Geographical Journal*, Vol. LV, No. 3, March 1920, p. 162.
Post, G.: *Flora of Palestine, Syria and Sinai*, American Press, Beirut, 1932.
Qasmi, S.M. Al-: *The Myth of Arab Piracy in the Gulf*, London, 1986.
Raswan, Carl R.: *Black Tents of Arabia*, Boston, 1935.
Sadlier, G.F.: *Diary of a Journey across Arabia*, Bombay, 1866.
Trench, Richard: *Arabian Travellers*, Macmillan, London, 1986.
Tweedie, W.: *The Arabian Horse*, London 1894.
Webster's Biographical Dictionary, G. & C. Merriam Co., Publishers, Springfield, Mass., 1943.
Winder, R. Bayley: *Saudi Arabia in the 19th. Century*, MacMillan, London, New York, 1965.

ثالثاً : المراجع الفرنسية

Hubert, Charles: "Voyage dans l'Arabie Centrale", dans: *Bulletin de la Société de Géographie*, vii^{e} série, tome 5, pp. 304-468.
Hubert, Charles: *Journal d'un Voyage en Arabie (1883-1884)*, Publications de la Société Asiatique et la Société de Géographie, Paris, 1891.
Mengin, F.: *Histoire de l'Egypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly*, Paris, 1823.

Müller, Victor: *En Syrie avec les Bédouins*, Paris, 1931.
Niebuhr, C.: *Description de l'Arabie*, Paris, 1771.
Niebuhr, C.: *Voyage de M. Niebuhr en Arabie et en autres pays d'Orient*, Paris, 1780.
Pirenne, Jacqueline: *A la découverte de l'Arabie*, Paris, 1959.
Sâyigh, Fathallah: *Le désert et la gloire, les mémoires d'un agent syrien de Napoléon*, traduit par Joseph Chelhod, Gallimard, Paris, 1991.
Soublin, Jean: *Lascaris d'Arabie*, Éditions de Seuil, Paris, 1983.

رابعاً : المراجع الألمانية

Euting, Julius: *Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien*, Leiden, 1896-1914.
Niebuhr, Carsten: *Reisebeschreibung nach Arabien und andern umliegenden Ländern*, Copenhagen, 1772.
Oppenheim, Max von: *die Beduinen*, Otto Harrassowitz Verlag, Leipzig-Wiesbaden, 1939-1968. (4 Bände im 6 Teile).

خامساً : المراجع الإيطالية

Guarmani, Carlo: *El Kamsa*, Roma, 1864.
Guarmani, Carlo: *Il Neged Settentrionale, Itinerario da Gerusalemme a Aneizeh nel Cassim*, Tipografia dei P. P. Francescani, Gerusalemme, 1866.

* * *

فهرس الموضوعات

* * *

رحلة إلى الرياض
في عام 1865 م

لم يكن اللفتنانت كولونيل لويس بيلي كبقيّة الرحّالين الآخرين، بل كان موفداً سياسياً لبريطانيا في منطقة الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر. كان ثاني رحّالة بريطاني يزور مدينة الرياض (عام 1865 م) بعد الرحّالة وليم غيفورد پالغريف (1862 م)، وذلك لإقامة علاقات وديّة بين بريطانيا والأمير فيصل بن تركي آل سعود، المؤسّس الفعلي للدولة السّعوديّة الثانية.

انطلق پيلي من الكويت، وقدّم عنها معلومات مفيدة ومهمّة، ثم تابع رحلته برواية ممتعة شائقة عبر صحراء الصّمان والدّهناء، ودخل عبر نجد مجتازاً بالعرمة والعارض وصولاً إلى الرّياض، التي لم يمكث فيها سوى ثلاثة أيام. وقد جاء في وصفه للأمير فيصل: كان يبدو فوق السبعين من عمره، ويرتدي ثياباً فخمة تنمّ عن ذوق رفيع، ويعتمر ما فوق الكفيّة العربية بعمامة مكوّرة من قماش الكشمير الأخضر. صوته رخيم وكلماته رزينة ومتّزنة. وهو رجل وقور ودمث.

السعر 50 درهم


ISBN 978-9948-01-464-5


أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE